

دعوة الحق
مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية
الإسلام دين عام شامل كامل
الصاع والمد النبوي العلوي
الشعر والشعراء بالمغرب الأقصى
كتاب الأغذية لأبي مروان عبد الملك ابن زهر
العدد 276 صفر الخير 1410 هـ / شتنبر 1989
الثمن : 4 دراهم.



شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط ـ المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور لــه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ ــ 1957 م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع:
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

مطبعة فضالة ـ المحمدية ـ المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

افتتاحيـــة



للأستاذ محمد بلعبد الله

تحدثنا سيرة الإنسان الكامل والمربي القدير أستاذ الإنسانية سيدنا محمد ﷺ بأنه كان أبعد الناس غضبا، وأسرعهم رضى، فكانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى في الخلق العالي من الحلم والتسامح والإغضاء...

فلقد افتن شياطين مكة في أذاه، فعذبوه في نفسه، وفي قومه، وفي أصحابه، فما استكان، ولا لان، ولا تردد، رغم المحن الشداد، والآلام الفواتن التي وجدها في مكة التي كان يخطو في طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون، وتتسعر بالعذاب، وتفور بالسفه والحقد والإفك والضغينة والمعارضة والوقاحة على محمد، وعلى دين محمد وأصحابه عليه السلام، فكان لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما...

قاوَمَ بالحجة، وصاول بالرأي، وجادل بالمنطق، وجاهد بالصدق، وجالد بالصبر، وأثر بالفصاحة والبيان، فجمع القلوب النافرة بالبر، وشفى الصدور الضيقة بالتعاون، وضم شتات الجماعة، ووثق عقدة الدين، وألف قومه على المودة، وجمعهم على الوحدة، حتى بلغ بحقه ودينه دار الأمان، فقويّ وعزّ، بعد أن بغى على حقه الباطل، وطغى على دينه الكفر...

لقد ساس عليه السلام أمته بالحلم والأناة، والصبر والتسامح والإغضاء والنفس الطويل حتى أعلى كلمة الله، وبلغ رسالة الحق، وحمل أمانة العلم...

فالحلم والاحتمال، والعفو مع المقدرة، والصبر على المكاره، والهيام في الحق، مما أدب الله تعالى به نبيه ﷺ، فقال تعالى : ﴿خذ العفو، وامر بالعرف، واعرض عن الجاهلين﴾، وقال تعالى : ﴿فاصفح عنهم،وقل سلام...﴾،... ولقد قالت عائشة رضي الله عنها :«ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قط... مالم تكن حرمة من محارم الله..».

هذا الخلق النبوي الكامل، كان وسيلة رائعة من وسائل الجهاد والنضال التي جدد بها عليه السلام أسلوب العيش، وأقام بها ميزان المجتمع، لا تزال عناوين ضخمة بارزة في صفحات الخلق والفضيلة، والسياسة والجهاد...

☆ □ ☆

في سيرة الرسول عليه السلام نماذج حية عالية تحفل بعناصر الخير والقوة والجمال، قويت في كل نفس، وازدهرت في كل جنس، وانتشرت في كل صقع، وكلها تعبق بأريج فضيلة الحلم والاحتمال، والعفو مع المقدرة، والصبر على المكاره..

من ذلك أن ثمانين رجلا من أهل مكة باغتوا النبي ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذوا أخذا، فأعتقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم، وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم..﴾.

ولقد قال عبد الله بن مغفّل المزَني: كنا مع النبي ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن، فبينما نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شابا، عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبي، فأخذ الله بأبصارهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو جعل لكم أحد أمانا؟ قالوا: اللهم لا.. فخلى سبيلهم...».

كما عفا ﷺ عن غورث بن الحارث لما تصدى للنبي ﷺ ليفتك به، ورسول الله منتبذ شجرة وحده يقيل، والناس قائلون في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم، والسيف صَلْتاً في يده، فقال: «من يمنعك مني؟ فقال: الله. فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ، وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، فتركه، وعفا عنه، فجاء إلى قومه، قال: «جئتكم من عند خير الناس...».

وحكى أنس بن مالك أنه كان مع النبي، وعليه برد غليظ الحاشية، فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: «يامحمد، أحمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك، ولا من مال أبيك، فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبده» ثم قال: «ويقاد منك، يا أعرابي، ما فعلت بي» قال: لا، قال: ولم؟، قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة.. فضحك النبي ﷺ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر...

ولما اشتط في أذاه المشركون في مكة، والمنافقون في المدينة، وأمكنه الله منهم، وأظفره عليهم، بسط عليهم جناح عفوه، وشملهم بحلمه، وقال لقريش يوم الفتح : يامعشر قريش، ماترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا.. أخ كريم، وابن أخ كريم، قال : اذهبوا، فأنتم الطلقاء.

أطلقهم، ومن بالأمان فالطلقاء هم على الزمان

وقال لأبي سفيان، وقد سيق إليه بعد أن جلب إليه الأحزاب، وقتل عمه وأصحابه، ومثل بهم، فعفا عنه، ولاطفه في القول : «ويحك يا أبا سفيان، ألم يان لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ فقال : بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأوصلك وأكرمك...

ولقد وُطِئَ ظهره، وأدمي وجهه، وشج جبينه، وكسرت رباعيته، وأبى أن يقول إلا خيرا، فقال ﷺ : «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لايعلمون..».

وما أعجب تحليل هذه القولة، وهي من جوامع كلمه عليه السلام من القاضي عياض الذي قال : «انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم، حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم، ودعا وشفع لهم، فقال : اغفر أو اهد، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله : «لقومي»، ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال : «فإنهم لايعلمون».

☆ □ ☆

تلك بعض نماذج الخير للخلق العالي، والمثل الكامل للدفع بالتي هي أحسن وأرفق، وأدعى إلى التأمل والاعتبار، ولقد سار الصحابة رضوان الله عليهم، الذين امتحن الله صبرهم بالألم، واختبر إيمانهم بالفتنة، على طريق الرسول، واقتبسوا هداهم من وحي الله، واستقاموا على الطريقة التي نهجها سيدنا محمد ﷺ يستعينون بصبر المجاهد على القلة، وبعزة المومن على الذلة، وبعفة الزاهد على الفاقة، ويجدعون، بثباتهم، أنف المستكبر العنيد، حتى توافوا، معها إلى الغاية، وانتهوا، جميعا، عندها إلى الوحدة والاتحاد.

☆ □ ☆

إن كل مسؤول واع برسالته يسوس أمة، ويقود دولة، ويرعى شعبا يمر من مرحلة مهمة، بل حيوية ألا وهي جمع الشمل، وتوحيد الكلمة كيفما كانت التضحيات والعقبات، وكيفما كان نبل الأهداف وشرف الانتصار، كما قال صاحب الجلالة الحسن الثاني الذي يرى حفظه الله أن الالتفاف والتصالح الوطني، والوحدة الوطنية ووحدة القلوب.. لا أقول وحدة الرأي، فلو كانت وحدة الرأي

لصار مذاق الحياة مرا، ولشعر كل شخص له تفكير، وله اجتهاد بالملل والكلل، أقول : وحدة الغريزة، ووحدة الإحساس، ووحدة المواطنة، ووحدة القلوب...

☆☆☆

لقد كان عليه السلام. وهو الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة، بالمومنين رؤوفا رحيا، يغضي إذا جهلت قومه عليه، وأخو الحلم، دأبه الإغضاء... ويعفو، ويبلغ بالجود المدى، ويفعل ما لم تفعل الأنواء

وإذا عفوت فقادراً ومقدّرا لا يستهين بعفوك الجهلاء

☆ □ ☆

في خطاب ثورة الملك والشعب، يوم 20 غشت الأخير، ذلك الخطاب الجامع المانع الذي تبلورت فيه المعاني والرموز، وتفجرت ينابيع الدروس والكنوز، توجيهات استلها جلالة الملك الحسن الثاني من أخلاق جده عليه السلام في الحلم والصبر، والتسامح والإغضاء، حيث استشهد في ذلك الخطاب بالحديث الشريف الذي يقول : «يارب، كيف أرضى، وواحد من أمتي في النار» وقد تداعى إلى ذهنه الثاقب حفظه الله ذلك الحديث الرائع الذي يعتبر مفتاح الأمل والرجاء لكل من يومن بالله... حديث الشفاعة، وتفضيل النبي ﷺ عن غيره من الأنبياء ليكون شفيعا قال جلالة الملك :

فإذا كان سيدي وجدي عليه السلام يقول : «يارب، كيف أرضى، وواحد من أمتي في النار» يمكنني، أو يمكن لكل واحد من هذه الأسرة المغربية أن يقول : يارب، كيف أرضى وواحد منا خارج المجتمع والأسرة...

☆☆☆

إن الاستفتاء هو بمثابة امتحان، فيه الناجح والراسب، وفيه الرابح والخاسر، لكني أقول : يارب، لا أرضى، وواحد من أمتي خاسر... لا أرضى وواحد من أمتي راسب...

فلا مجال لليأس والقنوط لمن أراد العودة عن الضلال، والتوبة من الزلق والزلل والانحراف.

لقد تجلى حلم جلالة الملك مع المضللين أنه وجه اليهم هذا النداء الذي اقتدى فيه بجده المصطفى عليه السلام والذي يفيض رأفة ورحمة، ويرشح إغضاء وتسامحا، فهو حفظه الله يفتح صدره وقلبه مرحبا بمن جاءه واستجار به عسى أن يثوب إلى رشده، وقد قال حفظه الله :

«ألم يان للذين ضنوا أو أضلوا أن تلين قلوبهم..».

ألم يانِ أن تتغلب الغريزة المغربية.. الغريزة القديمة.. الغريزة التي جعلت أن الدولة الثانية في المغرب في التاريخ، وهم المرابطون، أصلهم من الصحراء

المغربية، قادوا هذا البلد بكلمة الله، وبيعة الشعب، وقاموا بما قاموا به، وزادوا للإسلام وللعروبة في الأقطار الخارجة عن المغرب قرونا وقرونا.

ألم يانِ لهم أن يعتقدوا ويومنوا : أن الوطن غفور رحيم...

فأملي، في الله، أن يرجع المضللون إلى رشدهم، ويثقوا ويومنوا بأنه عندما يقول الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن عبد ربه، والله وليه، أن الوطن غفور رحيم، لايقولها عبثا... يقولها بكل ما في هذه الكلمة من مسؤولية والتزام باسمه وباسم جميع المغاربة...

☆ □ ☆

إن ما ينال هؤلاء المضللين، اليوم، من كرب وحيرة، واضطراب وتأنيب للضمير، كل ذلك يؤلم جلالة الملك الذي بين جنبيه، في أَوْفَى صرامته، فؤاد والدةٍ تَرْعَى ذراريها... ولقد عفا الله عنهم...

ولعل الصورة التي يمثل بها في هذا الصدد وَتَتَداعى في الذهن من هذا السياق، ما قاله الشاعر العظيم أبو الطيب المتنبي رحمه الله الذي خاطب ممدوحه في مثل حالتنا، فقال : لايتم فيهم بأسك وشدتك، وسطوتك وعقابك، لأنك حين تصيبهم بمكروه، ينال ذلك منك.. فإصابتك إياهم، كأنك تصيب نفسك.فإذا رَمَيْتُ أصابني سهمي..!

وأنت الذي بك بقاؤهم، فإذا غضبت عليهم، وهجرتهم، فقد هجرتهم الحياة... ولا عقاب أكثر من هجر الحياة... فارفق بهم وإن جنوا، فإن من رفق بمن جنى عليه، كان ذلك الرفق عتابا...

وكيف يتم بأسك في أناس ... تصيبهم، فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى عليهم ... فإن الرفق بالجاني عتاب
وأنت حياتهم، غضبت عليهم ... وهجر حياتهم، لهم عقاب

محمد بنعبد الله

جلالة الملك في خطاب ذكرى ثورة الملك والشعب:

أملي أن يرجع المضللون إلى رشدهم ويؤمنوا بأن الوطن غفور رحيم..

بمناسبة الذكرى السادسة والثلاثين لثورة الملك والشعب وجه جلالة الملك الحسن الثاني مساء الأحد 20 غشت خطابا ساميا إلى الأمة.

وقد كان جلالة الملك محفوفا خلال توجيهه هذا الخطاب بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وصاحب السمو الأمير مولاي هشام.

وفي ما يلي نص الخطاب الملكي :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز.

كما قرأت في الصحف أو سمعت في الإذاعة أو شاهدته في التلفزيون زارتني في هذه الأيام الأخيرة شخصيتان افريقيتان لهما من المشاكل الوطنية ما أتعب كاهلهما وأقلق راحتهما. الأول هو السيد سام نجوما رئيس منظمة (سوابو) في ناميبيا والثاني هو السيد جوناس سافيمبي رئيس منظمة (يونيتا) في أنغولا.

وحينما زاراني ولو أن المغرب بعيد كل البعد جغرافيا عن ناميبيا وأنغولا أرادا أن يبلغاني شكواهما ومشاغلهما وأن يأخذا رأيي واستشارتي.

وكان خطابهما ـ وإن لم يلتقيا من قبل ـ خطابا واحدا يمكنني أن أوجزه في كلمات... يقولان : قصدنا ملك المغرب ليعطينا النصح والنصيحة لأنه زيادة على الخبرة التي اكتسبها منذ أن ولاه الله سبحانه وتعالى أمور المغرب كان تلميذا ورفيقا لأستاذ كبير هو محمد الخامس طيب الله ثراه وأضافا كلاهما قائلين : لقد تعلمنا من محمد الخامس روح التضحية ـ وكل واحد منا

قام بالتضحية ـ ولكننا نريد أن تعطينا مفتاح السر الذي جعل أن التضحية لم تذهب سدى واتت أكلها مرتين أولا برجوع الملك إلى وطنه وثانيا بالتصالح والاتحاد والالتفاف الوطني.

شعبي العزيز... منذ سنين ونحن نحيي ذكرى ثورة الملك والشعب بتأثر ونحن في أمس الحاجة لأن نتغلب على عواطفنا ونجفف دموعنا.

وكلما حلت هذه الذكرى إلا وخضنا عدة مواضيع ـ وأنت تتذكر ذلك شعبي العزيز ـ ولكن لأول مرة وعن طريق أجانب ـ ولكنهم أشقاء من افريقيا ـ استنتجت من عشرين غشت ومن 16 نونبر 1955 أنه يجب قبل كل شيء توحيد الصف ووحدة الأمة. فكيفما كانت التضحيات والعقبات وكيفما كان نبل الأهداف وشرف الانتصار لابد أن يمر كل مسؤول من مرحلة مهمة بل حيوية ألا وهي جمع الشمل وتوحيد الكلمة.

فحينما نفي والدنا جميعا محمد الخامس طيب الله ثراه كان شعبه ملتفا حول شخصه ومستعدا لتقديم التضحية كل على قدر إمكانه. ولكن ما كان ينتظر أن الظلم والتعسف سيبلغان من المستعمر ما بلغاه.

ولما نفي والدي ووالدك شعبي العزيز زاد ذلك المس بكرامة المغرب في شعور اخواني المغاربة ومواطني المغاربة ليدركوا أن مرحلة المطالبة بالكتابة والقول والمظاهرة قد انتهت وأنه جاء وقت التضحية بالحياة والروح والحرية.

ورجع والدنا رحمة الله وبركاته عليه من المنفى فوجد شعبا ملتفا حوله ولكن شعبا أحواله متأججة وطموحاته متداخلة وتصوره للمستقبل هو تصور لتناول شؤونه وممارسة سيادته. ولكن كيف ومع من.

ولو لم يكن ذلك الرجل الصالح محمد الخامس طيب الله ثراه لتاه المغرب في متاهات في ما يتعلق باختياراته وفي ما يتعلق بالخصوص بتقييم أولوياته. وهنا نرى أن الالتفاف والتصالح الوطني والوحدة الوطنية ووحدة القلوب لا أقول وحدة الرأي فلو كانت وحدة الرأي لصار مذاق الحياة مرا ولشعر كل شخص له تفكير وله اجتهاد بالملل والكلل أقول وحدة الغريزة ووحدة الاحساس ووحدة المواطنة ووحدة القلوب.

فكان جوابي لهذين الزعيمين... حقا لقد طرقتما الباب الذي كان يجب أن تطرقاه وفي نظري كمواطن وابن فقد كان لي الشرف أن تتلمذت على يد أكبر أستاذ وأصبر أستاذ وأكثر الأساتذة إيمانا بالعدالة وتشبثا بالحق والحقيقة. ولما ذكرا لي مسألة الوحدة الوطنية والتصالح الوطني قلت لهما هنا وجدتما حجره الحكمة وهنا وجدتما المنطلق الصحيح للنجاح في ما أنتما قائمان به.

وسار بي التفكير إلى الماضي فوجدت نفسي أمام مشكل غريب وهو لماذا بعض رعايانا في الجنوب وفي الصحراء ـ أقول البعض ـ لهم ذاكرة قصيرة. والحالة هاته أنه في يوم 20 غشت انتفضوا انتفاضة نقرأها الآن ونقرأ أوصافها ونقرأ أعماقها من سيدي إيفني وطرفاية وطانطان والعيون والسمارة وبوجدور والداخلة. وقد قاموا بالمظاهرات ضد الاسبان ـ علما بأن الاسبان لم يمسوا ملك المغرب ـ بالاعلام المغربية وبالهتافات الشيء الذي كان مجهولا عندهم ونسوا أو نسي أباؤهم أن يذكروهم بأنهم ماكانوا آنذاك يوم 20 غشت أقل وطنية ولا غيرة من اخوانهم في الشمال.

بل يمكنني أن أقول أكثر من هذا... لي اليقين أن الصحراويين الذين كانوا آنذاك تحت

الاستعمار الاسباني حينما قاموا بهذا العمل الوطني وحينما اظهروا هذا الوعي الوطني نقلوه عبر الصحراء والصحراء والصحراء إلى جنوب افريقيا. لي اليقين أنهم بدون أن يشعروا وهم رحل كما تعلمون لقنوا أشقاءنا الأفارقة الذين يعيشون في ما وراء الصحراء دروسا في الوطنية بل ربما وقع لقاح عقلي وفلسفي ومذهبي بينهم وبين اخوانهم السود.

فسؤالي هو... لماذا تناسى بعضهم مافعلوه وهم شباب وما قام به آباؤهم وهم يشاهدون ما شاهدوا.

قرأت في كتب التفسير والحديث أنه حينما نزلت سورة «الضحى» على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ و﴿لسوف يعطيك ربك فترضى﴾.

قال النبي ﷺ... يا ربي كيف أرضى وواحد من أمتي في النار. ومن ثمة جاء ذلك الحديث الرائع الذي أعتبره مفتاح الأمل والرجاء لكل من يومن بالله. حديث الشفاعة وتفضيل النبي ﷺ عن غيره ليكون شفيعا. «من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه». ولكن هذا ميدان آخر يمكن أن نتطرق إليه والعلماء يتطرقون إليه أحسن مني. المهم هو أنه إذا كان سيدي وجدي ﷺ يقول... ياربي كيف أرضى وواحد من أمتي في النار يمكنني أو يمكن لكل واحد من هذه الأسرة المغربية أن يقول ياربي كيف أرضى وواحد منا خارج المجتمع والأسرة.

علينا أن نعلم شعبي العزيز أن الاستفتاء هو بمثابة امتحان. فيه الناجح والراسب وفيه الرابح والخاسر. لكنني أقول... ياربي لا أرضى وواحد من أمتي خاسر. لا أرضى وواحد من أمتي راسب.

ألم يأن للذين ضلوا أو أضلوا أن تلين قلوبهم. ألم يأن أن تتغلب الغريزة المغربية الغريزة القديمة الغريزة التي جعلت أن الدولة الثانية في المغرب في التاريخ وهم المرابطون أصلهم من الصحراء المغربية قادوا هذا البلاد بكلمة الله وبيعة الشعب وقاموا بما قاموا به وزادوا للإسلام وللعروبة في الأقطار الخارجة عن المغرب قرونا وقرونا ألم يأن لهم أن يراجعوا مفاهيمهم ألم يأن لهم أن يعتقدوا ويؤمنوا أن الوطن غفور رحيم.

شعبي العزيز :

هنا سأقف : لأن الكلمات التي قلتها الآن كافية عن كل خطاب. كافية لأن تجلب القلوب وكافية للذين استكبروا والذين استضعفوا أن لا يبقوا مهمشين خارجين.

أن 20 غشت فيه التضحية. فها هو ملك المغرب ضحى بعرشه وبفلذات كبده وبمستقبل فلذات كبده وها هو الشعب المغربي ضحى بأبنائه وبناته وها هو المغرب استرجع سيادته واستقلاله وها هو محمد الخامس راجع إلى عرشه رمز الوحدة الوطنية وقائد المدرسة الوطنية. فلا يمكنني أن أعتقد ولو لحظة عين أن مغاربة اليوم ليسوا مغاربة البارحة. كنت دائما وأنا أفكر في المسيرة أطرح سؤالا لمدة شهرين لجلسائي وأصدقائي ووزرائي كانوا يستغربون منه. كنت أقول لهم... هل مغاربة سنة 1975 هم نفس مغاربة سنة 1944 الذين رأيتهم أمامي يسقطون أمام الرصاص والدبابات. وكانوا يجيبونني نعم ولكن ولماذا هذا السؤال.

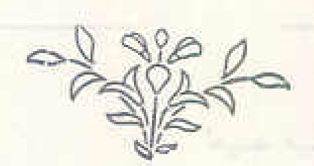
لقد لمسنا هذا ولله الحمد. فجيل اليوم هو كجيل الأمس وهو كجيل المولى ادريس الأول منذ أن أراد الله لذلك الرجل الصالح أن يضع أسس هذه الدولة.

فأملي في الله أن يرجع المضللون إلى رشدهم ويثقوا ويؤمنوا بأنه عندما يقول الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن عبدربه والله وليه «ان الوطن غفور رحيم» لا يقولها عبثا بل يقولها بكل ما في هذه الكلمة من مسؤولية والتزام باسمه وباسم جميع المغاربة.

وختاما شعبي العزيز فلنترحم على روح والدي ووالدنا جميعا محمد الخامس طيب الله ثراه ولنترحم على شهدائنا من مقاومين وأفراد جيش التحرير ولنترحم كذلك ـ وهذا ننساه ـ على أرواح جميع المواطنين الذين ليست لهم لا بطاقة العضوية في جيش التحرير ولا بطاقة العضوية في المقاومة ولكنهم ضحوا بما استطاعوا. فطيلة سنتين ونصف لم يدخنوا ولم يستهلكوا السكر ولم يجتمعوا بزوجاتهم. فطيلة سنتين ونصف نسوا حفلات العقيقة والاعذار والزواج حتى هؤلاء الذين ماتوا وقاموا بتلك التضحيات علينا أن نذكر أرواحهم.

وأريد أن أختم هذا الخطاب الوجيز ولكن الذي حاولت أن يكون خطابا يهدي إلى التفكير وأن يكون ذلك التفكير يهدي إلى الحكمة وأن تكون تلك الحكمة تهدي إلى صحيح الاختيار أردت أن أختمه بآية من القرآن. يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله أن الله يغفر الذنوب جميعا﴾.

صدق الله العظيم ـ والسلام عليكم ورحمة الله.



خطاب عيد الشّباب

وجه جلالة الملك الحسن الثاني مساء يوم الأحد 9 يوليوز خطابا إلى الأمة بمناسبة عيد الشباب.
وكان صاحب الجلالة محفوفا خلال إلقاء هذا الخطاب بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد.
وفي ما يلي نص خطاب جلالة الملك الذي نقل مباشرة على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة.

نص الخطاب السامي :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز.

قبل الشروع في خطابي هذا - وقد قررت أن يكون قصيرا - أريد شعبي العزيز، أن أضع سؤالا هو : لماذا هذا الاحتفال الخاص بالذكرى الستينية لعيد ميلادي ؟ والحالة هذه أن تطلعاتي في الثلاثينات من عمري لا تقل عن اهتمامي بك في الستينات، فلهذا أعتبر شعبي العزيز، أنك لم تقصد ستين سنة، ولكن جعلتها سببا ومدعاة لتظهر ولتعرب بكيفية استثنائية عن محبتك لي واحتضانك لشخصي الضعيف القوي بالله وبوطنيته.

وقد بحثت في أعماق نفسي منذ أسبوع ما عن الدوافع التي تجعل عبد ربه وخديمكم هذا رغم العياء والإنهاك وتكاثر الأشغال وتنوع الهموم، يجد كل صباح وكل يوم في نفسه قوة متزايدة وإيمانا لا يعرف الجمود، بل إيمانا يريد الارتقاء يوما بعد يوم.

فلعلي وجدت الجواب، وهو أنه كل يوم من الأيام ينعم الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بمواليد جدد ذكورا وإناثا، ورغم أن هؤلاء المواليد المغاربة لم تكن بيعتي في عنقهم، فأنا أشعر أن على كتفي مسؤوليتهم، فهذا الالتزام المتبادل والغير المعبر عنه من أي طرف وهذا التجنيد اليومي الذي يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ويحتضن ويرعى كل مغربي أراد الله له سبحانه وتعالى أن يرى النور في هذا البلد الطيب كل هذا يخلق دوامة لا يعرف فيها الإنسان لا مساء ولا صباحا ولا سنة ولا أعواما، ويجعله كلما تطرق إلى دراسة مشكل أو إلى مواجهة ملف، أقول المواجهة لأنه في أيامنا هذه الملفات أصبحت كلها مواجهات. لا يعير للزمان اهتماماً، وساعته ليست كالساعات الأخرى، لا تعرف الثواني ولا الدقائق ولا الساعات ولكن ربما لا تحسب إلا فيما فوق الأسابيع.

شعبي العزيز.

طوينا من المسافات، وقطعنا من السنين، والعشرات من السنين أشواطا منها ما يذكر بأمجادنا ومنها ما يذكر بمحننا في الماضي، فدائما كلما مررنا بامتحان أنت وأنا كنت أشعر أنني من جهتي أقول : اللهم ألهم شعبي الصبر والثبات. وأنت من جهتك تقول : اللهم ألهم الحسن الثاني الصبر والإبداع.

فهذه الصورة صورة التكامل والتعامل والتعانق جعلتني أتذكر بيتا للشاعر لا أعرف اسمه وربما لا يعرف اسمه أحد، وقد حورته وهو يقول :

وما خلق الرحمان أحسن منظرا
من عاشقين على وفاء دائم

فأملي شعبي العزيز، وأقوله لك من صميم قلبي هو أنني سأبقى كما تعلم مجندا في خدمتك، مطيعا لاختياراتك، سائرا معك وأمامك ووراءك باطمئنان لأن القائد إذا أراد أن يخوض معركة حاسمة مظفرة عليه قبل كل شيء حينما يتقدم جيشه أن يكون على يقين من وفاء مؤخرته وميمنته وميسرته.

ولله الحمد ما خضنا معركة ولا قمنا بجهاد إلا وأنت مطمئن للمقدمة التي فيها قائدك وخادمك وأنا مطمئن لميمنتي وميسرتي ومؤخرتي.

فأملي العزيز، الذي أرجو الله أن يتحقق لي هو أنه حينما التمس منك حق التمتع بالتقاعد أكون مستحقا لأن توشح صدري بوسام الشغل.

أقبلك شعبي العزيز، وأرجو لك دوام الهناء والاطمئنان.

والسلام عليكم ورحمة الله.

الإسلام دين عامٌ شاملٌ كاملٌ

للدكتور توفيق محمد شاهين

الإسلام خاتمة الأديان، وهو دين عام للناس جميعا، منذ جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله، ﷺ إلى يوم الدين...

ولا نبي ولا رسول بعد محمد، ولا دين ولا رسالة بعد الإسلام...

فليس الإسلام دينا لقوم، ولا لقبيلة، ولا لمكان دون آخر، وليس محدودا بزمن، لأن البشرية شبت به عن الطوق، وهو دين يخاطب العقل في كل زمان ومكان...

ونصوص القرآن واضحة في أن رسول الله محمد هو النبي الخاتم، يقول سبحانه : ـ **﴿ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾** ـ «الأحزاب. 40».

والنصوص القرآنية صريحة بعموم رسالة الإسلام، يقول الله تعالى : ـ **﴿قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا، الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته.. واتبعوه لعلكم تهتدون﴾** ـ الأعراف 158.

ويقول عز من قائل : **﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيرا﴾** ـ الفرقان 1.

ويقول النبي ـ ﷺ : «كان كل نبي يبعث في قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

ويؤكد عموم رسالة الإسلام : أنه دين اعتنى بمطالب الجسد والحياة والأحياء، كما اعتنى بأشواق الروح.. كما طالب الإنسان بأن يرتقي بنفسه لكن في دائرة الإنسانية، وليس في طبيعة أخرى خارجة عن طبيعته، فهو إنسان ورقيه يكون بالمثل الإنسانية العليا التي تتمثل فيه ويتمثلها هو.. ولا يريد له الإسلام أن يكون ملاكا، كما أنه لا يريد له أن ينحط عن بشرية إلى الحيوانية، يقول الله تعالى : **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين﴾** ـ القصص 77. فالآية الكريمة واضحة في مراعاة الطبيعة الإنسانية :

فالإسلام ـ كما نرى ـ عنى تماما بحاجتين : إيمان الإنسان، وإشباع حاجاته وغرائزه في طريق سوي : فقد

نظر الإسلام إلى واقع الإنسان باعتبار التدين غريزة ثابتة فيه، ونظم بالتالي

* ومن أدلة عموم الإسلام : أنه دين العلم والعقل، فقد دعا إلى النظر والتفكير، وجعل التفكير عبادة وفريضة، يقول سبحانه : ﴿**قل انظروا ماذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ ـ يونس 101. بل يلوم القرآن الذين لا يلتفتون في آيات السموات والأرض، ولا يتدبرونها، ويستفيدون منها بما يعود بالخير والرفاهية على الحياة والأحياء يقول تعالى : ﴿**وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**﴾ ـ يوسف 105. وبذلك حافظ على كرامة الإنسلان ورقيه.

* وأباح الإسلام كل ما كان طيبا وملائما للفطرة، وحرم ما هو ضار بها ولا يلائمها، قال تعالى : ﴿**فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون. إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به**﴾ ـ النحل 115. وبذلك واءم بين الفطرة الصحيحة والسليمة.

* ودعا إلى احترام الأديان السماوية كلها، وترك أهلها، وما يدينون به، بل لا يكمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بالأديان السماوية السابقة، واحترم كتبها ورسلها، يقول سبحانه : ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله**﴾ ـ البقرة 285.

ويقول تعالى : ﴿**قولو : آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**﴾ ـ البقرة 136.

* كما منع الإسلام إيذاء أهل الكتاب والاعتداء عليهم، بل إن دعوتهم إنما تكون بالحسنى يقول تعالى :» ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون**﴾ ـ العنكبوت 46.

وزيادة في الإنسانية دعا إلى أكل طعامهم حلالا لنا، وطعامنا حلال لهم، وأباح للمسلمين التزوج بيناتهم ما دمنا نؤمن بدينهم وأنبيائهم وكتبهم، قال تعالى : ﴿**اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم. والمحصنات من المؤمنات، والمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم، إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان، ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ ـ المائدة 5.

ويقول الرسول ـ ﷺ : «من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمتُه يوم القيامة». ومن قواعد الإسلام في شأن أهل الكتاب : أن لهم مالنا، وعليهم ما علينا».

* والإسلام يرسي قواعد التعايش السلمي لتطيب الحياة، ويسعد المواطنون والأحياء ويعيش العالم كله في سلام : فأمر بالعدل، والوفاء، وإعطاء كل ذي حق حقه، فيقول سبحانه في حق المسلم للموالاة والمؤاخاة والمناصرة : ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض : يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله.. أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم**﴾ ـ التوبة 71.

ولغير المسلم حق البر والعدل والمودة بالحق، يقول تعالى : ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم.. أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين**﴾ ـ الممتحنة 8.

* والحرب في الإسلام مشروعة لإحقاق الحق، واستتباب الأمن، ورد العدوان يقول سبحانه : ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير.**

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز﴾ ـ الحج 39 ـ 40.

ويجنح الإسلام إلى السلام حقنا للدماء، وإرساء لقواعد الأمن، يقول تعالى : **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو السميع العليم﴾** ـ الأنفال 61.

*كما يأمر الإسلام بالمحافظة على النفس والعرض والمال وحفظ الدين والعقل بالنسبة لكل فرد.

*وفي الإسلام من ا لمبادئ الإنسانية الشيء الكثير ـ وصدق الله العظيم، إذ يقول : **﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾** ـ المائدة 3.

* وفيه الشفاء والرحمة والخير للمؤمنين، وفيه الخسار لمن كفر به... ولا يرفض الشفاء إلا مجنون، ولا يرد الرحمة إلا شقي، ولا يريد الخسران إلا الشيطان، يقول تعالى : **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾** ـ الشورى 52 ـ 53. ويقول سبحانه : **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾** ـ الإسراء 82.

وصدق الله القائل : **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون﴾** ـ الأنعام 153.

وحق للمسلم أن يدعو ربه في إنابة وفخر : «فاطر السموات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما، وألحقني بالصالحين».

* وطبيعة الإسلام مرنة، لأنه يحمل في طياته عوامل مرونته وصلاحيته لكل زمان ومكان :

فباب الاجتهاد فيه مفتوح ـ لكل قادر عليه ـ لمواكبة الجديد، وديناميكية الحركة وملاءمة طبيعة الإنسان السوية، على أساس كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، والإجماع من أهله....

ـ وراعى العوائد والأعراف الصالحة والسائدة في الأحكام الجزئية الشرعية، ورفعا للحرج والمشقة، **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** ـ البقرة 185. **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** ـ الحج 78.

ـ وسن القواعد الكلية لحفظ المقاصد العامة : «لا ضرر ولا ضرار».

ـ فضلا عن الاستحسان، والقياس، وسد الذرائع، والمصالح المرسلة، واعتماد قول الصحابي والأخذ بفتواه، والأخذ بالعرف... الخ.

مما يؤكد صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، في كل أمور الدنيا والدين، كدين شامل ومنهج متكامل، ينظم علاقة الإنسان بخالقه، ويكون الخالق، والأناسي التي تعايشه، وقبل كل ذلك علاقته بنفسه : يقول الرسول الكريم ﷺ ـ : «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة ـ الحسنة ـ تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». صدق رسول الله، فقد تضمن الحديث جوانب الدنيا والدين، والعلائق المختلفة للرقي بالإنسان والحياة.

*وهناك تحديات تتحدى الإنسان المعاصر المسلم بشدة، حتى زعزعت القيم الأخلاقية والفكرية عند كثير من المسلمين، ومن هذه التحديات :

المشاكل الاقتصادية ـ ومشاكل الأسرة ومشكلة الديمقراطية ـ ومشكلة العمل والعمال...

وقد طال الجدل والخلاف والمناقشات، وكثرت الآراء والاتجاهات في هذه المسائل.. وبرز سؤال خطير وهام، هو هل الإسلام قادر على حل هذه المشاكل المعاصرة ؟ أم أنه بمعزل عنها، وهي بعيدة عن متناوله ؟ حتى يعرف

المسلمون رأي غيره فيها، ويتبنوا ـ ولو على سبل التجربة ـ بعض الحلول لما يعترض الدنيا من صعاب...

والواقع أن الإسلام قادر على حل هذه المشاكل، بما فيه من قوة ذاتية ومرونة.. والحل المنشود يحتاج إلى تضافر جهود العلماء كل في ميدانه، لإنارة جوانب الموضوع، ووضع أنسب الحلول...

وقد ظهرت كتابات وبحوث حول هذه المشاكل ووضع حلول لها، ولو في خطوط عريضة، من علماء نابهين، ومفكرين بارزين، لهم همة في البحث، وبصر بصير بما يكتبون، مثل الأستاذ الدكتور محمد البهي، رحمه الله تعالى في كتابه : «الإسلام في حل مشاكل المجتمع الإسلامي المعاصر»... وهذه محاولة مستنيرة ورائدة.. نرجو أن تتلوها محاولات من أفراد لهم قدرة وموثوق بهم.

أوتاوا ـ كندا ـ توفيق محمد شاهين

الكفاف... وصحة الأبدان

أقسمت بالبيت العتيق وركنه
والطائفين، ومنزل القرآن
ما العيش في المال الكثير وجمعه
بل في الكفاف وصحة الأبدان

أبو الفتح الباقرجي
طبقات الشافعية
268/4

البعد التربوي الاجتماعي

في العبادات الإسلامية

للأستاذ: محمد الأكحل شرفاء

والعقيدة الإسلامية إيجابية فاعلة لا تكتفي بالإعلان المجرد عن التطبيق فآيات الكتاب وأحاديث النبوة كلها شاهدة على ذلك أن الصيغة القرآنية المكررة في العديد من آيات الله البينة تأتي هكذا «**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**» وما الإيمان إلا العقيدة الراسخة الثابتة التي اطمأن بها القلب واقتنع العقل، وما العمل الصالح إلا تطبيق الشريعة المنبثقة عن تلك العقيدة في كل مجالاتها.

ومن هنا فلا يعقل أو يقبل أن يكون من الإسلام ذلك الانفصام النكد بين الإيمان والعمل أو بين العقيدة وحياة الناس الذين آمنوا بها، وعندما يعلن الإنسان عن إقراره بالشهادة وإيمانه بما تقوم عليه من مرتكزات إيمانية، ثم يتجاهل مقتضيات الالتزام المرتبط بها فإنه يعرض نفسه قطعيا لهذا الإنذار الرعيب الذي حملته الآية الكريمة : **﴿ومن أعرض عن ذكري فإنه له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا، قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾** (طه 124).

علاقة الشعيرة بالشريعة :

يعرف علماء الفقه الإسلامي في مجال الدراسات الفقهية الإسلام بأنه يشتمل على العقائد والعبادات والشرائع والآداب السلوكية وهم يعنون بالعقائد والمبادئ الاعتقادية التي يصح إيمان المؤمن إذا رفض أيا منها وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ويعنون بالعبادات ما شرع الله من أفعال يومية كالصلاة وموسمية كالزكاة والصوم والحج.

ويعنون بالشرائع ما جاء في الإسلام من نظم حياتية تغطي الحياة كلها وهي تعني العلاقات جيمعها ما كان منها بين الإنسان وربه وما كان بين الإنسان ونفسه وما كان بين الإنسان والإنسان، أو بينه وبين من يعايش من حيوان واكوان. وهي بالتالي نظام للحياة يضع المبادئ الأساسية لقيام المجتمع الأمثل الذي تجد فيه البشرية كلها داخل إطاره ما يحقق الكرامة، ويثبت العزة ويقيم العدل، ويمنع الظلم، ويربط الإنسان بربه، ولذلك نجد التنصيص في الشرع الإسلامي على قواعد في المعاملات بين الفرد

والمجتمع، وبين المجتمع المسلم وغيره، في حالتي السلم والحرب معا مما يذهل العقل، وما يجعله يسجد لله منزل هذا التشريع.

أما الآداب السلوكية فتعني الأخلاق التي على المسلم أن يتحلى بها في نفسه، وأن يتعامل وفقا مع غيره ثم عليه ألا يكتفي بهذا التحلي لشخصه بل أن يبثها في الناس، أينما وحيثما وجد، وذلك داخل في صميم رسالته كعضو في مجتمع مسلم، أمر الله أن لا يعيش متقوقعا انعزاليا، ولكنه يعيش للناس، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، وذلك كله ناتج عن عقيدة الإسلام الإيجابية الفاعلة :

﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ (آل عمران : 110).

غير أن هذه الشعائر المذكورة كلها عند تمعنها لا لا تجدها قابلة للانفصال والتجزئة بل إننا نراها نسيجا متلاحما إلى حد أن لو حاولنا أن نفصل جانبا منها عن البقية لفقد حيويته، وصار عضوا مبتورا من جسده، لا يغني عنا شيئا... وكذلك في الوقت الذي يترك الجسم عاطلا عن أداء وظيفته وللتدليل على صحة ما ذهبت إليه من كون الإسلام عقيدة ونظاما كل متلاحم، فإن علينا أن ننظر في الشعائر ثم في بعض مبادئ البناء الاجتماعي في ضوء الكتاب والسنة.

الأثر التربوي لأكبر العبادات

أولى شعائر الإسلام التي تبدو عند الرؤية السطحية علاقة فردية بين الإنسان وخالقه : لا علاقة لها بما دون ذلك من شؤون الدنيا ومعايش الناس، هي فريضة الصلاة.

غير أن التعريف الذي جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف لهذه الشعيرة الإسلامية الكبرى يجعلها تربية فردية اجتماعية حيوية شاملة لكل مقومات البناء الإسلامي للشخصية الإسلامية المتميزة، بما فيها المجال السياسي، ولو حاولنا تلمس الجوانب الحيوية العديدة للتربية في الصلاة، لأدركنا ذلك من خلال النصوص الصريحة التي لا تدحض.

إنها أولا تعود الإنسان على احترام الوقت وتقدير عامل الزمن في إنجاز الأعمال والقيام بالمهام : ﴿**إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا**﴾ (النساء 103)، ثم إنها تربية تطهيرية لخلق المسلم سلوكه حين يقف ليؤدي حساب أعماله أمام ربه ويجدد العهد على التزام الخط المستقيم في حياته :

﴿**وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون**﴾ (العنكبوت 45).

ثم إن العيش في حياة جماعية تضامنية مسؤولة في ظل قيادة رشيدة مأمونة، وموثوق بها من الجميع كل ذلك خدمة اجتماعية فريدة... هذه القيادة يمثلها الإمام الذي تتحرك الصفوف بحركته وتستمع إليه حين ينطق.. ولكنها في الوقت ذاته إذا رأت خللا يهدد النظام العام، نبهت الإمام، وهذه اليقظة واجب الجميع، فإن أي واحد منهم لاحظ خللها عليه أن يعلن الإمام قائلا : سبحان الله.

عندئذ على الإمام أن يصلح المسار ويعالج الخطأ.

وفي هذا بناء لمجتمع يقوم على الشورى والمراقبة لكل ما يجرى في المجال الاجتماعي.

حرصا على رعاية الحياة الجماعية ورفض الانفرادية التقوقعية، حث رسول الله ﷺ على صلاة الجماعة حين قال «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة».

وبالإضافة إلى صلاة الجماعة يوميا هناك صلاة الجمعة التي تعرض فيها الحياة الاجتماعية في مدى أسبوع لتعالج إسلاميا من طرف الإمام حين يخطب، حتى يكون المسلم على علم بكل المستجدات في حياة مجتمعه، وعلى استعداد مستمر لعلاج الأدواء. وإصلاح الأخطاء وفق ما شرعه الله في وحيه المنزل، على نبيه المرسل : ﴿**وننزل**

من القرآن. **ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾** (الإسراء 83).

هكذا وفي الأزمات والأحداث كانت الصلاة علاجا منهاجا وبالجملة فإن المصلي يستمد من الله في صلاته الطاقة التي تمده بالقوة المعنوية التي يواجه بها أحداث الحياة وهي موزعة على أجزاء النهار في أوقات حساسة يتوقف المسلم في محطاتها ليستريح من وعثاء السفر وليتزود بما يجب للمراحل القادمة، هذا المعنى ذاته يحمله إلينا حديث رسول الله ﷺ ـ الذي كان ينتظر الصلاة بعد الصلاة، وكان إذا حضر وقتها نادى بلالا قائلا : «أرحنابها يا بلال» كما كان المسلمون في أيام عزهم إذا حز بهم أمر، بعثوا من ينادي في الناس : «الصلاة جامعة»، فيهب الجميع إلى المسجد ليلقي إليهم الخبر... وتلك هي رسالة الصلاة في أمة الصلاة...

الجزائر : محمد الأكحل شرفاء

ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم...

فلما تبدى للقوابل وجهه
نَكَصْنَ على أعقابهن من النَّدَم

وَقُلْنَ وأَخْفَيْنَ الكلام تستراً
ألا ليتنا كنا تركناه في الرَّحِمِ

قبس من الهدي النبوي الشريف

الشجاعة في الحق وتحقيق مجتمع الطهارة

للأستاذ يسري عبد الغني

عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، قال : قال رسول الله ﷺ : **لا يحقرون أحدكم أن يرى أمراً لله فيه مقال، فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة : ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا ؟ فيقول : مخافة الناس : فيقول الله : ﴿إياك أحق أن تخاف﴾.**(١)

(رواه ابن ماجة وأحمد وابن حبان)

يحرص الدين الإسلامي على الاتشيع في المجتمع روح الاستخفاف بأوامر الله ونواهيه، والاستهانة بآدابه، وعدم المبالاة بحدوده وشريعته، ولهذا بين الإسلام قرآنا وسنة الحلال والحرام، فالحلال بين والحرام بين، ولم يدخر جهدا في المطالبة بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وفي الحث على التخلق بالصفات الفاضلة، والترفع عن الدنايا. بل نحن نرى النبي ﷺ يطالبنا باتقاء الشبهات التي لا يعلم حكمها إلا المولى سبحانه وتعالى.

﴿فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه﴾.

١) من مفردات هذا الحديث : لا يحقرن : لا يستصغرن، لا يستهينن، لله فيه مقال : لله فيه حكم (أمر أو نهي)، إياي أحق أن تخاف : أنا وحدي المستحق لخوفك.

وحرصا منه على الا يقترب المسلمون من منطقة الحرام، وألا يحاولوا ارتكاب معصية. وفي هذا الحديث قيمة حضارية وأخلاقية ألا وهي مطالبة الرسول ﷺ للمسلمين كافة بأن يكونوا شجعانا في الحق، تقول الحق في كل شيء، ولا نخشى في الله لومة لائم، ولا يمنعنا من قوله استصغارنا لشأنه في أمر من الأمور. ونقوله لكل إنسان، فلا يمنعنا من المجاهرة به خوف من الناس مهما يكن سلطانهم. يقول أبو بكر حين ولى الخلافة : «أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فردوني» ويقول عمر بن الخطاب في إحدى خطبه : «أيها الناس، من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه». فقام أحد الحاضرين وقال : «والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا». قال عمر : الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوم عمرا بسيفه».

والإمام مالك اضطهد في زمن المنصور العباسي عندما أفتى بعدم لزوم بيعة المكره، وقد رأى فيها المنصور دعوة إلى التمرد عليه.

والإمام أبو حنيفة النعمان اضطهد في عهد الرشيد حينما رفض منصب القضاء ويقول بعض الباحثين أن مبعث اضطهاده هوة الاعتقاد بأن امتناعه عن قبول المنصب ينبئ عن عدم ولائه للدولة.

والإمام أحمد بن حنبل اضطهد في عصر المأمون والمتوكل لأنه امتنع عن الخوض في مشكلة خلق القرآن وإبداء تأييده لما رآه الخليفتان المذكوران من رأى في هذه المشكلة.

لقد مارس المجتمع الإسلامي في عهد الرسول ﷺ وفي عهد الصحابة حرية النقد للحكام وللولاة، فكان الناس يبدون الرأي والحكام يتقبلون النقد، ويرجعون إلى الحق.

كذلك فعل العلماء الذين كتبوا الرسائل للحكام يبصرونهم ويحذرونهم وينصحونهم بما ينبغي أن يتوفر في الإمام العادل من خصال، بأسلوب رائع، وعبارات قوية، لا خوف فيها ولا وجل مثلما فعل الحسن البصري بكتابته إلى عمر بن عبد العزيز، وكذلك الرسالة التي كتبها القاضي أبو يوسف (صاحب أبي حنيفة) إلى هارون الرشيد، حين كلفه بوضع أحكام الخراج.

والذي لا شك فيه أن الجريمة لا يمكن أن تشيع في مجتمع يتيقظ أفراده لكل ما يدور فيه، فلا يغمضون أعينهم حتى لا يروا الحقيقة، ولا يرون الحقيقة فيسكتون عن المجاهرة بمقال الله فيها، يرون المعاصي ترتكب، يرون الفوضى، والغش والمحسوبية، والتسيب، والرشوة، يرون السرقات والتدليس والتزوير والفساد وهم في صمت رهيب، يستغضبون فلا يبدو لهم غضب، ونسوا أن الساكت عن الحق شيطان أخرس، نسوا ما قاله نبي الإسلام ﷺ «كل أمتي معا فى إلا المجاهرين» (أي بالمعصية)، يسرقون أموال الناس غصبا وسلبا ويفرون في وضح النهار والمسئول مجهول !! يرتكبون المعاصي ليلا فيسترهم الله، ثم يصبحون ويقولون فعلنا كذا وكذا، فيكشف ستر الله عنهم، وقد بات يسترهم ربهم، إنهم لا يعرفون الله فكيف يسترهم ربهم وكان المولى عادلا في كشفهم وإظهار موبقاتهم ورجسهم.

إن ارتكاب المعصية بجميع أنواعها جريمة ينهى الإسلام عنها، ولكن المجاهرة بالمعصية جريمة أخرى أشد خطرا على المجتمع من ارتكابها، لأنها دعوة صريحة إلى الإجرام، وتشجيع على الانغماس في حمأة الرذيلة، وتزيين لما في المخالفة والعصيان من استهانة بالأوضاع السليمة والآداب العامة.

ولما كانت المخالفات والجرائم لا تشيع في المجتمع لأمرين هما :

الأول : أن يستهين المسلم بالمخالفة، ويستصغر شأنها.

الثاني : أن يخاف المسلم على نفسه من مرتكبي المخالفات والجرائم إن هو نصحهم وأرشدهم للطريق الصحيح.

وقد عالج النبي ﷺ المشكلة من الناحيتين، فنهى بقوة عن الاستهانة بالمخالفة مهما تكن صغيرة، وحذر من مخافة الناس مبينا أن الله وحده هو الجدير بأن يخاف فبيده الأمر من قبل ومن بعد.

وبعد، ففي المجتمع الإسلامي عيوب كثيرة لم تكن لتشيع فيه لو أن المسلمين حرصوا على سلامة هذا المجتمع، فلم يستصغروا شأن عيوبهم، ولم يخافوا من مرتكبيها... مثال ذلك : هل كان ممكنا أن تشيع الغيبة والنميمة بيننا لو انصرف الناس عن المغتاب فلم يسمعوا له، وكذبوا النمام فلم يصدقوه، وذكروه بقوله الله تعالى : ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ! واتقوا الله إن الله تواب رحيم**﴾ (الحجرات/12).

وقوله تعالى : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع، والبصر، والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسئولا**﴾ (الاسراء/62).

وقوله تعالى : ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ (الاسرار/18).

وقول الهادي البشير ﷺ : «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر، فليقل خيرا أو يصمت».

وقوله ﷺ : عندما سأله أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : أي المسلمين أفضل ؟ قال : «من سلم المسلمون من لسانه ويده».

وقوله أيضا : «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب ! وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي».

وقوله : «إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول : اتق الله فينا. فإنما نحن بك : فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا».

وقوله : «كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله».

وقوله : «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم !».

لو انصرفنا عن كل نمام لئيم، وردعناه بالبعد عنه وإسكاته وقلنا له : إن جريمتك شنعاء، وهي معول هدم في مجتمع الناس والمسلمين فلا ترتكبها لما كان النم والاغتياب.

☆ ☆ ☆

وهل كان ممكنا أن ينتشر التعامل بالربا بصوره الخفية والمعلنة لو وجد المتعاملون به من يقول لهم : إن الربا بجميع أنواعه حرام، وإنه سر تباغض الناس وتنافرهم، ومعول هدم لمجتمعهم ؟

الربا الذي يغلظ المولى تعالى تحريمه بقوله : ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، يمحق الله الربا ويربي الصدقات**﴾ إلى قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا**﴾ (البقرة/275).

ولعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه، وكاتبه.

إن الربا وغيره من الموبقات اللا أخلاقية هو سر تباغض الناس وتنافرهم، ومعول هدم لدعائم مجتمعهم. وهل كان ممكنا أن تشيع في المجتمع جرائم القتل والسرقة وشرب الخمر وتعاطى المخدرات لو أن أفراده كانوا شجعانا أقوياء في الحق، فلم يرهبوا قاتلا ولم يخافوا مرتشيا أو مختلسا أو متسيبا أو سارقا، ولم يجاملوا المدمن أو شارب الخمر بالسكوت عن منكره ؟ لقد صدق سيد البشر (عليه الصلاة والسلام) حين قال : «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد». وحين قال : «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

وهكذا نرى هذا الحديث الشريف يضئ لنا مجموعة من القيم الحضارية والأخلاقية : فعلى المؤمنين أن يكونوا شجعانا في الحق، فلا يرهبوا عاصيا، ولا يخشوا أحدا إلا الله الذي بيده كل شيء، والمسلمون أسرة واحدة، فيجب أن يحرص كل عضو من أعضائها على ضرورة سلامتها من كل ما يضربها، وكل ما يعمل على تقويض بنيانها، ويجب الا يستهين المسلمون بالجرائم والمخالفات التي تشيع في مجتمعهم، فإن المخالفة الصغيرة تجر إلى الجناية الآثمة، ومعظم النار من مستصغر الشرر. كما يدعونا الحديث إلى مراقبة الله في كل عمل نقوم به، وفي كل مكان، وفي كل زمان، فالله يرانا إذا كنا نحن لا نراه فمراعاة وتقوى الله واجبة على المؤمن، وذلك لا يتم إلا بالإيمان. والمؤمن لا يخاف مخلوقا مثله، وإنما يخاف خالقه وحده. فعلينا أن نوثق صلتنا بالخالق عز وجل، وأن نتذكر جيدا أنه مطلع علينا، مراقب كل أعمالنا.

وعلى المؤمن الحقيقي أن يبين حكم الله في كل أمر إذا هو صادف من الناس جهلا لهذا الحكم، أو تجاهلا، فشرع الله يجب أن يعلم وأن ينفذ - والذي يقوم على

تعليمـه للنـاس، ويشرف على تنفيـذه في مجتمعهم ـ هم المؤمنون لا غيرهم.

والمؤمنون محاسبـون على سكـوتهم عن المنكر، لأن السكوت نفسـه منكر، ولـذلـك قـال النبي ﷺ «الـدين النصيحة، قلنا : لمن يـا رسول اللـه ؟، قـال : للـه ولرسوله ولأئمـة المسلمين وعـامتهم» ومن يرى فينـا منكرا فليصلحه بيده، أو بلسانه أو بقلبه وذلـك أضعف الإيمـان كمـا علمنـا الهدى النبوي الشريف.

وأخيرا يقرر النبي (عليــه الصـلاة والسـلام) مبـدأ اجتماعيا ساميا نحن في أمس الحاجة إليه هـذه الأيام، في وقت فقدت فيه وأعني بها القدوة الحسنـة أو المثل الأعلى، كنا ونحن في مقتبل الشباب نجعل من الصحابة رضوان الله عليهم ومعلمهم الأول نبي الحـق والطهـارة (عليـه الصـلاة والسـلام) مثلنـا الأعلى وكـان من يشرف على تعليمنـا يغرسـون ذلـك في نفوسنـا فيعرفون بـالصحابـة وحيـاتهم وسلوكهم أمـا الآن فجـاء زمن عجيب يجعـل الشبـاب مثلهم الأعلى نجوم الفن وكرة القدم. إن القدوة الحسنة خير دعوة، فلو أن كل مسلم تورع عن ولـوج المعصيـة مـا كـان هنـاك معصيـة قط. ولو أن كل مسلم أخذ نفسـه بأن يقول كلمة الله الحق فيما يراه مـا جرؤ المخـالفون على المخـالفة، وبهـذا يسلم المجتمع من آفـاته وعيوبه ـ ولو جعـل كـل راع في موقعه من نفسـه مرآة لمن يرعاهم، واتقى اللـه في سلوكـه وتصرفاته وأخلاقه لكان المثل الأعلى لمن يقود توجيههم.

والله ولي التوفيق.

أنكد الناس عيشا...

وأنكد النـاس عيشـا من تكـون لـه
نفس الملـوك، وحـالات المســاكين

كتاب الأغذية لأبي مروان عبد الملك ابن زهر

للأستاذ محمد العربي الخطابي

اهتم أطباء الأندلس ونباتيوها بالأغذية والأشربة اهتمامهم بالأدوية النباتية، المفردة منها والمركبة، فأفسحوا لذلك مكانا رحيبا في كتبهم ومقالاتهم. فهذا أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، الجراح (توفي بعد 400 هـ / 1009 م) يفرد في موسوعته الطبية المسماة «بالتصريف لمن عجز عن التأليف» مقالة كاملة تبحث في أطعمة المرضى والأصحاء، ومقالة أخرى تبحث في الأشربة والربوب وما إليها، ويأتي بعده ابن عبدون الاشبيلي الذي عاش في أواخر القرن الخامس وأوال القرن السادس الهجري، فيؤلف موسوعة كبرى يذكر فيها أسماء النباتات الدوائية والغذائية وصفاتها وأجناسها ومنابتها وأماكن وجودها في الأندلس، وأفرد أبو الوليد ابن رشد الحفيد (595 هـ / 1198 م) قسما من كتابه «الكليات» للكلام على أشخاص الأغذية.

ومن المؤلفات الأندلسية الأخرى التي عنيت بالأغذية الصحية، «كتاب الأغذية وحفظ الصحة» لأبي عبد الله محمد بن خلصون، من أهل لوشة، أدرك القرن الثامن الهجري، ومنها أيضا كتاب «الوصول لحفظ الصحة في الفصول» لأبي عبد الله محمد بن الخطيب السلماني، ذي الوزارتين (776هـ / 1374 م)، ومنها «كتاب الأغذية» لمحمد بن ابراهيم الرندي الذي أدرك القرن التاسع الهجري وألف كتابه هذا لأحد أعيان بلده. وقبل هؤلاء ألف عبد الله بن أحمد ابن البيطار المالقي (646 هـ / 1248 م) كتابه الشهير «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية الذي نقل فيه أقوال سابقيه مضيفا إليها تعليقاته الخاصة، على أن أشهر مؤلفات الأندلسيين في هذا الباب هو «كتاب الأغذية» لأبي مروان عبد الملك ابن زهر الإيادي (557 هـ / 1162 م) الذي قضى شطرا من حياته المهنية في مدينة مراكش حيث امتحن بالسجن على يد أمير المسلمين علي بن يوسف (500 ـ 538 هـ / 1107 ـ 1143 م)، ثم دخل في خدمة الخليفة عبد المؤمن بن علي (   ) بعد انقراض الدولة المرابطية، وألف ابن زهر كتاب الأغذية بأمر من خليفة الموحدين المذكور، أملاه وهو «عري من كتبه» ـ كما قال في خطبة الكتاب ـ بسبب طول محنته في سجن مراكش.

ومعلوم أن أبا مروان ألف في بداية حياته العلمية والمهنية «كتاب الاقتصاد في صلاح الأنفس والأجساد»، ثم ألف مقالة في علل الكلى، ومقالة في علتي البرص والبهق، وقانونا مقتضبا تكلم فيه على السُّدد التي تعتري الجسم، وكتب في أخريات حياته «التذكرة» المشهورة، ألفها لولده

أبي بكر ذكَّره فيها ببعض الأمراض التي تعتري الناس في مدينة مراكش وزوده بتوجيهات قيمة في مسائل تشخيص العلل ومداواتها وكيفية سقي الأدوية المسهلة، ولكنه ألف قبل ذلك «كتاب التيسير في المداواة والتدبير» وهو أشهر كتبه وأكثرها إحاطة بمسائل التشخيص والعلاج، ومن الرسائل الطريفة التي ألفها ابن زهر مقالة سماها «تفضيل العسل على السكر»، وقد نشرناها محققة مع «التذكرة» و«القانون المقتضب» في كتاب «الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية» الذي يحتوي على تراجم الأطباء والعشابين فضلا عن نصوص من التراث الطبي الأندلسي ومدخل تاريخي مفصل[1].

أما كتاب «الأغذية» الذي سيصدر نصه الكامل محققاً ضمن نصوص كتابنا «الأغذية والأدوية في المؤلفات الأندلسية»[2] أقول إن كتاب الأغذية لابن زهر، هو في الحقيقة مؤلف يُعنَى في جملته بحفظ الصحة عموماً، ولا يختص بالأغذية وحدها ـ كما قد يفهم من اسمه ـ فقد تكلم فيه المؤلف على مختلف أصناف الحبوب واللحوم والحيتان والألبان ومشتقاتها وأصناف الفاكهة والخضر والأفاويه، وتعرض فيه لأصناف الأطعمة المشهورة في زمانه كما تكلَّم على الأشربة والمربَّيات والمعاجين والأدهان، وذكر الأهوية والمساكنَ والأفرشة والملابس الصحية ومنافع الرياضة، وقدّم نصائح لحفظ صحة البَشرة والعين والشعر، وختم كتابه بالكلام على الأوبئة وأسبابها والتحرز منها. أما أغرب فصول هذا الكتاب فهو الفصل الذي أفرده للكلام على خواص عدد من الأحجار النفيسة والنباتات والحيوانات ولعله في ذلك قد اقتفى أثر والده أبي العلاء زهر بن عبد الملك ابن زهر (525 هـ / 1130 م) الذي خلف من بين مؤلفاته العديدة كتاباً سماه «الخواص»، أشار إليه بعض المؤلفين الذين أتوا بعده ومنهم ابن البيطار المالقي في مفرداته. ولا شك أن «الخواص» التي كان القدماء من الأطباء والنباتيين يعزونها لبعض الأحجار والحيوانات والنبات تبدو بمقاييس العلم الحديث ضرباً من الخرافة والوهم مما يعجز البحث التجريبي عن إثباته، ومن قبيل ذلك ما ذكره أبو مروان في كتاب «الأغذية» من أن نبات العوسج إذا غرس في دار أبطل السحر، وأن النظر إلى الحمرة يُعقِب نفث الدم، وأن الشرب في آنية النحاس يورث الجذام، وأن إمساك اللؤلؤ في الفم يُقَوي القلب عموماً، وأن ناب الكلب إذا حبسه إنسان لم يَعضه كلب، وأن السكنى بمقربة من الحمام أمان من الخَدر والفالج والسكتة وغير ذلك من الخواص.

إن كتاب «الأغذية» يضم ـ ولا شك ـ العديد من المعلومات القيمة المتعلقة بحفظ الصحة من طريق الأكل والشرب والرياضة والاستحمام والنظافة والتحرز من الأمراض وكيفية إصلاح الأغذية التي فيها ضرر ما لحجب ضررها، إلا أن في الكتاب مع ذلك نظرياتٍ وأقوالاً لا يقرها العلم الحديث، من ذلك مثلا أن ابن زهر يرى في التفاح من الأضرار ما يستوجب الابتعاد عن أكله، وهو يقرر أن منفعته الوحيدة هي شمه، مع أن التفاح من الفواكه ذات القيمة الغذائية والصحية التي لا ينازع فيها عارف في عصرنا هذا.

وسأقدم فيما يلي مختارات من كتاب الأغذية لابن زهر ليتضح للقارئ أسلوبه العلمي المتسم بالقصد والإيجاز وطريقته في معالجة هذا الموضوع الهام الذي يتصل اتصالاً مباشرا بحفظ الصحة والوقاية من الأمراض.

---

1) محمد العربي الخطابي، «الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية»، صدر في جزءين عن دار الغرب الإسلامي في بيروت، 1988، وفيه معلومات مقتضبة أو مفصلة عن أطباء الأندلس ومؤلفاتهم وأثر العديد منهم في تطور العلم العالمي.

2) يوجد هذا الكتاب تحت الطبع، وهو يشتمل على مدخل تاريخي تليه نصوص محققة لأشهر المؤلفين الأندلسيين في الأغذية كالزهراوي وابن عبدون وابن بكلارش وأبي الصلت أمية بن أبي الصلت الداني وابن رشد ومحمد بن ابراهيم الرندي ومحمد الشقوري اللخمي، كما يشتمل على جملة مفردات ابن البيطار النباتية والحيوانية والمعدنية مع معجمين لتفسير المصطلحات، وسيصدر هذا الكتاب بحول الله في جزءين اثنين.

تعرضنا لهذه المحنة في كتاب «الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية» ج 1 : 278 ـ 281.

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله، أحمده سبحانه وأسأله أن يَصل إنعامه وإحسانَه بإدامة عزّ الإسلام بتخليد مُلْكِ خليفة أمير المؤمنين أعدل إمام عبد المؤمن بن علي، العدل الزكي، خَلّد الله مُلْكَه، وصَيّر معمورَ الأرض مِلْكَه.

ولما أمرتَ ـ أعزك الله ـ أن أكتب في الأغذية التي يسهل وجدانها، ولا يتعذر في أكثر المواطن إمكانها كلاماً مختصراً من غير تعليل ولا تطويل، بدأت ممتثلاً وكتبت مطيعاً وإن كنت عارياً من كتبي لما علم من طول محنتي[3]، وأرجو أن يكون كلامي أولَ كلامٍ أو قولٍ رُفع في علم الطب إلى الدولة الطاهرة العلية، (وجمع للطائفة[4] الكريمة المهدية، فأرجو بذلك شرفا يخلد، وذكرًا في طاعة الله يحمد، والله أسأل التوفيق والتسديد بقدرته.

ذكر الأغذية بحسب الأزمان

إنه ـ أعزك الله ـ لما كان الهضم في الشتاء أقوى (وجب أن تكون كمية الغذاء فيه أكثر، ولما كان أبرد وأرطب)[5] وجب أن تكون الأغذية أحر وأيبس.

وأما الربيع فاعتداله معلوم، وهو أفضل الفصول، غير أن الأخلاط تتحرك فيه وتثور كما أن الرطوبات التي في الأشجار تتحرك في زمان الربيع فكذلك الحال في أجسام الحيوان، ولذلك يُستَفرغ فيه ما يجب استفراغه من الأبدان لجَري الأخلاط فيها، ولأن الربيع معتدل في ذاته فتحتمل الأبدان من الاستفراغ ما لا تحتمل في سائر الفصول، وكذلك تحتمل من التخليط[6] ما لا تحتمل في سواه، وكذلك تحتمل فيه التعبَ والجماع والسهر.

وأما الصيف فحار يابس والهضم فيه ضعيف والاستفراغ فيه غير محمود، ولذلك تجتنبه إلا عند الضرورة.

وأما الخريف فمشَتَّتُ المزاجِ ذو اختلاف، وقد رأى بعض الأطباء استفراغَ[7] الأبدان فيه، وليس الأمر كذلك، فإن اختلاف المزاج يُضعف قوة الأبدان.

الأخباز

أفضل الأخباز خبز **الحنطة** المختمر الذي طُبِخ في التنور ويعده ما يُطبخ في الفرن، وأجود الأخباز ما أُكثِر فيه من الماء حين يُعجَن، فإذا طُبِخ كان شبيهاً **باسفنج البحر** في الثقب الذي يتخلله، حار باعتدال، رطب يصلح بالناس عموماً في الصحة والمرض وفي جميع الأزمان والأسنان. أفضله ما أُكِل من يومه وقد فتر حرّ طبخه، وأرداه ما تقادم عجنه أو طبخه.

والفطير من الخبز رديء بطيء هضه، ويكون عنه خلط نيء بلغمي، وهو لأهل الجهد والتعب صالح.

خبز الشعير : أفضل الأخباز بعد خبز القمح، بارد يابس باعتدال، يقصر غذاؤه عن غذاء خبز **القمح** بقدر ما يقصر غذاء خبز **القمح** عن غذاء خبز **الدَّرْمَك**، فإن الدرمك أغذى. وخبز **الشعير** يصلح بالمحرورين في زمن الصيف.

وأحمد كل نوع منها ما أُحكِم طبخه في التنور، وبعد التنور ما طُبِخ في الفرن وبعدهما ما طبخ في الملة.

وأما **سويق الشعير** فمن أفضل الأغذية، بعيد من أن يفسد في المعدة، يبرد باعتدال ويقمع الخِلط الصفراوي بقصد، يغذي باعتدال، يصلح **للمحمومين** حُمّى حارة، وخاصة في الصيف لمن حُمّ، وللأصحاء أيضا إذا شرب بالماء القراح.

3) يشير أبو مروان إلى محنة السجن التي عاناها في مراكش على يد أمير المسلمين علي بن يوسف، ثاني ملوك الدولة المرابطية، وقد

4) عبارة ساقطة في ب.

5) عبارات ساقطة في ب.

6) في جـ : الأخلاط.

7) يقصد الأطباء بالاستفراغ الفصد أو الإسهال بالأدوية الخاصة بذلك.

وأما **كشك الشعير** فإنه يبرد باعتدال ويرطب ويجلو وينقي، ينفع من الحميات الحارة ويسكّن العطش، جيد للشبان في زمن الصيف جداً إذا غسل به جسمٌ من تعب أو سافر في حر شديد.

وأما **خبز السلت** فمزاجه مزاج خبز الشعير غير أن الشعير خير منه في خصال كثيرة.

وخبز الدخن أبرد وأيبس من **خبز الشعير** وهو أكثر إمساكاً للبطن من خبز **الشعير** ومن خبز **السلت**.

وخبز العدس مثله.

وخبز الجلبان رديء قد أُخبِر عنه أنه إذا أديم أكله أرخى الأعضاء، لا خير في إدامة استعماله.

وأما **خبز الشيلم** فحار يابس إذا استعمله البلغمي المزاج لم يكد يضره.

وأما **خبز البنج** فبارد يابس، وهو ألذ من سائر ما ذكرت بعد **القمح والشعير**، والطبيعة تألفه.

وأما **خبز الذرة** فبارد يابس قليل الغذاء جدا.

وأما **خبز الفول** فمائل إلى البرد قليلا يابس تكون عنه أحلام رديئة، وقل ما يرى آكله أحلاما صادقة، وهو يخل بالذهن ويحدث في المعدة والأمعاء رياحاً وأوجاعاً فيهما.

وأما **خبز الحمص** فهو أصلحها بعد **القمح والشعير**، يغذو كثيراً ويزيد في المني بقوة ويشد الانعاظ، ورياحه دون رياح الفول بكثير.

وأما **خبز اللوبيا** فيخل بالذهن أيضا.

وأما **خبز الكرسنة** فيحدث قيئاً ورياحا، وليست رياحه كثيرة، ولكنه كأنه يخالف جوهر الإنسان فيكرب ويغثي، وهو حار يابس.

وأما **خبز القنب** فهو بارد يابس ولا بأس باستعماله.

وأما **خبز الأرز** فحار يابس، صلب بطيء الانهضام، يكون عنه خلط غليظ، يولد السوداء في الأحشاء وفي سائر البدن ويَعقل البطن.

وأول خبز - زعمت الأوائل - اتُّخِذ **خبزُ البلوط**، وهو غليظ الجوهر، يابس، يميل إلى البرد، يسد الكبد ويفسدها. وخاصته دبغ المعدة، وكذلك خبز **الشاه بلوط** المعروف **بالقسطل**.

وقد يتخذ المساكين أخبازًا كثيرة من أصول **الصارة** (أيرنى) ومن حبوب كلها رديئة مثل حب شجرة اللاذن، وكل ذلك رديء غير موافق بوجه ولا حال.

اختلاف الخبز بحسب اختلاف صنعته.

قد علم أن **البشماط والكعك** خبز، ولكن لما داخله الزيت الذي يعجنان به وتشيط عند الطبخ حدث فيهما قوة كبريتية، فهما يضران بالمحروري المزاج وبالمحمومين حمى حارة وبسائر المحمومين. وأما الخبز المختمر فإذا حُمِّسَ[8] فغير المحَمَّس خير مما حُمِّس بكثير لأنه يصلب فيبطئ هضمه.

وأما **الحبوب المحمسة** فالقمح إذا حمس أبطأ انهضامه وكانت عنه رياح وقل غذاؤه، فإن أكِل **القمح** نيئا كما هو كان أضر، وكانت خاصته أن تكون عنه حيات البطن.

وأما **الشعير** فإنه إذا حمس ثم طحن كان منه سويقه، وقد ذكرته.

وقد يُحَمِّس الناسُ **الباقلى والحمص** فيكون هضمها أبطأ، ويحمسون السمسم، وهو محمس وغير محمس مخل بالمعدة مُغثٍ[9]. **والسمسم** حار رطب يُولِّد الصفراء في المعدة ويكون عنه القيء، وإن صادف منْ في معدته صفراء زاد فيها واستحال - بإذن الله - إليها. وكذلك بزر الكتان، وغذاؤهما صالح إذا جاد هضمهما.

---

8) التحميص (بالضاد) والتحميس (بالسين) معناهما واحد.

9) مغث : أي مثير للغثي والقيء.

فضيلة الخمير

الاختمار يُعجل الهضمَ في المختمر إذا كان الاختمار باعتدال، وأما إذا أفرط الاختمار فإنه يكون سبباً لتعجيل فساد الأخلاط وعفونتها.

الأحساء

الحريرة المتخذة من **الحنطة** يكون عنها خلط غليظ، وحريرة دقيق **الشعير** خير منها، وكذلك حريرة **الذرة والبنج.**

وأما **الأحساء** المتخذة من الأخباز المختمرة بعد طبخ الأخباز أنفسها فإن أفضلها حسو خبز **القمح** المختمر للأصحاء، ولا بأس به للمرضى. وحسو خبز الشعير أقل تغذية منه.

والثرائد كلها يكون عنها بلغم غليظ نيء.

وأما ما يقلى من **الأخباز** فإن هضمه يبطئ بحسب تزيد صلابة جِرمه وثقل رطوبته، ويَحدث فيه **مزاج كبريتي** بسبب الزيت الذي يقلى به، فإن كل ما يقلى لا يخلو من المزاج الرديء.

ذكر اللحوم

أفضلها **الدجاج** الذكران والإناث، فلحم **الدُّرّاج** ثم لحم **الحَجل**، وكلها مائل إلى اليبس قليلاً. وللحوم **الدجاج** خاصة عجيبة فأمراقها متى شربت **تفايا** عَدّلت المزاج ولذلك نسقيها لمن ظهر عليه ابتداء **الجذام**. وهذه اللحوم كلها نافعة.

ولحم الحَجل إذا سلق وطبخ وأكل عقل البطن ـ بإذن الله ـ وإذا شربت أمراقها من غير أن تُسلق أطلقت البطن، وكذلك تفعل أمراق **الدجاج**، وخاصة مُسِنّها.

ولحوم الدجاج تصلح حال المنهوكين والناقهين.

وأما لحوم **اليمام والحمام** الإنسي والوحشي **والقطا**، فإن **اليمام** حار يابس لطيف الجوهر، **والحمام** الإنسي حار أرطب مزاجاً وأغلظ جوهرا من **اليمام**، وأما أفراخها فكثيرة الرطوبة الفضلية جداً، ولها خاصة في إحداث أوجاع الدماغ المعروفة **بالشقيقة** وخاصة لأعناقها ورؤوسها.

والقماري غليظة سوداوية، **والشخش**[10] ألطف جوهراً منها.

وأما **القطا** فغليظة الجوهر سوداوية. وليس في هذه اللحوم ألطف جوهرا من **اليمام**، ولها خاصة أنها تزيد في الحفظ وتذكي الذهن ـ بإذن الله ـ وتقوي الحواس.

وفراخ **البزاة والصقور** لذيذة الطعم تشجع النفوس وتنفع بخاصة من **المالينخوليا**[11].

ذكر البيض

المعهود عند الناس إنما هو بيض **الدجاج**، وبيض كل طائر أضعف حرا من الطائر الذي هو بيضُه وأضعف تجفيفا.

والبيض إذا أكل **نيمرشت**[12] صالح يغذى تغذية حسنة، وإذا طبخ مسلوقا حتى يصلب نفع من إطلاق البطن، وإذا سلقت (البيضة) حتى تخثر ولا تبلغ إلى حد الصلابة سكنت **السعلة** التي تكون من خشونة الرئة الحادثة من الغبار والدخان أو من أكل الخل أو من أكل شيء يابس أو غيره مما يخشن قصبة الرئة من الأشياء القابضة والحريفة.

وإذا وضع رقيق البيض في العين **الرمدة** نفعها، وإذا استخرج دهن البيض يُسكن الأوجاع سواء كانت من أسباب حارة أو باردة، حاشا أوجاع **الحمرة**. وإذا فضخت (البيضة) نيئة ووضعت على البدن أحدثت فيه إملاساً

10) يقصد بالشخش نوعا من الحمام البري، واللفظ من اللغة الدارجة الأندلسية.

11) الماليخوليا لفظ يوناني معرب، وهي علة السوداء.

12) نيمرشت لفظ فارسي معرب، ومعناه المسلوق نصف سلق بحيث يبقى جاريا دون الصلابة.

وحسنا، وهذا يصلح ذكره في كتب الزينة، وإذا تحُسيت مسلوقة ولم تصلب بعد كانت نافعة من **سحج المعى** ومن الألم العارض في **المعدة** وفي المعى من شرب الأشياء السمية، وفيها قوة غير قوية في النفع من السموم عموما.

أما بيض البَرَكِ فهو أيضا لذيذ الطعم عند الناس، وهو أحر من بيض **الدجاج** وأقل رطوبة، **وبيض الإوز** قريب منه، **وبيض الحجل** أخف من بيض **الدجاج**، وإما **بيض الحمام** فأخف من بيض **الدجاج** وأرطب، ولذلك يعين على الجماع وخاصة إذا طبخ **بالبصل** وبماء **اللفت**.

وأما **بيض النعام** فأحر وأقل رطوبة مما ذكرته من سائر البيض، وبيض **العصافير** أخف من سائرها وأحر وألطف جوهرا من **بيض الدجاج**.

وأما **بيض الأطواس** فكما أن الأطواس أغلظ جوهرا من الدجاج كذلك بيضها أغلظ جوهرا، وهي في سائر ذلك مثل **بيض الدجاج** سواء بسواء.

وأفضل ما يستعمل البيض كما ذكره حنين[13] : يؤخذ **بيض** عشرّ عدداً، تكسر وتخلط في إناء **حنتم** ويوضع عليها من **الزيت** ومن **الخل** ومن **المري** النقيع من كل واحد مغرفة صالحة ويحرك على النار حتى يثخن جرمها وتنزل عن النار.

والناس يطبخون **البيض** على أنواع مختلفات منها أنهم يقلونها، ومنها أنهم يعملون منها أمراقا بالفتات **وبالكزبرة** ويطبخونها في الفرن وفي غير الفرن، ومنها أنهم يطبخونها **بالجبن** الطري ويعجنونها به ثم يقلونها وبعد ذلك يستعملونها **بالعسل، وهذا أشر غذاء يُعقِب أمراضاً رديئة صعبة، وأشر من هذا أنهم يضعون البيض في الحوت ويطبخونه معه ثم يأكلون ذلك، وهذا ضرب من الشبك للمرض.**

وأما **قشر البيض** إذا حمس وشرب فإنه يقطع الإسهال بإذن الله، وإن وضع في الأكحال (أي أدوية العين) جلا البصر وجفف الدمعة ونفع العين.

ومحاح البيض أفضل من **بياضها** بكثير، ولذلك من أراد تجنب ضررها استعمل المحاح وحدها دون البياض.

ذكر اللحوم من الماشي على أربع

أكثر ما يستعمل الناس **لحم الغنم**، وهي حارة رطبة أفضلها ما ليس بالصغير ولا بالمسن الكبير ـ الذكران خاصة ـ ثم لحم الخصي من الذكور المعتدل بين الصغير والكبير، ثم الإناث المعتدلة في العمر.

وأما **صغار الغنم** ففيها رطوبة كثيرة جدا، وهي لذيذة الطعم، ولكنها تحدث في الأبدان رطوبات فضلية، فلذلك يجب تجنبها، فإن استعملت **فشواءً** في السفود أو في الفرن أو **بالمري**، وذكر أن صغارها أشبه من إناثها بكثير، وبالجملة فإن لحم **الضأن** كله إنما يجب أن يستعمل بما يجفف من رطوبته مثل الطبخ **بالمري** ومثل الطبخ **بالزيت** الكثير ومثل طبخها **بالخل.**

وشر ما تستعمل إذا استعملت في ثريد أو **مضيرة** فإن مضرتها حينئذ تتضاعف أضعافا.

ذكر المعز

أفضل لحوم **المعز** لحوم صغارها، وخاصة الذكران منها، وشرها كلها المسن، **وفحول الضراب** منها شر من الخصيان، والذكران منها شر من الإناث، تغذي صغارها باعتدال أو تزيد في اللحم زيادة محمودة وتعين على الباءة بعض المعونة وخاصة إذا طبخت **باللفت** أو طبخت بلون يقع فيه **الحمص.**

---

13) حنين بن إسحق العبادي (260 هـ / 873 م) طبيب ومن ألمع تراجمة الكتب العلمية اليونانية (ابن أبي أصيبعة 1 : 184، بروكلمان 3 : 247 ـ 256).

وأما **الشوارف**[14] منها فإنها تحدث فسادا في الأخلاط وضروب الوساوس وأنواع الجنون، وكثيرا ما تحدث ـ بإذن الله ـ **الصرع والجرب** المتقيح، وأمراضها مذمومة جدا.

وأما **لحم الجداء** فإنها كادت تخرج ـ لإفراطها في الجودة ـ عن اللحوم من ذوات الأربع.

وأما **لحوم الجمال** فإنها غليظة الجوهر جدا يابسة باردة يبطيء انهضامها، وشحومها أغلظ من سائر الشحوم، ولذلك تراه يجمد، وهو حار الملمس.

وأما **لحم البقر** فإنه غليظ الجوهر سوداوي جدا بارد يابس بحسب النظر الطبي، وأما من حيث إنه لحم فخارج عن النظر الطبي، و **لحوم البقر** كلها فيها عسر وبطء في الانهضام، وصغيرها الراضع لابأس به في جودة الجوهر، وهو لا أقول فيه الانهضام إلا بقياسه إلى مُسِنّها، وكذلك لا أقول إنه بطيء الانهضام إلا بقياسه إلى **الدجاج والدراج** ولحم **الجدي** الصغير.

القول في لحم الصيد.

لحوم الصيد كلها ـ أعني ما يمشّي على أربع ـ غليظة سوداوية، أغلظها لحوم **بقر الوحش**، وهي أحر من الإنسية وأجف، ثم لحوم حمر الوحش، وكلاهما سواء بارد يابس.

ذكر الأيل

وأما لحم الأيل فالأنثى خير من الذكر، والصغير خير من الكبير بكثير، وهو حار يابس غليظ الجوهر يولد ـ بإذن الله ـ أخلاطاً سوداوية وأمراضاً سوداوية، وهو على حاله أشبه من **العنز** الشارف، وأما الصغير جداً الراضع الذي لم يرع العشب فلا بأس به، وهو مثل **الجدي** الصغير الذي قد أخذ في أكل العشب، والأنثى أصلح من الذكر.

ذكر الوعول

الوعول حارة يابسة بطيئة الهضم، إناثها خير من ذكرانها. الخلط المتولد عنها سوداوي، والصغير منها أصلح من صغير **الأيول**.

ذكر الغزلان

هذا الحيوان إنما هو في البلاد المنحرفة إلى الحر، وهو حار يابس ليس جوهره مثل جوهر **البقر** ولا مثل العنز الشارف، وهو أحر وأجف من **جدي** المعز، وهضمه سريع وغذاؤه محمود صالح معتدل، والأنثى خير من الذكر في ذلك، وله خاصة أنه يقوي النفس، وإن استعمل ماء لحمه من سقطت قوته أو غشي عليه من استفراغ أنعشه لا لأنه أسرع في تغذيته من غيره بل بخاصة فيه.

ذكر الأرانب

الأرنب حار رطب، ومُسِنّه بطيء الهضم يابس المزاج رديء الجوهر، وفَتيه خير من الكبير المسن. وأما صغار الأرانب، وهي **الخرانق**، فجيدة حارة رطبة تغذي بسرعة وتعين على الباه، خاصة إذا طبخت مع ماء **البصل** أو مع الماء الذي تقع فيه **الحمص**.

وخاصة الأرنب أنه يفتت الحصاة. وخاصة رأسه إذا طبخ الرأس **تفايا بيضاء** وأكله المرتعش نفعه بإذن الله.

ذكر الجراد

هو من الحيواه الطيار، وهو مع ذلك من الماشي على أربع قوائم فهو كأنه داخل في النوعين، فلذلك أفردت القول فيه، وهو حار يابس لطيف إذا قيس بسواه، والكيموس المتولد عنه رديء قليل، والناس يستعملونه طبخا، وأشبهه ما كان أحمر اللون عظيم الجرم سريع الحركة، وما يؤخذ

---

14) الشوارف (جمع شارف) أي المسنة.

منه بالأندلس لم تجر العادة فيها بأكله بوجه، وسمعت الناس يقولون : إنه يقتل آكله بالأندلس، ولم أتيقن ذلك، وهو للمحرورين عظيم المضرة ولأهل **البلغم** ورطوبه الأبدان أشبه منه بكثير، وكأنه عند الناس من الكوامخ، فما أكل منه على تلك السبيل فمضرته يسيرة، وأما ما أكل على طريق الغذاء فإنه يجفف ويحر فيحرق-الدم ويعقب آفات.

الألبان

أفضل الألبان **لبن المعز** لحين حلبه إذا شرب على الصوم، وهو بدفئه يغذي البدن غذاء محمودا حتى إنهم زعموا أنه يسمن المسلولين.

وأما **لبن الضأن** فلذيذ جداً وهو كثير المضار وافر الترطيب غليظ الجوهر مذموم.

أما **لبن البقر** فأقل رداءة من لبن الغنم، وهو أيضا غير محمود.

وأما **لبن النوق** فهو يقوي المعدة والكبد، وهو بعيد من التجبين، والألبان كلها عموماً تطلق البطن.

ذكر الجبن

الجبن الرطب بارد رطب تكون عنه أخلاط غليظة، إذا انهضم كان غذاء جيداً، وأما الجاف فرديء عفوني يجفف وهو مع ذلك لا يخلو من تعفين.

ذكر الزبد

الزبد بارد رطب عموماً يسكن اللذع، وإذا طبخ قل ترطيبه واكتسب حرارةً يسيرة من النار ومن الملح.

ذكر الرائب

بارد رطب يطلق البطن ويخل بالعصب والدماغ.

ذكر الشراز[15]

أضعف تبريدا من **الرائب** وأضعف ترطيبا منه، وهو أيضا مضر بالدماغ والعصب.

ذكر ثرائد اللبن وما يطبخ منه

إذا طبخ اللبن ازداد طيبا وإلذاذا وازداد إضرارا لشاربه، وأما إذا صنع به **الثريد** فقد جمع ثريده إلى مضرة الثريد مضار **اللبن.**

ومطبوخ **اللبن** على جهة الغذاء في نهاية المضرة، وأما على طريق الدواء فإنه إذا طبخ في قدر جديدة وغمست فيه مع ذلك صنوج حديد حتى يخثر قطع الإسهال بإذن الله.

ذكر الدهن المستخرج من الجبن الجاف

إنا قد نستخرج من الجبن الجاف دهنا كما نستخرج من سائر ما يمكن استخراج دهن منه. **ودهن الجبن** حار يابس كثير التحليل والجلاء يحلل **التهيج** بقوة وينفع من **الثآليل** بحول الله، وأما **ميس اللبن** فإنه يسهل ماء الصفراء إذا شرب، وفيه تبريد ليس بالقوي.

ذكر الحيتان

ذكر جالينوس أن الحوت الكثير الأرجل مما يعين على الجماع بقوة. وهو **الربيشا** ولا أشك أنه الذي يسمى عندنا **بالقمرون،** مزاجه حار رطب باعتدال، وهو لطيف الجوهر بعيد عن اللزوجة، فهو عندي محمود الغذاء.

وأما سائر أنواع الحوت فأفضلها ما كان أقلها لزوجة وكان له قشور كالدراهم تعلوه وكان دمه كثيرا، وإذا صيد لم يلبث في البر حيا إلا قليلا ويسرع هلاكه عندما يصاد فإن حياة **الحوت** مدة طويلة وقد خرج عن الماء أدل شيء

15) الشراز لفظ فارسي، ومعناه اللبن المخيض المنزوع الزبدة.

على سوء مزاجه ولزوجة الأمشاج المتولدة منه، فإنه ليس يحيى في البر مدة إلا لأن عليه حجابا من لزوجة تمنع عنه وصول حرارة الهواء ويبسه إلى أعضائه الرطبة بالرطوبة الطبيعية.

فما كان من **الحيتان** قليل اللزوجة فهو أجود وما كان منها له فلوس فهو أحمد، وما كان له دم أحمر خير مما يكون له دم أصفر.

وصغير أنواع **الحوت** خير من كبيره، ولا يفهم من قولي هذا أن صغير **الحوت** من نوع خير من المعتدل قده في ذلك النوع فإني لا أقول ذلك بل أقول إن الشاب في **الحوت** خير من صغير ذلك **الحوت** ومن مُسِنّه.

وأنا أحمد ما حمده الأطباء قبلي أن **الحوت** الذي نوعه صغير خير من **الحوت** الذي نوعه كبير، فإن **الحوت** المعروف **بالرضراض** خير من سائر **الحيتان**، وأعرف في الأدوية **حوتا** يسمى **بالسمك** رأيته وخبرته وخبره زهر بن عبد الملك، أبي رحمه الله، وعنى أنه **الحوت** الذي حمده الأطباء، وسموه **رضراضا**.

وما يكون من **الحوت** في المياه الجارية خير مما يكون في المياه القائمة القليلة الجري.

وأما ما يكون في المياه القائمة الراكدة فشر كله كاد يكون قتالا.

والحوت البحري ـ قولاً عاماً ـ خير من الحوت النهري، وما قَلّت سهوكة **الحوت** خفت مضرته وكان **الكيموس**[16] المتولد عنه أحمد، فإن حاسة الشم إنما جعلها الخالق ـ سبحانه ـ ليعرف بها الحيوان ما ينفعه مما يضره. ـ

فما كان كريه الرائحة فهو مخالف للذي رائحته طيبة، وقد كنت عزمت على ألا أعلل شيئا ولكن أقع في ذلك اضطراراً.

وأفضل ما يستعمل من الحوت أن يسلق بالماء الحار ثم يوضع في قدر كبيرة أو في ملة من فخار أو من حنتم فيصب عليه الزيت صافياً فإذا نضج حط عن النار وأضيف إليه مغرفة معتدلة متخذة **بالخل وبالزنجبيل**، هذا ليكون أحسن غذاء، وأما بحسب طيب الطعم فإن جعل في المرق **فتات** مدقوق فذلك أيضا لا يخل به في الجودة، وأما إن وضع فيه **الكزبرة أو البيض** فإن ذلك يحسن طعمه، وكذلك يحسنه **الزعفران** طعما ومنظرا ولكنه يفسد غذاءه ويحدث فيه أشياء رديئة منها أنه يملأ الدماغ أبخرة رديئة ويسدد العروق ويحدث أمراضا.

أما إن استعمل طبيخا **في الزيت** ـ كما قلت ـ بمرقة ساذجة أو من غير أن تضاف إليه مرقة سوى **الزيت** الكثير الذي يطبخ فيه فإني لا أقول حينئذ إنه مضر البتة وخاصة إذا كان من أنواع الحيتان المحمودة.

وأكثر ما يستعمل الناس **الحوت** وقد قلي في المقلى بالزيت، وهذا غير محمود فإنه يكتسب كبريتية من حر النار بالقلي، وكل شيء يقلى فإنه مضر خاصة بمن يكون حار المزاج. وربما وضع الناس فيه بعد ذلك **الخل بالثوم** وهذا أيضا من الخطإ العظيم، فإن **الثوم** يصعد أبخرة إلى الرأس فتملأ الرأس رطوبة غير محمودة، **وللخل** خاصة في الإضرار بالدماغ فيزيدون بفعلهم هذا في **الحوت** مضرة وهم يحسبون أنهم يقاومون مضرته، لأنهم يقابلون ـ بزعمهم ـ برودة جوهر **الحوت** بحرارة **الثوم**، ويقابلون غلظ جوهر **الحوت** بلطافة جوهر **الثوم** وبلطافة جوهر **الخل**، وبئس ما يصنعون !

ويتخذ الناس الحوت أيضا **بالبيض**، وهذا أيضا متناه في المضرة وخاصة ببياض **البيض**، وربما اتخذوه **بالجبن** الطري فيزيدونه مضرة على مضرة.

والحوت يتخذ أيضا شواء، فإذا اتخذ في التنور ونضج فإنه صالح، وكذلك إن شوي في السفود وأضيف إليه بعد ذلك **خل** أو لم يضف.

16) الكيموس : هو الدم النقي المتولد عن الغذاء.

والناس يقددون **الحوت** بالملح، وهذا قد خرج عما كنا تكلمنا فيه من **الحوت** فإنه يكتسب حرارة من المكث ببعض تعفن ويكتسب من حرارة **الملح** ومن تجفيفه فيكون جوهره ألطف وغذاؤه أقل ويكون **الكيموس** المتولد عنه في أكثر الحالات بلغما مالحا، **والحوت** الطري خير منه بكثير كما أن **الجبن** الطري الرطب على حاله خير من **الجبن** الجاف.

ذكر بيض الحوت

كل حيوان له بيض فالبيض أبرد مزاجا منه وأرطب. والبيض من **الحوت** أضر من **الحوت** نفسه، كما أن كل نوع له بيض فبيض ذلك النوع أضر من ذلك النوع نفسه لأنه أغلظ جوهرا وأميل عن الاعتدال.

وبيض الحوت لذيذ الطعم يستعمله الناس طبيخا أو بالقلي، وأشبه ما يؤكل محلولاً بالخل أو مطبوخاً بالزيت الكثير من غير ماء على ما قلت في الحوت نفسه.

ذكر الأواني

أفضل الأواني لطبخ ما يطبخ ـ لو أمكن وأوجد الشرع إليه سبيلا ـ أواني **الذهب** وبعدها **الفضة**، ثم ـ بسبب تحريم تلك الأواني ـ **الفخار** وأواني الحنتم. وإن غسلت فمن خمس مرات إلى نحو ذلك فإن ما يداخل جِرم الأواني من الطعام يَلحج فيها مداخلاً لمسامها ويتعفن، فإذا طبخ فيها مرة أخرى كان ما قد داخلها من ذلك كالخمير في العفونة[17] لما يطبخ فيها، وليس شيء يحدث **الحميات العفونية** كما يحدث هذا، وكذلك يحدث الجرب القبيح وأنواعا من الأمراض لكل إنسان بحسب غلظ أخلاطه وبحسب رقتها وبحسب ما يلزمه من الدعة من التصرف والرياضة.

وأما أواني **النحاس** فلا يجب أن يطبخ فيها فإن جوهرها رديء.

وقد زعم كثير من الأطباء أن من لازم أكل ما طبخ فيها عاما فإنه يجذم.

وأما أواني **الحديد** إذا تعوهدت بالغسل وتحفظ بها من الصدأ الذي يطفح فيها فإن الطبخ فيها جيد، وأما إن طلي **بالقزدير** فهو أيضا جيد.

وأما أواني **النحاس** فإنها ـ وإن طليت بالقزدير ـ فلا بد على كل حال أن يكون لجوهر **النحاس** أمر ولكنه يسير ومع الدءوب يتمكن، فإننا نرى قطر الماء يؤثر في الحجارة بالدءوب.

وأما أواني **الرصاص** وأواني القزدير فجيدة كانت قدورا أو صحافا.

وأواني **الحنتم** جيدة ولكن الطبخ فيها يبطيء.

وأواني **الزجاج** جيدة ولكن الطبخ فيها لا يمكن لأنها تتكسر سريعا، والأكل فيها والشرب مؤافق حسن.

القول في الطعام بعد طبخه

عندما يوضع في الصحاف من الحزم ألا يغطّى إلا بما يخرج البخار منه مثل **المنخل** فإنهم زعموا أن تلك الأبخرة إذا ترددت ولم تخرج أحدثت في الأطعمة قوة **سمّية**، وخاصة **السمك** وجميع ما يكون مشوياً، وكذلك يجب أن يحذر في القدر عند الطبخ إذا غطيت أن تكون لأغطيتها أثقاب فيها، وإنما يجب أن تكون الأغطية مثقوبة ثقبا أدق ما يمكن، وأفضل ما يقلى فيه رديء وخاصة ما هو كثير الدهنية مثل **المرقاص** واللفائف والقلايا فإنها في طبعها من الحدة والانحراف أمر ليس باليسير فكيف إذا نالها فساد من مزاج النحاس ؟

17) قد يفهم من هذا الكلام أن ابن زهر كان له إحساس ما بوجود البكتريا، وهنا يستبعد فابن زهر هو أول من تكلم على قمل الجرب الذي لا يرى بالعين المجردة، وقد تكلمنا على ذلك بتفصيل في كتابنا : «الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية».

القول فيما يطبخ بالماء وفيما يطبخ بالزيت والعسل

ما يطبخ **بالماء** يلين جِرمه فيسهل هضمه، وما يطبخ في العسل يصلب جرمه ويضعف هضمه مثل ما يعرض لما يطبخ في **الزيت**، ولذلك اختار الأطباء الطبخ في **الزيت** للين لحم **الحوت** فيعتدل بذلك، وأما سائر اللحوم فإنها لا تحتمل أن يصلبها الطبخ في **الزيت** ولا في **العسل** ولا في **الرب** فإنها إذا طبخت كذلك صلب لحمها وخرجت عن حد المستلذ، والطباخون يغلطون في هذا فإنهم يتخذون ألواناً بالعسل تأتي أمراقها طيبة وأما لحمها فإنه يكون غير مستلذ ويكون بطيءَ الهضم، والصواب في ذلك أن يطبخ الطابخ على عادته اللحم بالعسل ويطبخ قدرا آخر **تفايا** بيضاء فإذا نضج ذلك أزال اللحم من قدر العسل جملة واحدة ووضع مكان ذلك اللحم لحم التفايا وتركه قليلاً قدر ما يداخل اللحمَ طعمُ المرق ثم ينزله فإنه يأتي لذيذ الطعم ولا يكون بطيء الهضم إن شاء الله، وأما اللحم الذي قد أزيل عن قدر طبخه في العسل فإن فائدة قد حصلت في المرق وهو إن أحب أحد أكْلَه أكَلَه، وهذا الطعام حار وكأنه معتدل في الرطوبة واليبس لما يداخله من ترطيب الدهن واللحم والشحم واللوز، فإن الطباخين من عوائدهم أن يضعوا فيما يطبخونه **معسلاً ولوزا**، وهذا الطعام يكون منه إنضاج وجلاء ويغذو كثيرا ويصلح استعماله في أيام الشتاء، وهو من أدوية **المفلوجين** والشيوخ **والمبلغمين**. وقد يطبخ مثل هذا بماء الزبيب وهو خير مما يطبخ بالعسل وأوفق.

وأما الصنعة في طبخه فما ذكرته فيما يطبخ **بالعسل**، وكذلك قد يطبخ بالرّبّ والأمر فيها كلها واحد.

القول في الفواكه

جالينوس يقول في **التين والعنب** إنهما سيدا الفاكهة.

والتين حار رطب يخل بالمعدة ويلين البطن وفيه جلاء يسير بسبب ما فيه من الحلاوة ومن اللبنية، وأفضله أتمه نضجاً، وأرداه الفج، وأما جافه فإنه أضعف ترطيباً من الرطب، وهو حار أشد حراً من الرطب بكثير، وهو إما معتدل في اليبس والرطوبة يميل إلى اليبس قليلا وإما أن يكون يجفف من غير إفراط، وإخلاله بالمعدة أيسر وتليينه للبطن كذلك، وهو أقل رياحاً من الرطب بكثير ولكنه لا يخلو مع ذلك من الرياح عند انهضامه، غير أن رياحه هي أيضا في البطن وما هنالك، يغذو غذاء صالحاً ويزيد في اللحم إذا أديم أكله ويسكن القوة الغضبية التي في القلب ويكسر منها بخاصة فيه، ويكون منه عند انهضامه في الأعضاء فضلة يتكون منها قمل بإذن الله تعالى.

وأما العنب فإنه حار حرارةً فاترة رطب باعتدال يخصب البدن، غير أنه تكون عنه رياح في الهضوم كلها لا يكاد يخلو عند كل واحد منها من رياح رقيقة تكون منه فتحدث في البطن وفي العضل أوجاعا حادة رديئة مؤلمة بإذن الله تعالى.

ذكر عصيره

عصير **العنب** أصل الخمور **والربوب والخلول**، وهو حار رطب، إذا شرب كما يعصر أنفخ الجوف ثم أحدث **القراقرفيه**، وبعد اليومين أو الثلاثة يُحدِث الأوجاع في الأعضاء في أكثر أحواله اللهم أن يجود هضمه في بدن قوي شاب، وذلك قليل ما يكون، وأما في غالب أحواله فإن ذلك لابد منه، فإن طبخ رُبّاً كان حاراً معتدلا في الرطوبة واليبس يُعين على الهضم ويَجلو المعدة وينفع المريء وقصبة الرئة، ويُسكّن **السعال** ويسكّن **لذع البول** وينفع **المثانة** نفعا قوياً، هذا إذا كان طابخه يطبخه في أواني فخار أو كانت الآنية من **النحاس** قد طليت **بالقزدير** ولم يحرك بمُحركٍ مدةَ طبخه إياه بل أخرج رغوته ونقاه عنها برفق، وأما هذه الربوب التي تحرك عند طبخها فإنها تحرق

الدم وهذه مضرة لا خير فيها، وأما إذا لم يطبخ عصير العنب فإنه يغلي على ما قد علم وحينئذ يكون أقوى إضرارا منه أولاً، وفإن ترك كذلك كانت **الخمر** المحرمة منه، وإن وضع فيه من قبل ذلك يسير **خل أو خل** فيه يسير **خمر** أو صب فيه شيء من الأشياء الحامضة مثل عصارة **الليم أو الرمان** الحامض أو من عصارة سائر الأشياء الحامضة فإنه يأتي **خلا**، **والخل** يبرد ويجفف وكلما تقادم زاد تجفيفه.

ذكر الزبيب

هو حار رطب باعتدال، منضج يزيد في اللحم ويخصب الكبد وينفعها بخاصة جعلها الله فيه.

وأما العنب قبل أن ينضج المسمى **حصرماً** فإنه حينئذ إن أكل سكن **لهيب المعدة** ونفع **المحرورين** نفعاً ظاهراً، يقوي المعدة بخاصة فيه وبمزاجه، ولذلك يقطع **القيء** قطعاً عجيباً، والأطباء جرت عادتهم أن يعصروه ويستعملوا عصارته في أشربة تقوي المعدة وفي أطعمة تفعل ذلك للمرضى والأصحاء، وقد يضعون كثيراً من عصارته في أواني للشمس حتى يَجف، وما يبقى في قعر الإناء من غليظها كأنه شراب حفظوه وسموه **عصارة الحصرم** وصرفوه بعد ذلك فيما يقوي معدة **المحرورين**، ويقطر القيء لمن في معدته خِلط صفراوي يغثيه.

وعساليج الكرم إذا أكِلت قد تنفع من ذلك، وكذلك إن اتخذت معجوناً بالسكر.

ذكر التفاح

هذا من أنفع الأشياء إذا شم، يقوي القلب والدماغ، ينفع **المذبولين** ونفعه للموسوسين أقوى، وأما أكله فمضر حتى إني أكاد أقول إنه لا شيء مما يؤكل من الفواكه أضر منه، يحدث رياحا في العروق وأوجاعا في العضل، وربما كان سببا **للسل** لأنه إذا انهضم يكاد الدم الكائن عنه لا ينفكّ يتحلل منه شيء إلى رياح لطيفة تكون في العروق، وقد تكون تلك الرياح في العضل، فإذا تمددت لم يؤمن من أن تنخرق فإذا انخرقت في الرئة كان منها السل لا محالة إلا في النادر.

وسواء في التفاح أكِلَ نضجا أو أكل وقد تناهى نضجه أو أكل أول إدراكه، وأكله فجا عندي أيسر ضرراً بكثير فلا أرى استعماله. أما عصيره فهو وتجيره[18] في المضرة سواء إذ كره استعماله للمريض والصحيح اللهم إلا أن يستعمله من الشبان السوداوي الصحة والقوة فإنه ربما انهضم انهضاماً تاماً في الهضوم كلها ولم يعقب مضرة.

ذكر الكمثرى

الكمثرى خير من **التفاح** بكثير جداً، وهو في إحداث الرياح أضعف من **التفاح** بكثير وترطيبه أضعف من ترطيب **التفاح**، فإذا أكل قبل الطعام قطع الإسهال وإن أكل بعد الأكل ألان الطبيعة، وهو يقطع العطش فإنه مشتّت الأجزاء، أما الجوهر الحلو منه فحار رطب، وأما الحامض فبارد رطب وأما القابض فبارد يابس، فإذا نظرته كما هو قلت فيه إنه يميل إلى البرد ميلا يسيراً، وأكله بعد الطعام على سبيل الفاكهة يقوي المعدة، ومن كان به ضعف المعدة والمعى فلا يخرج الثفل عند الحاجة إلى إخراجه دفعة متصلاً فإن **الكمثرى** إذا أكله آكله بعد الطعام انتفع به بإذن الله سبحانه. وإن اتخذ من **الكمثرى** رُبّاً قطع العطش ونفع من حدة الصفراء، وإن اتخذ منه عصير لا يلبث أن يتحلل وكذلك **الخل** منه يقوي المعدة تقوية عجيبة ولم يكن إضراره بالعصب كإضرار سائر **الخلول** لما يكون في جوهره من القوة المقوية بالقبض وبالعطرية.

ذكر السفرجل

السفرجل أغلظ جوهرا من **الكمثرى** وأقوى تبريدا، ولغلظ جوهره لا يفعل في تسكين العطش ما تفعله **الكمثرى**.

18) في ب ج : وغيره، والتجير هو الثفل، وهو المقصود.

والسفرجل أعقل للبطن وأقوى[19] في ذلك وهو يشد النفس ويقويها وينفع من **الخفقان** شمه كما تنفع **الكمثرى، والسفرجل** في ذلك أقوى، وجرت عوائد الأطباء أن يتخذوا من **السفرجل الجوارشات**[20] أكثر مما يتخذونها **من الكمثرى.**

ذكر الرمان

الرمان منه الحامض ومنه الحلو وكلاهما يرطبان، والحامض أبرد، وكلاهما تكون عنه رياح دون ما تكون عن **التفاح** بكثير جدا، وفيهما خاصية محمودة أنهما إذا أكل الخبز بهما منعاه من أن يفسد في المعدة، وخاصية بديعة خصهما الله بها : أما الحامض فإنه يقطع بلغم المعدة وسائر البلغم، وإن طبخ به طعام لم يكن ذلك الطعام يفسد في المعدة، وأما **عصارة الحلو** منهما فإنها ترطب، وهو في الحر والبرد نحو الاعتدال، فإن اتخذ رُبّاً كان نافعا بإذن الله من فساد الأطعمة في المعدة، فإن ترك كان منه شبيه **بالخمر** ثم **خل** يكون مزاجه قريباً من مزاج عصارة **الرمان** الحامض.

ذكر المياه

أفضل المياه مياه العيون التي يستقبل مفجرها المشرق، وإذا مسها البرد بردت سريعا وإذا مسها حر استحرت سريعا.

ذكر العسل

العسل ركن عظيم في تدبير الصحة وفي مداواة الأسقام، وأفضل **العسل** ما صفا ونفذه البصر مع التوسط في الرقة وفي الغلظ، وتكون تفوح منه الروائح العطرة، وما أبيضُ منه يصلح لشراب **الورد والجلاب**،[21] وما احمر منه يصلح للأشربة الحارة مثل شراب **الحاشا** وشراب **الاسطوخودوس** وشراب **الايرسا**[22] وما أشبه هذا.

وأما **شراب العسل** بالماء على حاله فإن أفضله ما اختير من أعلى نوعه ثم استخرجت رغوته ثم استعمل.

وأما **السكر** فإنه - عند جالينوس - نوع من العسل، واستعمال **السكر** في الأشربة التي تختص بالمريء أو بالمعدة أو بالمثانة خير من استعمال **العسل.**

وأما الأشربة التي تتخذ لتفتيح سدد الأحشاء فإن استعمالها **بالعسل** خير، وكذلك **المعاجين الترياقية** إنما استعملها القدماء **بالعسل.**

العسل للشيوخ يكون عنه دم محمود جيد.

ذكر الخلول

كل خل تابع في مزاجه وجوهره لما هو خله، والخل أبرد مما هو خل منه، وهو يقطع ويجلو، ويذيب[23] البلغم، ويجفف ويبرد فكأنه يمانع العفونة ويضادها.

ذكر الفرق بين حرارة العسل والسكر[24]

حرارة **العسل** من حيث إنه حلو وكذلك حرارة **السكر، وفي السكر** حرارة نارية اكتسبها من النار عندما عقد، وفي **العسل** حرارة كأنها سمية اكتسبها من **الأوعية** التي هي في بطون **النحل**، فإن **النحل** فيه حرارة من حيث إنه حيوان وحرارة من حيث **السمية** التي بها يصيب من لسعه ما يصيب من الوجع، **والعسل** على هذا الوجه يصفى مما يداخله من الكدر وذلك أن يخلط به ماء كثير وتطبخه به فكلما ارتفعت رغوته أزلتها، هكذا حتى يستنفذ رغوته ويعود إلى خثارته فتنزله.

19) في ج : وأفعل، وهو لا يغير المعنى.
20) الجوارشات (فارسي معرب)، ومعنى الجاورش : الهاضوم.
21) الجلاب (فارسي معرب) : وهو شراب مصنوع بالورد والعسل أو السكر.
22) الأسطوخودوس : نوع من الصعتر يعرف عندنا بالحلحال؛ والايرسا هو السوسن الموشى بألوان.
23) في ج : ويذهب.
24) ألف أبو مروان بن زهر رسالة في تفضيل العسل على السكر، وقد نشرنا نصها محققا ضمن نصوص كتابنا «الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية».

ومن العسل ما تفوح منه رائحة **الورد** وهذا يصلح لشراب **الورد** حقا، ومنه ما تفوح منه رائحة **الحاشا** وهو يصلح لشراب **الحاشا** وما شاكله، ومنه ما تفوح منه رائحة **الحلتيت** أو رائحة كريهة من سائر الروائح، وما كان كريه الرائحة فتجنبه في أعمال الطب فإن لم تجد مندوحة عنه فاغسله - كما ذكرت - وإن وضعت فيه شيئا من شمع عندما تطبخه اجتمعت الرغوة إلى ذلك **الشمع** وأخرجتها.

ذكر الأشربة المعهود بها وكيف تستعمل والمعاجين الكبار والوجه في شربها

شراب السكنجبين الساذج

إذا اتخذ في الشتاء على الصوم بمثليه من ماء حار جلا المعدة ونقاها وقطع الأخلاط الغليظة وكسر من حدة الصفراء، وإذا أخذ في الربيع فعل مثل ذلك، وإذا أخذ في الصيف بخمسة أمثاله من ماء برد البدن تبريدا معتدلا وقطع الأخلاط الغليظة وكان - بإذن الله - دفاعا - **للحميات**، وأما في الخريف فأخذه بثلاثة أمثاله من ماء هو وجه الصواب عندي، وهو يضر من به **سعال** أو به حرقة بول. والذي يتخذ منه **بالسكر** في شأن التبريد أوفق. والذي يتخذ **بالعسل** في التقطيع أبلغ.

ذكر شراب الورد

يتخذ من **الورد** الغض ويتخذ من **الورد** الجاف، وكلاهما يبرد باعتدال، فإذا خلطا بالماء لم يكونا حينئذ يجففان، والمتخذ من **الورد** الغض لا يطلق البطن على الحقيقة ولا هو يعقله، والذي يتخذ من الجاف يعقل البطن، وكلاهما يقويان المعدة والكبد ويشدان القوة وينفعان من **الغشي**.

ذكر شراب الأسطوخدوس

هو يسخن باعتدال ويجفف من غير إفراط، يقوي المعدة والكبد وجميع الأعضاء، وله خاصة أنه يكسر من سورة الامتلاء لتقويته الأعضاء فإنها إن قويت حملت من الامتلاء ما لم تكن تحمله من قبل، وإذا شرب بالماء الكثير فليس يجفف إلا ما لا خطر له، وهو مما يسهل، وينفع نفعا ظاهرا من به **استرخاء** أو **فالج** أو **خَدَر** إلا أن يكون **الخدر** سببه سدة فإنه حينئذ إنما ينفع مثل شراب **الايرسا** وشراب **القنطوريون**.

ذكر شراب قشر الأترج

هو معتدل في الحر والبرد أو قريب من الاعتدال جيد لطيف ملطف يستفرغ الأخلاط بالبول وبالعرق ويقوي الأعضاء ويقاوم السموم.

شراب الإذخر

يسخن باعتدال وفيه تجفيف، يقوي المعدة والكبد وينفع من ضعفهما، وبهذا ينفع - بإذن الله - من **الاستسقاء**.

شراب السنبل

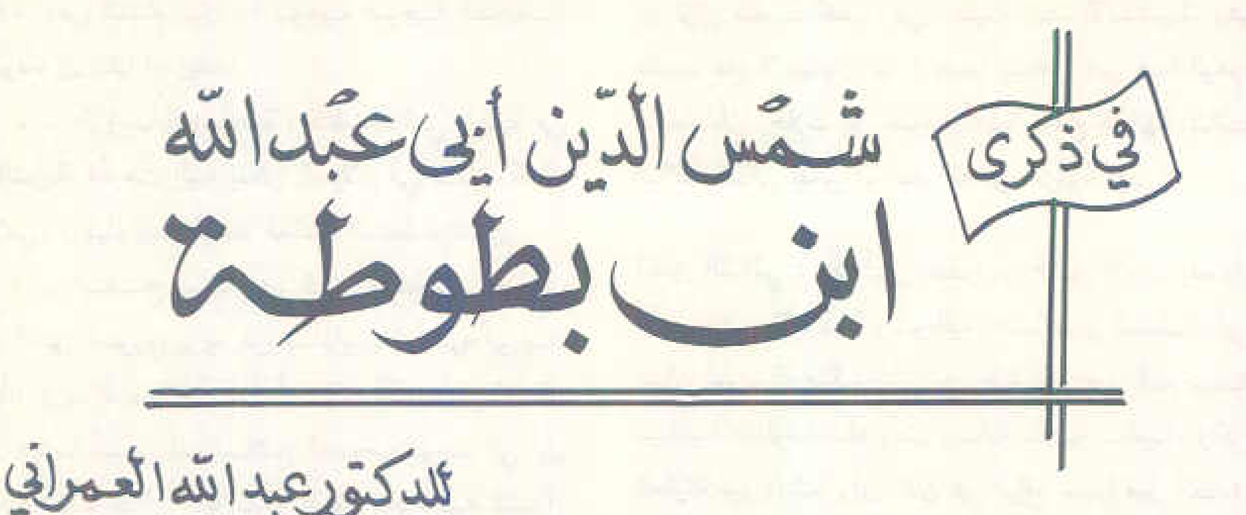
هو في جميع الأحوال قريب من شراب **الإذخر**.

شراب التفاح

هذا إما معتدل وإما قريب من الاعتدال بين الحر والبرد، يرطب ويقوي النفوس ويفرح، وهو يتخذ من الحلو ومن المر، والمتخذ من المر أميل إلى البرد، وذلك يسير.

شراب الرمان

وهو أيضا يتخذ من الحلو ومن المر، وهما يرطبان، والذي يتخذ من المر كأنه يميل إلى التبريد ميلا يسيراً. خاصتهما منع الأغذية من الفساد في المعدة، والمتخذ من الحامض أقوى في تسكين العطش، وفي كليهما خاصة في منع أخلاط البدن من التعفن بإذن الله.



للدكتور عبد الله العمراني

ـ 2 ـ

ثلاث خصال حميدة تحبب الباحث في هذا الرحالة الطنجي العالمي، وتجعله يبدئ ويعيد في الحديث عنه :

الأولى : إيمانه القوي : فإيمانه القوي الذي اتسم به هو الذي دعاه إلى استكمال أركان دينه الحنيف، فبمجرد ما تشبع بمبادئ العلوم الدينية واللغوية، وأحس من نفسه القدرة المادية والمعنوية على أداء فريضة الحج، أخذ للأمر زاده وعدته، ونفر لمزيد من التفقه في الدين وإرشاد الناس وإنذارهم. ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾. (التوبة : 122). وإيمانه القوي هو الذي حدا به أن يتصل بالعلماء والمتصوفة ورجال السلطة الشرعية، فيحادثهم ويعاشرهم ويناقشهم أينما حل وارتحل.

الثانية : حب استطلاعه : حب الاستطلاع غريزة ثابتة في الإنسان، ولولاها لما تقدم الإنسان والعالم خطوة واحدة إلى الأمام. وتتخذ تغذية هذه الغريزة أشكالا عديدة متباينة، في مقدمتها الشكل الشمولي الواسع الذي جعل ابن بطوطة يطوف أقطار العالم من شواطئ الأطلس غربا إلى شواطئ الهادئ شرقا، ومن مملكة غرناطة بالأندلس شمالا، إلى بلدان السودان الغربي جنوبا، فهذا الطواف الشامل هو الذي جعل الرحالة العالمي يكتشف ويصف، ويعلل ويحلل كل عجيب غريب من الأشياء والأشخاص والحيوان والنبات والسلوك والعادات الإنسانية، فعل العالم المحقق المدقق الذي يثرى معلومات قرائه، وينمي مشاركاتهم الوجدانية، ويقوى إحساسهم بأن الإنسانية ـ رغم تباعد أطرافها ـ كل واحد لا يتجزأ، وغير خاف ما لذلك من أثر بالغ في التعايش السياسي ـ السلمي والتنمية الاجتماعية الثقافية، وفي تكوين ثروة علمية ـ عملية هائلة يستفيد منها المثقفون كافة، والمختصون في علم الإنسان : Anthropology وفي الوصف العلمي للسلالات البشرية : Ethnography، كما يستفيد منها علماء الجغرافية والتاريخ والزراعة والنبات وحتى السياح وخبراء الطبخ.

الثالثة : لياذه بربه : كان يلوذ بربه ويلجأ إليه كلما حزبه أمر. وتتجلى استشارته ربه في قيامه بأحد أمور ثلاثة :

1 ـ الاستخارة : فكان يتطهر ويصلي ركعتين

وينام على الطهارة طالبا من الله أن يختار له من الأمر ما يوافقه. وفي المنام يرى ما يوجهه الوجهة الصحيحة المطلوبة، إن سلبا أو إيجابا.

2 ـ الرؤيا الصادقة : كتلك التي رآها في الاسكندرية، فأوحت إليه بفكرة الجولان في بلدان العالم الإسلامي، والقيام بهذه الرحلة العالمية المنقطعة النظير.

3 ـ استفتاح المصحف : كان السلطان الهندي جمال الدين المنوري يريد غزو (سندابور)، وأخبره أبو عبد الله بأنه يريد الجهاد فقال له : أنت إذن تكون أمير الحملة، ولكن حينما أنبأه بأنه استفتح المصحف فوجد في أول الصفحة قوله تعالى : ﴿**يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره**﴾ حينئذ قرر السلطان أن يقود الحملة فركب وأركب معه ابن بطوطة، وهوجمت سندابور وتحقق النصر من عند الله.

تبديد وهم

حين نذكر رحلة ابن بطوطة، ينصرف الذهن إلى رحلته المشرقية الكبرى التي دامت أزيد من خمس وعشرين سنة (من ثاني رجب 725 إلى آخر شعبان 750)، ولكن الحقيقة أن له رحلتين أخريين تاليتين إحداهما إلى الشمال حيث زار مملكة غرناطة بالأندلس، والأخرى إلى الجنوب، إلى السودان الغربي بافريقية السوداء.

وقبل الحديث عن الرحلتين، أود أن أبدد وهما ذا شقين علق ببعض الأذهان.

الشق الأول : يوهم أن ابن بطوطة لم يكن فقيها متمكنا من الفقه، ولذلك لم يقم بوظيفة القاضي في جزر ذيبة المهل (جزر المالديف) خير قيام، وهذا وهم فائل، وزعم باطل، سبق أن دحضناه في الحلقة الأولى من هذه الدراسة، ويدحضه أيضا توليه أثناء الرحلة منصب القضاء في الهند وهو بلد عريق في الحضارة. ثم توليه القضاء، في تامسنا ببلاده المغرب الأقصى بعد انتهائه من الرحلات الثلاث، ونزيد فنقول : إن أسرة ابن بطوطة كانت أسرة علم وفقه ودين، وإلا فكيف تمكن أحد أعضائها ـ كما سنرى ـ من تولى منصب القضاء في مدينة رندة الأندلسية، وهو منصب هام لا يستهان به ؟ ومما يدخل ضمن هذا الوهم، الادعاء بأن رحلات ابن بطوطة ألفها ووضع عنوانها كاتب البلاط الملكي بفاس أبو عبد الله ابن جزي الكلبي.

الشق الثاني : وهو أدنى خطرا من الشق الأول، وفحواه أن الرحلتين الأندلسية والسودانية كانتا بأمر السلطان أبي عنان المريني، فيكون ابن بطوطة على هذا قام بمهمة سياسية ديبلوماسية، وأدى رسالة ملكية سامية، ولكن الحقيقة غير ذلك، وإن كان في الواقع سفيرا فوق العادة، مثل المغرب والمشرق والعالم الإسلامي خير تمثيل.

الرحلة إلى الأندلس

من خلال الرحلة المشرقية الكبرى أحاط ابن بطوطة علما بخصائص شعوبها، ومزايا ملوكها وأهم صفاتهم الخلقية، ولهذا نراه يمثل بين يدي أمير المومنين أبي عنان فتنسيه هيبته هيبة سلطان العراق، وحسنه حسن ملك الهند، وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن، وشجاعته شجاعة ملك الترك، وحلمه حلم ملك الروم، وديانته ديانة ملك تركستان، وعلمه علم ملك الجاوة. وهكذا جمع أبو عنان، الخصال الحميدة التي افترقت في غيره من الملوك، وهو ـ سبحانه ـ على كل شيء قدير.

ولما تملى الرحالة بمشاهدة المقام الكريم، وعمه فضل إحسانه العميم، توجه إلى زيارة قبر والدته بطنجة، ومنها توجه إلى سبتة راغبا أن يكون له حظ من الجهاد والرباط، فركب البحر إلى بلاد الأندلس وكان أول بلد شاهده منها جبل الفتح (جبل طارق)، وود لو كان ممن رابط به إلى نهاية العمر، وكعادته في كل وجهة أو بلد، تعرف على خطيب جبل الفتح، وعلى قاضيه الفاضل الذي أضافه ونزل عنده، وتطوف معه على معالم الجبل، ومشاهده المدنية والعسكرية.

ثم قصد مدينة رندة التي قال عنها إنها من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعا. ولقي في رندة قاضيها ابن عمه الفقيه أبا القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة، كما لقي غيره من رجال السلطة العسكرية والعلمية. وأقام بالبلدة خمسة أيام، ثم غادرها إلى مدينة مربلة Marbella وهي بليدة حسنة خصبة غير أن الطريق بينها وبين رندة شديدة الوعورة.

وفي مربلة وجد جماعة من الفرسان متوجهين إلى مالقة Malaga، وحدثته نفسه بمرافقتهم في الطريق، ولكن الله عصمه بفضله إذ حدث أن أسر منهم في الطريق عشرة وقتل واحد، وفر آخر، وقتل أيضا رجل حوات مسالم، وأخبر قائد حصن سهيل Fuengirola القريب أن أربعة أجفان للعدو ظهرت هناك، ونزل بعض عمارتها إلى البر، وفعلوا ما فعلوا. واقترح القائد على الرحالة أن يبيت عنده الليلة، على أن يوصله هو في الغد إلى مدينة مالقة.

وفي الغد وصل أبو عبد الله إلى مالقة، وبحث عن قاضيها أبي عبد الله محمد الطنجالي فوجده في الجامع الأعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالا برسم فداء الأسرى. قال الرحالة للقاضي الطنجالي : «الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني أسيرا مثلهم». ثم أخبره بما اتفق له بعدهم، فعجب القاضي من ذلك». ثم بعث القاضي إليه بالضيافة. وأضافه أيضا خطيب مالقة أبو عبد الله الساحلي.

ثم سافر ابن بطوطة من مالقة إلى مدينة بلش Vélez وبين الثنتين أربعة وعشرون ميلا. وهي مدينة حسنة، بها مسجد عجيب، ثم سافر من بلش إلى الحمة Alhama وهي بلدة صغيرة ـ كما يقول ـ لها مسجد بديع البناء. وبها العين الحارة، وفيها بيت لاستحمام الرجال، وآخر لاستحمام النساء. ثم سافر إلى مدينة غرناطة Granada قاعدة الأندلس وعروس مدنها. كان سلطانها ـ أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل ابن يوسف بن نصر ـ مصابا بوعكة صحية، فلم يلقه الرحالة ولم يره شخصيا، ولكن والدته الحرة الصالحة الفاضلة بعثت إليه بدنانير ذهب ارتفق بها.

ولقي بغرناطة جملة من فضلائها مثل قاضي الجماعة أبي القاسم محمد بن أحمد الحسيني السبتي، وفقيهها المدرس الخطيب العالم أبي عبد الله محمد بن ابراهيم البياني، وعالمها ومقرئها الخطيب أبي سعيد فرج بن قاسم بن لب. ولقي أيضا قاضي الجماعة بألمرية Almaria أبا البركات محمد بن ابراهيم السلمي، اجتمع به في بستان الفقيه أبي القاسم محمد بن أبي عبد الله ابن عاصم، وأقام معه هناك يومين وليلة مع جماعة. قال ابن جزي : كنت معهم في ذلك البستان، ومتعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها، واستفدنا منه الفوائد العجيبة. قال ابن بطوطة : وكان معنا في البستان جملة من وجوه أهل غرناطة منهم الشاعر المجيد أبو جعفر أحمد بن رضوان الجذامي الذي كان أمره عجيبا : فقد نشأ بالبادية، ولم يطلب العلم، ولا مارس الطلبة، ومع ذلك نبغ بالشعر الجيد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء مثل قوله : (رمل) :

يا من اختار فؤادي منزلا
بابه العين التي ترمقه
فتح الباب سهادي بعدكم
فابعثوا طيفكم يغلقه

وأخيرا قفل الرحالة راجعا، وسلك نفس الطريق تقريبا، فوصل إلى جبل الفتح، ومنه ركب نفس المركب الأصيلي الذي ركب فيه أولا. ثم وصل إلى سبتة، فأصيلة التي أقام بها شهورا، ثم سافر إلى مدينة سلا فمراكش ثم سلا أيضا فمكناسة ففاس العاصمة.

الرحلة إلى السودان

وفي فاس ودع الرحالة العظيم عاهل المغرب أبا عنان، وتوجه برسم السفر إلى بلاد السودان الغربي، فذهب أولا إلى مدينة سجلماسة المغربية، ونزل فيها عند الفقيه

أبي محمد البشرى، وهو الذي كان لقي أخاه في مدينة قنجنفو Kien Chang Fu من بلاد الصين، ويتخذ المؤلف الانكليزي E.W. Bovill (تـ 1966) من هذا الحدث دليلا قاطعا على سعة رقعة الإسلام، وعلى أن الرحالة المسلم يجد الترحيب وإكرام الضيف أينما ذهب، حتى في المدن والقرى الإسلامية المنعزلة المنبثة في الأقطار التي يسود فيها الكفر[1].

واستعدادا للرحلة الطويلةتي استغرقت خمسة وسبعين ألف ميل انكليزي (113.175 كليومتر) اشترى أبو عبد الله ابن بطوطة جمالا علفها في سجلماسة خلال أربعة أشهر. ثم في غرة محرم الحرام 753 (1352.2.18) انطلقت الرحلة في رفقة يتقدمها أبو محمد يَنْدِكَان السوفى، ويوجد ضمنها تجار من سجلماسة وغيرهم.

في تغازى Taghaza : وبعد خمسة وعشرين يوما وصلت القافلة إلى تغازى الذي يقول عنها ابن بطوطة إنها قرية لا يسكنها إلا عبيد مسوفة Mesufa، ولا خير فيها ومن عجائبها أن بناء دورها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الإبل. ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها نحتت نحتا ووضعت تحت الأرض يحمل منها الجمل لوحين، ويباع الحمل في إيوالاتن Walata بـ 8 ـ 10 مثاقيل من الذهب، وفي مدينة مالي يباع بـ 20 ـ 30 مثقالا، وربما انتهى إلى أربعين مثقالا[2].

وبعد مرور ما يقرب من قرنين ونصف قرن من هذا التاريخ، نشب نزاع بين المغرب وسلطان كاغو Gao إسحاق بن داود آل سكية، وأساسه أن الملك السعدي مولاي أحمد المنصور طالب بإعادة تخصيص مثقال عن كل حمل يؤخذ من الملاحة استنادا إلى حق اكتسب من قبل، ووفق القانون الشرعي وفتاوي العلماء الأعلام التي نصت على النظر في المعادن إنما هو للإمام، وليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا بإذنه أو إذن نائبه، وبعث الإمام المنصور بالفتاوي الشرعية للسلطة المحلية، ولكن إسحاق آل سكية تلكا وما طل ولم يستجب، مما دعا إلى غزو إسحاق في عقر داره، وفض المشكل.

أقامت القافلة في تغازى عشرة أيام، ثم غادرتها إلى تاسرهلا Tasarahla وهي عبارة عن أحساء ماء تنزل عليها القوافل للاستراحة، ولبعث التكشيف Takshif[3] إلى الأصحاب والمعارف في إيوالاتن ليكتروا لهم دورا للسكنى ويخرجوا للقائهم، فإذا هلك التكشيف في الصحراء أو لم يعلم به أهل إيوالاتن، هلكت القافلة أو هلك معظم أفرادها، ومن شأن التكشيف أن يكون كثير التردد على الصحراء، خبيرا بها، وأن يكون فطنا ذكي الفواد.

ظاهرات طبيعية : عجب ابن بطوطة لظاهرات طبيعية نبرز أهمها فيما يلي :

أ ـ أن التكشيف الذي اكترته القافلة بمائة مثقال من الذهب، كان أعور العين الواحدة، مريض الثانية، وكان أعرف الناس بالطريق، وفي اليوم السابع من ذهابه، رأت القافلة نيران الذين قدموا للقائها فاستبشرت بذلك خيرا.

ب ـ أن هذه الصحراء كانت مشرقة ينشرح لها الصدر، وآمنة من السراق وقطاع الطرق، وكان يكثر بها بقر الوحش الذي يقرب من المارة حتى ليمكن اصطياده

1) الاستخارة : فكان يتطهر ويصلي ركعتين وينام على الطهارة طالبا من الله أن يختار له من الأمر ما يوافقه. وفي المنام يرى ما يوجهه الوجهة الصحيحة المطلوبة، إن سلبا أو إيجابا.

2) الرؤيا الصادقة : كتلك التي رآها في الأسكندرية، فأوحت إليه بفكرة الجولان في بلدان العالم الإسلامي، والقيام بهذه الرحلة العالمية المنقطعة النظير.

3) استفتاح المصحف : كان السلطان الهندي جمال الدين الهنوري يريد غزو (سندابور)، وأخبره أبو عبد الله بأنه يريد الجهاد فقال له : أنت إذن تكون أمير الحملة، ولكن حينما أنبأه بأنه استفتح المصحف فوجد في أول الصفحة قوله تعالى : ﴿يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره﴾ حينئذ قرر السلطان أن يقود الحملة فركب وأركب معه ابن بطوطة، وهوجمت سندابور وتحقق النصر من عند الله.

بالكلاب والنشاب، ولكن أغلبهم كانوا يتحامونه ولا يصطادونه لأن لحمه ـ فيما يعتقدون ـ يولد أكثره العطش.

جـ ـ أن بقر الوحش يختزن الماء في كرشه. وقد رأى عبد الله أهل مسوفة يعرصون كروش بقر الوحش ويشربون ماءها.

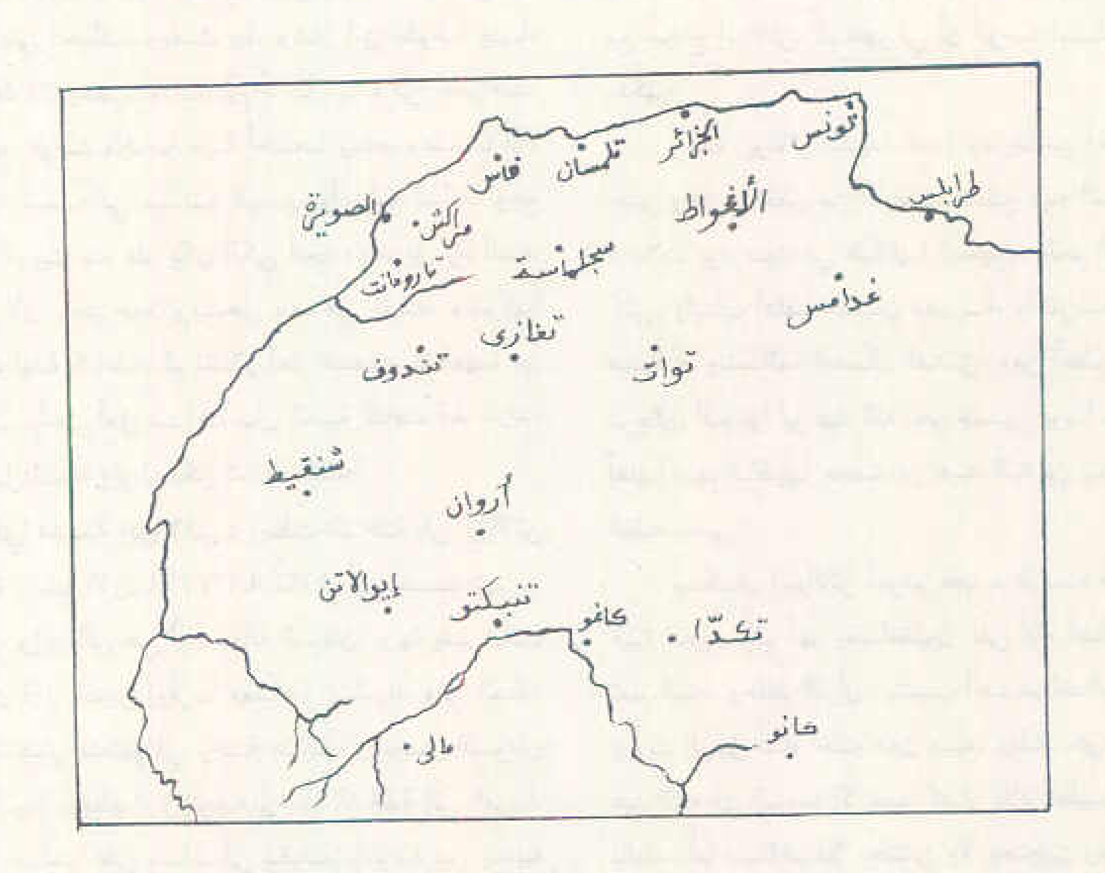
د ـ تكثر الحيات بهذه الصحراء كما يكثر بقر الوحش. وكان من عادة الرفيق (الحاج زيان التلمساني) أن يقبض على الحيات، ويعبث بها، وكان ابن بطوطة ينهاه عن ذلك فلا ينتهي. وذات يوم أدخل يده في جحر ضب ليخرجه، فوجد مكانه حية أخذها بيده. وعندما أراد الركوب، لسعته في سبابته اليمنى، وأصابه لذلك وجع شديد. كويت يده فلم يكن الكي أنجع دواء، بل زاد ألمه، فاضطر لأن ينحر جملا ويدخل يده في كرشه، ويتركها كذلك ليلة كاملة. ثم تناثر لحم أصبعه، فقطعها من الأصل... وأخبر أهل مسوفة بأن الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه، ولو لم تكن شربت لقتلته.

في مدينة إيوالاتن : وصلت القافلة إلى إيوالاتن في غرة ربيع الأول 753 (1352.4.17) أي بعد شهرين كاملين، وإيوالاتن هي أول عمالة السودان، وبها يقيم نائب السلطان فَرْبَا حسين (وفَرْبا معناها النائب). وفي العادة يضع التجار أمتعتهم في رحبة هناك، ويتكفل السودان (جمع أسود) بحفظها، ويتوجه رجال القافلة إلى الفربا. وجدوه جالسا على بساط في سقيف، وأعوانه بين يديه والرماح والقسي في أيديهم، وكبراء مسوفة من ورائه، ووقف بين يديه تجار القافلة وهو يكلمهم بترجمان رغم قربهم منه، وذلك احتقار منه لهم، يقول أبو عبد الله : «فعتد ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم، واحتقارهم للأبيض، وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من أهل سلا، كنت كتبت له كي يكتري لي دارا، ففعل ذلك مشكورا».

وأراد مشرف المدينة المدعو عندهم منشاكو Mandingo أن يكرم من بالقافلة فاستدعاهم لحضور مأدبة أقامها لهم، كان ابن بطوطة امتنع عن حضور المأدبة، ولكن الأصحاب ألحوا عليه حتى توجه معهم، أتي بالضيافة فكانت عبارة عن جريش الذرة الصغيرة مخلوطا بيسير عسل ولبن وضعوه في نصف قرعة صيروه شبه الجفنة، فشرب الحاضرون وانصرفوا. قال أبو عبد الله لرفاقه : «ألهذا دعانا الأسود ؟» قالو : «نعم، وهو الضيافة الكبيرة عندهم». قال : «حينئذ أيقنت أن لا خير يرتجى منهم. وأردت أن أسافر مع حجاج إيوالاتن، ثم ظهر لي أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم».

وبلدة إيوالاتن شديدة الحر، وماؤها من أحساء (جمع حسى وهو منخفض من الأرض يستنقع فيه الماء)، وبها نخيلات يزدرعون في ظلالها البطيخ. ولحم الضأن فيها كثير. وثياب أهلها حسان مصرية، وأكثر سكانها من مسوفة، ولنسائها الجمال الفائق، وهن أعظم شانا من الرجال، أقام بها أبو عبد الله نحو خمسين يوما وقد أكرمه أهلها منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر، وأخوه الفقيه يحيى.

وسكان إيوالاتن أمرهم عجيب غريب، فرجالهم لا غيرة لديهم رغم أنهم يحافظون على أداء الصلوات وعلى تعلم الفقه، وحفظ القرآن، ينتسب أحدهم لخاله لا لأبيه. ويرث الرجل أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيء لم يره أبو عبد الله في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار Malabar بالهند، أما نساؤهم فلا يحتشمن ولا يحتجبن رغم مواظبتهن على الصلوات، ومن أرادت التزوج منهن تزوجت، ولكنها لا تسافر مع الزوج، ولو أرادت إحداهن أن تسافر معه لمنعها أهلها. وللنساء أصحاب من الرجال الأجانب، وللرجال كذلك صواحب أجنبيات، ويدخل أحدهم فيجد امرأته مع صاحبها فلا ينكر ذلك. ذات مرة دخل أبو عبد الله ابن بطوطة على قاضي إيوالاتن فوجد عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن، فلما رآها مع صاحبها أراد النكوص على عقبيه فضحكت المرأة ولم تخجل. وقال له القاضي : لم ترجع ؟ إنها صاحبتي ! فعجب أبو عبد الله من شأنهما،



مراكز تجارية ببلدان المغرب العربي والسودان الغربي

وشأن القاضي خاصة فقد كان من الفقهاء الحجاج، ثم عرف أبو عبد الله أن هذا القاضي استاذن السلطان في الحج هذا العام مع صاحبته - ولم يدر أهي هذه أم غيرها - فلم يأذن له السلطان.

وفي حادثة مماثلة دخل ابن بطوطة على أبي محمد يندكان المسوفي - وهو الرجل الذي قدم في صحبته من سجلماسة - فوجده قاعدا على بساط، وفي وسط الدار سرير مظلل عليه امرأة ومعها رجل قاعد يحادثها، سأل أبو عبد الله رب الدار قائلا : ما هذه المرأة ؟ أجاب : هي زوجتي، فسأل ثانية : وما الرجل الذي معها ؟ قال : هو صاحبها ! فقال أبو عبد الله : أترضى بهذا وأنت سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟ أجاب الرجل : مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وأحسن طريقة، لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم... قال ابن بطوطة : فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه، فلم أعد إليه بعدها، واستدعاني مرات فلم أجبه.

مرحى، مرحى، أبا عبد الله ! لقد غيرت المنكر بلسانك، وليس ذلك أضعف الإيمان.

تجاه مدينة مالي : غادر ابن بطوطة مدينة إيوالاتن، قاصدا مدينة مالي Mali وبين الاثنتين مسيرة أربعة وعشرين يوما للمجد في السير. وهذه المرة لم يحتج أبو عبد الله إلى رفقة، لأن الطريق آمن بل احتاج فقط هو وأصحابه الثلاثة إلى اكتراء دليل من مسوفة ليدلهم على الطريق، وبعد مسيرة عشرة أيام وصلوا إلى قرية زاغري Zaghari وتعرف أيضا باسم Dyaga وتقع إلى جنوب غربي بحيرة Debo على نهر النيجر الذي يحسب ابن بطوطة وسائر القدماء أنه نهر النيلَ، ثم قصد الركب العاصمة مالي. وفي العادة يمنع الناس من دخولها إلا بإذن خاص، ولكن أبا عبد الله لم يطلب منه إذن، ولم يمنع من دخولها، ربما لأنه كان كتب لكبير جماعة البيضان (جمع أبيض) محمد بن الفقيه الجزولي ليكترى له دارا. وهكذا دخل ابن بطوطة مدينة مالي يوم 14 جمادى الثانية 753 (1352.7.28). ثم قصد دار الجزولي فوجده اكترى له دارا إزاء داره هو، فتوجه إليها، وجاءته الضيافات من مختلف الشخصيات التي قامت بحقه أتم قيام. شكر الله حسن أفعالهم.

وبعد عشرة أيام من وصولهم إلى مالي، أكلوا عصيدة تصنع من شيء يشبه القلقاس يسمى القافي، وهذه العصيدة عندهم مفضلة على سائر الطعام، فأصبحوا جميعا مرضى وكانوا ستة، فمات أحدهم، وذهب أبو عبد الله لصلاة الصبح فغشي عليه فيها، وطلب من أحد المصريين دواء مسهلا، فأتى بشيء يسمى بيدر - وهو عروق نبات - وخلطه بالأنيسون والسكر، ولته بالماء، فشربه وتقيأ ما أكله مع صفراء كثيرة. وعافاه الله من الهلاك، ولكنه مرض شهرين.

كان سلطان مالي في هذا الوقت هو منسى سليمان (ومنسى Mansa معناها السلطان)، لم يتمكن الرحالة ابن بطوطة من رؤيته أول الأمر بسبب المرض الذي ألم به بسبب العصيدة، ثم صنع السلطان وليمة إكرام للمغفور له الملك أبي الحسن المريني، واستدعى لها الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب وحضر معهم أبو عبد الله بعد إبلاله من مرضه. ختم القرآن في الوليمة، ودعى للمغفور له الملك الراحل، ودعى للسلطان منسى سليمان، بعد ذلك تقدم أبو عبد الله للسلام على السلطان، وقام القاضي والخطيب والجزولي بإعلامه بحاله، فأجابهم بلسانهم، وقالوا له : يقول لك السلطان أشكر الله ! فقال أبو عبد الله : الحمد لله والشكر على كل حال، ثم بعث السلطان للرحالة ضيافة حقيرة مضحكة تنم عن أنه لم يكن يتمتع بالكرم والاريحية ولا بالشعبية.

وبعد هذا التاريخ بشهرين أي في أوائل شهر رمضان المعظم 753 صار أبو عبد الله يتردد على المشور، ويسلم على السلطان، ويقعد مع القاضي والخطيب، وذات يوم قال له الترجمان دغا : تكلم مع السلطان وأنا أترجم عنك بما يجب. فقام أبو عبد الله وقال له : إني سافرت إلى بلاد الدنيا، ولقيت ملوكها. ولي ببلادي أربعة أشهر، ولم

تضيفني ولا أعطيتني شيئـا، فمـاذا أقـول عنـك عنـد السـلاطين ؟ فأجاب : إني لم أرك ولا علمت بك، فقـام القـاضي وابن الفقيـه الجـزولي فردا عليـه قـائلين : إنـه سلم عليك، وبعثت إليه الطعام... عندئذ أمر للرحالة بـدار ينزل فيهـا وبنفقـة تجري عليـه، وفي ليلـة سبـع وعشرين من رمضان، فرق السـلطان على القاضي والخطيب والفقهاء مـالا يسمونـه الزكـاة، وأعطى أبـا عبـد اللـه معهم ثلاثـة وثـلاثين مثقالا وثلث المثقال، وأحسن إليه عنـد سفره بمـائـة مثقـال ذهبا.

ومنسى سليمـان ورث العرش عن عمـه منسى مغـان Maghan الـذي حكم أربع سنوات كـادت تكون وبـالا على البلاد، فنتيجة للتهتك وعدم الأهليـة أوشكت ثروات البلاد على الضياع، وأغار حاكم فولتا العليا (بوركينـا فـاصو الآن) على تنبـوكتـو، وهـزم حـاميـة المشرف Mandingo، وأحرق المدينـة في نفس الـوقت الـذي كـانت وصلت فيـه سفـارة العـاهـل المغربي أبي الحسن المريني. وغير خـاف أن التجارة مع المغرب كانت تهم كثيرا جماعة المشرفين.

ومنسى مغان هذا ورث العرش عن أبيـه Mansa Musa الـذي كـان (عكس حفيـده) يتصف بـالكرم ويتمتع بشعبيـه كبيرة. ومن دلائل كرمـه أنـه في يوم واحـد أعطى الشـاعر الغرناطي أبا إسحاق الساحلي أربعـة آلاف مثقـال، وفي يوم آخر أعطى مدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقـال، وكـان جـد منسى موسى هـذا، أسلم على يـد جـد مـدرك هـذا.... وفي عهد صبا منسى موسى أحسن إليـه رجل من تلمسـان يـدعى ابن شيخ اللبن فـأعطـاه سبعـة مثـاقيـل وثلث مثقـال. ولمـا تعرف عليه السلطان قربه وأجلسه معه ثم قـال للأمراء : مـا جزاء من فعل فعلـه هـذا من الخير ؟ قـالوا : الحسنـة بعشر أمثالها، أعطه سبعين مثقالا، فأعطاه سبعمائة مثقال، وكسـوة وعبيدا وخدما، وأمره أن لا يقطع عنه زيارته.

نحـو تنبكتـو وكـاغـو : وفي يـوم 22 محرم 754 (1353.2.27) غادر ابن بطوطة مدينـة مـالي، وكـان يركب جملا لا فرسا، لأن الخيل غالية الثمن يسـاوي الواحـد منهـا مـائـة مثقـال، ولكن الجمل مـات في الطريق عنـد إحـدى القرى فـأكلـه السـودان (جمع أسـود) على عـادتهم في أكـل الجيف. حينئـذ بعث غـلامين كـان استـأجرهمـا لخـدمتـه ليشتريا لـه جملا من بلـد يبعـد مسيرة يومين. وفي إقـامـة أبي عبد الله بهذه القرية، رأى فيما يرى النائم كأن إنسـانـا يقول له : «محمد ابن بطوطـة، لمـاذا لا يقرأ سورة يس في كل يوم. قال أبو عبد الله : «فمن يومئـذ مـا تركت قراءتهـا كـل يـوم. في سفر أو في حضر». وبعـد سبعـة الأيـام التي أقامها بالقرية، قدم الغلامان بالجمل الذي اشترياه.

واصل أبو عبـد اللـه ورفـاقـه سيرهم حتى وصلوا إلى مـدينـة تنبكتـو التي بينهـا وبين نهر النيجر أربعـة أميـال. وبهذه البلدة قبر الشاعر الغرناطي أبي إسحاق السـاحلي، ثم وصـل أبـو عبـد اللـه إلى بلـد لم يـذكر اسمـه، أميره (فربمـا سليمان) حاج فاضل مشهور بالشجاعة والشـدة، لا يتعـاطى أحد النزع في قوسـه، لم ير ابن بطوطة أطول منه ولا أضخم جسما ولا أفضل منه ولا أكرم. دخل عليه غلام خماسي فقال للرحالة : هـذا ضيـافتـك، واحفظـه ليلا يفر. ولم يفر الغلام بل بقي مع الرحالة حتى تحرير كتابه (تحفة النظار).

ثم وصل أبو عبد الله إلى مدينة كاغو Gao التي سماها هـو «كـوكـو» وهي مـدينـة كبيرة على نهر النيجر، من أكبر مـدن السودان وأحسنهـا وأخصبهـا، وهي التي غـزاهـا قـائـد الجيش السعدي الباشا جوذر، يتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع Conories مثل أهل مالي، أقام ابن بطوطـة في هـذه المـدينـة نحـو شهر، وأضـافـه فيهـا محمـد بن عمر من أهـل مكنـاسـة، والحـاج محمـد الوجـدي التـازي. والفقيـه محمـد الفيلالي إمام مسجد البيضان (جمع أبيض).

في مـدينـة تكـدا Takedda : والتسميـة آتيـة من لغـة الطوارق : Teguidda وتعنى الينبوع : Spring، وصـل إليهـا أبو عبد الله مع قـافلـة كبيرة للغـدامسيين[4]، وكـان دليلهـا ومقدامهـا الحـاج وجين (أي الـذئب بلغـة السودان). وكـان لأبي عبد اللـه جمل لركوبـه، ونـاقـة لحمل الأثقـال، ولكن

الناقة لم تلبث أن وقعت، فأخذ الحاج وجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حمله. وكان في الرفقة مغربي من أهل تادلى يدعى على أغيول، فأبى أن يرفع من ذلك شيئا إسوة بالآخرين، وليس هذا فحسب، بل عطش غلام للرحالة فطلب منه الماء ليسقيه، فلم يسمح بذلك.

ووصلت القافلة إلى تكدا، وديارها مبنية بالحجارة الحمر، وماؤها يجرى على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك. ولا زرع بها إلا يسيرا من القمح ياكله التجار والغرباء، نزل أبو عبد الله في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولي، وأضافه بها قاضي المدينة أبو ابراهيم إسحاق الجاناتي وهو من الأفاضل، كما أضافه جعفر بن محمد المسوفي. ولا شغل لأهل تكدا إلا التجارة، يسافرون إلى مصر كل عام، ويجلبون منها حسان الثياب وسواها. ولأهلها رفاهية وسعة حال، ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم مثل أهل مالي وإيوالاتن، ولا يبيعون المعلمات من الخدم إلا نادرا وبالثمن الغالي.

وأراد أبو عبد الله أن يشتري خادما معلمة فلم يجدها، ولكن القاضي أبا ابراهيم بعث إليه بخادم لبعض أصحابه، فاشتراها بخمسة وعشرين مثقالا، ولكن مالكها ندم ورغب في الإقالة. فقال له أبو عبد الله : إن دللتني على سواها أقلتك. فدله على خادم للمغربي التادلي الذي أبى أن يسقى خادم أبي عبد الله أو أن يعاون في حمل بعض ثقله، فاشتراها وكانت خيرا من الأولى. ثم ندم البائع على أغيول وأراد إقالته. ولكن أبا عبد الله أبى إلا أن يجاز به على سوء فعله، وكاد أغيول أن يجن أو يهلك أسفا. وأخيرا أشفق عليه الرحالة العظيم فأقاله.

الأمر بالرجوع : وإلى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي حاملا أمر العاهل أبي عنان لأبي عبد الله ابن بطوطة كي يرجع إلى العاصمة فاس. قال أبو عبد الله : «فقبلت الأمر وامتثلته على الفور، واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث المثقال. وقصدت السفر إلى فوات Tuat، ورفعت زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات، إنما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالأثواب».

خرج الرحالة العظيم من تكدا يوم الخميس حادى عشر شعبان سنة أربع وخمسين وسبعمائة (1353.9.12) في رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء، وقاضي تكدا الفقيه محمد بن عبد الله، وفي الرفقة نحو ستمائة خادم. وأخيرا وصلت القافلة إلى سجلماسة في أوسط ذي القعدة 754 (1353.12.12). ثم خرج أبو عبد الله من سجلماسة في ثاني ذي الحجة 754 (1353.12.29) وكان الطريق صعبا، والبرد شديدا، والثلج غزيرا لدرجة أن أبا عبد الله رأى الطرق الصعبة والثلج الكثير في بخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك ولم ير أصعب من طريق أم جنيبة، ثم وصل إلى دار الطمع ليلة عيد الأضحى، وهناك قضى يوم عيد الأضحى، ثم خرج فوصل إلى حضرة أمير المومنين فقبل يده الكريمة، وتيمن بمشاهدة وجهه المبارك، وأقام في كنف إحسانه بعد طول الرحلة.

تحرير الرحلة : قال ابن بطوطة : «وهنا انتهت الرحلة المسماة (تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار) وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة (1355.12.9) والحمد لله وسلام على عباه الذين اصطفى». ثم كتب أبو عبد الله ابن جزي قائلا : «انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد ابن بطوطة أكرمه الله، ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال : رحال الملة لم يبعد... فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى لأن وفقه لاستيطان هذه الحضرة التي اختارها هذا الشيخ بعد رحله خمسة وعشرين عاما».

ونستخلص من هذا عدة نتائج أهمها :

1 - أن كاتب الرحلة ومسجل أحداثها هو الرحالة نفسه، فقد قيد بقلمه كل ما رآه وسبرغوره، ومارسه، وليس من رأى كمن سمع. ولا ينبئك مثل خبير.

2 ـ أن أبا عبد الله ابن جزي ذا الخط الحسن والأسلوب الجميل قام بتلخيص ما قيده وأملاه عليه ابن بطوطة امتثالا لأمر السلطان أبي عنان. وشمل ذلك الرحلة المشرقية الكبرى وحدها، واستغرق من الوقت نحو السنتين.

3 ـ أن ابن جزي لم يؤلف الرحلة، ولا وضع لها الاسم كما يزعم البعض. ونعتقد أنه كان يتحلى بالأمانة والدقة إذ كان ينسب الشيء إلى نفسه ويشير إلى ذلك بصريح العبارة : «قال ابن جزي»، وذلك أعز ما يطلب من كاتب أمين دقيق.

أسلوب الرحلة

هو أسلوب رائع ومشوق وحديث، تقرؤه فكأنك تقرأ تقريرا صحفيا حديثا في جريدة سيارة ذات شهرة عالمية، أسلوب يمتاز بسهولة العبارة، ووضوح الفكرة، ودقة الملاحظة، وقوة الحجة، كما يتسم بتخير اللفظ الحسن، والتركيب الجميل، ويهتم بحسن الأداء، ويتوخى التحرر من قيود السجع والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية التي كانت تكبل النثر في عصور الانحطاط الأدبي.

ثلاثة علماء ـ أدباء سبقوا عصرهم فصاروا كأنهم عاشوا بين ظهرانينا في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، وثلاثتهم من غرس يد عاهل المغرب السلطان أبي عنان المريني : فيلسوف التاريخ، عالم الاجتماع أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون، والرحالة العالمي ابن بطوطة الطنجي اللواتي، وابن جزي الكلبي الغرناطي الشاعر الناثر.

فثالث الثلاثة سلك مسلك معاصره ابن الخطيب، فهو في الشعر فارس الميدان، وفي سجع الكتاب والمقدمة والرسالة بطل الشجعان، أما الأول والثاني فحادا عن السجع المثقل، وتبنيا النثر المرسل، وإن لم يتخليا عن سجع المقدمة والعنوان لأنه كان «موضة» العصر يصعب التخلص منها ولو إلى حين، فعنوان تاريخ ابن خلدون : (كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر). ومقدمته طويلة النفس، متعددة التقفية : أما رحلة ابن بطوطة فعنوانها : (تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار)، بينما مقدمتها القصيرة المدى المتعددة التقفية، جاءت أشبه ما تكون بموشح لطيف منسجم النغمات.

وختاما أشير إلى التقصير المزدوج الذي حصل بعد ممات هذا الرحالة العالمي الذي نال ما استحقه من تعظيم وتكريم أثناء حياته.

1 ـ فمثلا بلدية مسقط رأسه، والجماعات الأدبية ـ الثقافية، والهيآت الرسمية، لم تقم لحد الآن بواجب التكريم الحقيقي.

2 ـ والباحثون والدارسون وطلاب الجامعات أهملوا هذه المعلمة الخالدة وتاجها الباهر أقبح إهمال، وكأنهم متأثرون بدعاية أعداء المغرب بأن ابن بطوطة لا يعدو أن يكون مغربيا بربريا نصف متعلم. كبرت كلمة تخرج من أفواههم !

فالرجاء تدارك ما فات، وبذل مزيد من العناية الأدبية والمادية التي يستحقها هذا البطل العالمي الخالد : شمس الدين (أو شرف الدين) أبو عبد الله محمد ابن بطوطة اللواتي الطنجي.

د. عبد الله العمراني

الشعر والشعراء بالمغرب الأقصى

عبر العصور

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

«الضلاعة في علم العروض ليست شرطا في قرض الشعر لأن غاية نظم الشعر صفة كمالية والقدرة على نظمه طبيعة غريزية وإنما يحتاج لعلم العروض ليعرف المتزن من النظم من غيره فسيدي إدريس العراقي من العلماء المحققين كانت له اليد الطولى في العروض ومع ذلك لم يعرف له بيت شعر وكان لا يقدر أن يلفق سطرا واحدا منه».[1]

فنظم الشعر موهبة والإبداع في نسج مناويله عبقرية تؤذن بحساسية متناهية وشاعرية خلاقة وكثير من فنون البيان وصنوف البديع لم يعرفه الخزرجيون ولا شراح كتب العروض كفن (المدرج) الذي لم يذكره سوى علماء الحديث.

ومع ذلك فالشعر فن له قواعده لاسيما الموزون منه لأن الشعر الحر أو المرسل لايدخل في نطاق بحثنا هذا ـ وقد كانت مكاتب شعرائنا منذ العصور الأولى مليئة بالمصنفات التي استهدفت تقعيد هذا الفن منها المشرقي أو الأندلسي أو المغربي أمثال :

ـ (البديع في صناعة الشعر «لبيزيغ 488) ليحيى بن عبد المعطى بن عبد النور الزواوي المتوفى (عام 628 هـ/1231م).

ـ (وصل القوادم بالخوافي، في ذكر أحكام القوافي) لابن رشيد السبتي وهو شرح لقوافي شيخه حازم القرطاجني.

ـ (الوافي في نظم القوافي المنسوب لصالح بن شريف الرندي (684 هـ/1285م).[2]

ـ (ضبط البحور الشعرية) المنسوبة لأحمد بن عباد السايح.[3]

● ولعل مما امتاز به المغرب في هذا المجال عدم تحرج العلماء من نظم الشعر كما وقع للإمام الشافعي القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

---

1) افتتحنا كتابنا هذا بهذه الديباجة لأبي المواهب سيدي العربي بن السائح في رسالته (إفادات وإنشادات) وهي نسخة مخطوطة مصورة في مكتبتي الخاصة عن مخطوط الخزانة العامة بالرباط (خع) ص 12.

2) توجد منه نسخة في (خع 1013 د) وأخريان في خم 7095 ـ 7698.

3) السلوة ج 2 ص 39 (توجد نسخة بمكتبة تطوان (رقم 225).

● ومع ذلك فله شعر كثير امتاز بالرقة والعمق.

وقد اختار شعراء المغرب مجالات لتفريغ مواهبهم الملتهبة لاتقل سعة عن شبكة اختيار شعراء الشرق وإن كان للمغرب شعر خاص يضم (رجزيات) في نظم قواعد وأحكام كثير من العلوم ولعل هذا العامل أثرا في توافر الشعراء والعلماء.

ولم يعرف المغرب ما عرفته الأندلس - عدا عطاءات الأمراء والملوك - من رباع قد وقفت على الشعر والشعراء فقد حبس ابن الملح في شلب Silves أرضا من جملة ماله على الشعراء بلغت غلتها السنوية مائة دينار[4] لذلك كان معظم رجالات شلب شعراء.

وقد حفل المغرب عبر عصوره الزاهرة برجالات قاموا بحفظ وتدوين ورواية أشعار العرب في جنبات العالم العربي كافة منهم :

- محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي الشاذلي الذي انفرد بعلم اللغة وحفظ دواوين العرب وقد توفي عام 1103 هـ/1691م).[5]

- علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران السلاسي قاضي فاس ومفتيها والمحدث المولود (اعم 960 هـ/1552م) الذي يكاد يحفظ (اكتفاء) الكلاعي ساردا عن ظهر قلب القصائد المطولات التي توجد فيه.[6]

ومن أعلام الأندلس الذين أسهموا في دعم علمي الدراية والرواية بالمغرب محمد بن عبد الله بن قيس ابن الغازي القرطبي الذي توفي بطنجة (عام 296 هـ/908م) وهو الذي «أدخل الأندلس والمغرب علما كثيرا من الشعر والغريب والخبر وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلها»[7] ومن النساء ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمي حفيدة الشيخ ماء العينين التي ولدت عام 1307 هـ/1889م وكانت راوية للشعر مشاركة في العلوم.

وقد كان للشعر العربي وجهابذته أثر عميق في الفكر المغربي معا فتق عبقرية وشاعرية رواده الذين خاضوا غمار مناظرات شيقة عرفها أقطاب القريض، ويكفي أن نشير هنا إلى ما أبدعته يراعة عالم مغربي في هذا المجال وهو علي بن أحمد مصباح الخمسي اليصلوتي (المتوفى عام 1125 هـ/1713م)[8]

وقد تردد على الساحة المغربية نتاج الفكر العربي في كل مجاليه ومحاوره فعرف المغرب صنوفه من هجاء ورثاء ومديح وتغزل وتشبيب ووصف للطبيعة ومآثر الدول المتعاقبة على المغرب وغير ذلك مما رسمنا بعض ألوانه في تراجم شعرائنا ضمن هذا الكتاب.

وكان الشاعر العربي والمغربي يشعران ويعبران عن وحدة الصف والفكر والهدف في الوطن العربي ويتغنيان بأمجاده ولنستمع إلى البحتري يقول معرضا بطنجة والسوس :

إن شعري سار في كل بلد
واشتهى رقته كل أحد

أهل فرغانة قد غنوا به
وقرى السوس وألطا وسدد

وقرى طنجة والسوس التي
بمغيب الشمس شعري قد ورد[9]

وقد اهتم شعراؤنا بل وكل علمائنا وان لم يكونوا شعراء كعلي بن أبي الحسين بن مومن بن محمد ابن عصفور

---

4) المعجب لعبد الواحد المراكشي - طبعة سلا 1357 هـ/1938 ص 128) وقد تراوحت قيمة الدينار بين 3 و4 غرامات من الذهب.
5) الإعلام للمراكشي ج : 4 ص : 367، الطبعة الأولى.
6) راجع علي بن عبد الرحمن.
7) تاريخ ابن الفرضي ج 1 ص 323 / بغية الوعاة ص 58، العبر : للذهبي ج 3 ص 181.
8) صاحب أنس السمير في نوادر الفرزدق وجرير) (توجد نسخة من هذه المخطوطة القيمة في خزانة القرويين (خق 635/80 (188 ورقة) وفي خع (300 ك) (339 ورقة) والمكتبة الملكية (خم 1932 - 7297) والمكتبة الصبيحية بسلا (رقم 283) (200 ورقة).
9) معجم البلدان ج 6 ص 365.

الذي عرفنا جولاته وصولاته في مراكش وآنفا والذي توفي بتونس (عام 669 هـ/1270م) وقد حلل لنا (سرقات الشعراء) وكذلك (الضرائر الشعرية)[10] علاوة على إسهامه في بلورة عطاءات المتنبي الذي أفرد ديوانه بشرح قيم.

☆☆☆

وبرز شعراؤنا في التوشيح على نسق الأندلس فرسموا روائع بذوا فيها أحيانا ينابيع الاقتباس وممن نظم من المتأخرين على طريقة توشيح إبراهيم بن سهل الأندلسي (المتوفى عام 659 هـ/1260م) علي بن أحمد زنيبر السلاوي (المتوفى عام 1320 هـ/1902م) في رسالته : «درر عقد النصيحة بسلك الإبريز بنحور جنة حبور مولاي عبد العزيز».[11]

ومن مظاهر استكمال شعرائنا لأبواب القريض نماذج أشرنا إليها في صلب بحثنا وقد كان الشاعر الإفراني يفتخر بأنه أشعر الشعراء (كما في الدرر المرصعة) حيث قال :

أنـــــا أشعر الشعراء غير مــــــدافــــع
من قـــــال لست بشـــــاعر يـــــاتيني
فكري هــــــو البحر الخضم شبيهـــــــه
والبحر حـــــاوي الجـــوهر المكنـــون[12]

وقد جمع ابن الأحمر اسماعيل بن يوسف ما قيل من شعر من لــــدن كتــــاب بني مرين في (سيف منــــار القرويين).[13]

أما المديح فقد شمل دررا غراء في مدح الرسول بالإضافة إلى مدح الملوك.

ونلاحظ أن مديح بعض الأمراء انصب خاصة على بعض مآثرهم كتنويه علماء وشعراء أفذاذ وهم عبد الواحد الونشريسي ويحيى السراج وعلي بن هرون بالسلطان أحمد الوطاسي بمناسبة تجديد بناء قنطرة الرصيف بفاس.[14]

كما مدح شعراء آخرون السلطان محمد ابن عبد الرحمن العلوي من خلال الإشادة بالمطبعة الحجرية التي أنشأها بفاس منها قصيدة مطلعها :

ســــألت النـــدى والجـــود أين حللتمـــا
وأين مقر المجـــــــــــــد والأثرات[15]

وقد حرص علماؤنا على تجميع هذه الأنظام الرائعة في دواوين مثل (الأمداح الحسنية) (السلطان الحسن الأول) التي جمعها عالم من سوس حين كان الحسن الأول خليفة بالجنوب (عام 1282 هـ/1865م)[16]

وقد أشاد الشعراء في مدائحهم النبوية بشمائل الرسول عليه السلام أو بفضائل سرد أحاديثه او التمسك بسنته وكان الملوك يهتمون منذ العهد السعدي أوائل القرن العاشر الهجري بإقامة حفلات لإنشاد البردة والهمزية و(بانت سعاد) بمناسبة حلول شهر ربيع الأول فكان المنصور السعدي - كما ورد في (المنتقى المقصور في مآثر خلافة المنصور) لابن القاضي - (الباب الرابع) يستدعي الناس أيام المولد النبوي على ترتيبهم فيقرأ بعض القراء شيئا من كلام الولي الصالح محمد بن عباد ثم الميلاديات بألحان ذكية وإنشاد مقطعات الشعر.

وقد دشن السلطان سيدي محمد بن عبد الله إتمام جامع السنة بالرباط فأقام حفلا كبيرا حضره المادحون فكان التلحين مناوبة بين أهل فاس وأهل تطاوين ووزع بالمناسبة الأعطيات على الفقهاء والطلبة والمجاهدين[17] وفي عام 1290 هـ/1873م أقام السلطان الحسن الأول حفلة بمناسبة عيد الفطر بالرباط ختم خلالها صحيح الإمام البخاري على العادة الجارية وسردت خلالها نيف وخمسون قصيدة أجاز عنها كل الشعراء.

---

10) ذكر كتاب الضرائر هذا عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب.
11) توجد نسخة بالخزانة الأحمدية السودية بفاس ضمن مجموع (80 بيتا).
12) الإعلام للمراكش ج 5 ص 6 5 - الطبعة الأولى.
13) في كتابه (نثير الجمان من أهل المائة الثامنة من الفرسان) (دار الكتب المصرية عدد 3791/1963 وتوجد نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط - طبع في بيروت بدار الثقافة عام 1967.
14) الاستقصا ج 2 ص 178.
15) نسخة مخطوطة في خع 115 د.
16) نسخة بخزانة العلامة المختار السوسي.
17) كتاب النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية لعبد الرحمن بن زيدان.

وقد نظم علماء المغرب والأندلس قصائد في التوسل بالرسول عليه السلام كانوا يوجهونها إلى القبر الشريف ومن هذه القصائد «قصيدة» لابن مرزوق محمد بن محمد (خع 2417 د).

ومن النماذج المصنفة في الموضوع :

1) كتاب (غنيمة العبد المنيب في التوسل بصلاة النبي الحبيب) لمحمد بن محمد بناصر الدرعي (1085 هـ/1674م)[18] وهو مرتب على حروف المعجم لكل حرف خمس وثلاثون فقرة.

2) (القصائد المغربية في مدح خير البرية) لأحمد ابن محمد المقري التلمساني الفاسي صاحب (نفح الطيب).

3) (مجموعة قصائد على حروف المعجم) في الموضوع لأبي سالم العياشي (من 700 بيت) وقد أشار أبو سالم في رحلته[19] إلى أمداح نبوية لشعراء مغاربة[20].

وأشار باشا السودان علي بن عبد القادر الشرقي المغربي (الذي كان مرفقا بمحمد بابا السوداني ومحمد بن عبد العزيز الدرعي وأحمد بن محمد السوداني) في رحلته إلى بعث رسالة سلطانية وتلاوة قصيدة أمام الروضة النبوية كما كان الأمر بالأندلس وفي عهد المرابطين.[21]

وقد جادت قرائح شعراء المغرب بقصائد في مناسبات وطنية كالإشادة بتحرير العرائش وهي أنظام ألهبت قرائح المواطنين وحدتهم إلى مواصلة النضال لإجلاء العدو المغير عن (جيوب الساحل) في العهد الإسماعيلي.

ومن هذه القصائد قول عبد الواحد البوعناني :

ألا أبشر فهــــذا الفتــــح نــــور

قــــد انتظمت بعــــزمكم الأمــــور[22]

وقصيدة لعبد السلام جسوس يعرض بوجوب تحرير سبتة قائلا :

رفعت منــــازل سبتــــة أقوالهــــا

تشكــو إليكم بالــذي قــدهــا لهــا[23]

وثالثة للشيخ عبد السلام القادري مطلعها :

عــلا عرش دين اللــــه كــل العرائش

وهــــد بنصر اللــــه قصر العرائش[24]

ورابعة لمحمد بن علي الراقعي التطواني استهلها بهذا الهتاف :

هنيئــــا هنيئــــا وبشرى لنــــا

بنصر سعيــــد وفتــــح مبين[25]

ولعمر الحراق :

ومن عجب تروم الروم حربــــا

بســــهل أو حــــزون أو جبــــال

وقــد شهــدوا العرائش يــوم جــاءت

بهــا الأجنــاد تــزحف للقتــال[26]

☆☆☆

وقد حفلت دواوين الشعر بمناظرات ومساجلات شعرية حول مدن وحواضر كمدينة فاس[27] كما حوت سجلات زاخرة بألوان معرفية تحيد أحيانا عن مستهدفات القريض كنظم رحلة حجازية[28] وأراجيز في الطب (كأرجوزة ابن طفيل في 700 بيت) و(الياقوتة الفريدة في نظم العقيدة) لأحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي

---

18) نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس (3848م) /خم 7520/ باريز 6230/ القاهرة 334، I.

19) ج 1، ص 6 ـ 9 ـ 12 ـ 310.

20) جمعت في مخطوطة توجد بخزانة الأستاذ محمد المنوني. راجع في (الأنيس المطرب للعلمي) : (القصائد العشرة في الشوق للبقاع المطهرة) وهي مرتبة على حروف المعجم (راجع مجموعة منها في (ركب الحج المغربي) لمحمد المنوني ص 44.

21) راجع ملخص الرحلة في الأعلام للمراكشي ج 4 ص 273 الطبعة الأولى.

22) (نزهة الحادي ج 4 ص 35 و 262).

23) نفس المصدر ج 4 ص 36.

24) نشر المثاني ج 2 ص 140.

25) تاريخ تطوان لمحمد داود ج 2 ص 12.

26) (الدر المنتخب لابن الحاج ـ الباب التاسع).

27) (الإعلام للمراكشي ج 7 ص 95 ـ 106 ـ الطبعة الأولى).

28) لمحمد بن سعيد بن محمد الرعيني السراج الفاسي (778 هـ/1376م) (الجذوة ص 147/ السلوة، ج 3 ص 278) وله أيضا رسالة في (الوعظ و الشعر).

(1175 هـ/1761م) و(الحملـة الشعريـة في بعض الأمثلـة النحويـة (وهـو نظم لـلأجروميـة في أكثر من 100 بيت لأحمد بن صالح).

ومن هذا القبيل قصائد لا تخلو من فائدة تاريخية كديوان عبـد الكريم بن محمـد بن عبـد الكريم القيسي (836 هـ/1481م) وهو مفقود يعطينـا صورة عن حـالـة المسلمين بالأندلس قبل النفي العام بسنوات وقد سجل الناظم أحداث سقوط آخر مدن وحصون الأندلس.

ومن الملاحم الشعرية ما أشار إليه ابن خلدون[29] في الحدثان حول دولة لمتونة واستيلائهم على المغرب وكذلك (نظم الدرر بآي أحمد أجل البشر) لأبي الحسن الرهوني وهو من الشعراء العلماء في منتصف القرن السابع الهجري يضم رجـزه هـذا 6.300 بيت نظمت بطلب من الخليفـة المرتضى الموحدي (665 هـ/1266م).

وقد انبثقت من ثنايا هذه المجموعات الشعرية نفثات نسائية كتعريضات الجارية المظلومة التي نشأت بالمغرب وأهداها يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد فرمى بها في النهر بسبب تعريضاتها به.[30]

وقد عني المغاربة بما نظمه الشلحيون من قصائد عربيـة أو بربريـة أسهموا بهـا في إثراء الفكر الإسلامي والشلحة هي اللهجة البربرية للأطلس الصغير وهم الشلوح (وفيهم عرب من آل البيت لا يعرفون العربية) تقابلها في الأطلسين الكبير والأوسط والريف تامازيغت.

ومن برز في الشلحة.

الشـاعر جـامـع بن محمـد بن علي إيغيل (1387 هـ/1966م)[31] من قرية (توزونين) في (أقا).

- حمو قيس : لـه قصيدة في المديح النبوي (خم 9356).

- حم المازغي البربري : له نظم بالشلحة في التوسل بسيدي أحمد وموسى (ثلاث نسخ مصورة في خع 1321 د).

- علي الدرقاوي والد الأستاذ محمد المختار السوسي (1328 هـ/1910م) نظم (الحكم العطائية) بالشلحة يقرأها أصحابه كل صباح بعد مجلس الذكر ولكنه لم يستوف كامل الحكم.[32]

وقد نظم علي الهوزالي[33] شعرا بالتركية يمدح به بعض العجم وهو أحد كتاب الإنشاء بباب ولي العهد السعدي عبد الله المامون بالحضرة الفاسية رحل في القسطنطينية مع القائد أحمد بن يحيى الهوزالي.[34]

ومن أغرب اهتمامات علمائنا بما ينثر عنا خارج المغرب باللغات شعرا ونثرا قيام العلامة محمد بن علي دينية الرباطي (1358 هـ/1938م) بتجميع وطبع أربعين قصيدة اسبانية وعربية لبعض المستشرقين من الاسبان.[35]

الرموز :

خع : (الخزانة العامة بالرباط).

خح : (الخزانة الحسنية) وكانت تعرف بالخزانة الملكية (خم).

خق : (خزانة القرويين).

---

29) المقدمة م 1 ص 602 (طبعة بيروت / معجم البلدان ج 4 ص 27.

30) (نفح الطيب) ج 2 ص 454 - طبعة مصر.

31) (المعسول ج 16 ص 261).

32) المعسول - محمد المختار السوسي ج1 ص 184.

33) من هوزالة (أوزال) بسوس.

34) روضة الآس للمقري - المطبعة الملكية بالرباط ص 90.

35) طبعت في تطوان في 144 ص.

المراجع

لقد ألحقنا بكل ترجمة خلاصة المظان التي استقينا منها وهي تشكل رصيدا ثريا أحلنا عليه القارئ الكريم ليقتبس منه المزيد من الإنتاج الشعري المغربي ونود الآن الإشارة إلى مراجع أفردت لوصف هذا التراث وقد سقناها على سبيل المثال لا الحصر منها (حسب الترتيب الأبجدي) :

- (نثير الجمان في نظم فحول الزمان من أهل المائة الثامنة من فرسان الكتيبة الكامنة) (الفصل الثاني في شعراء الأندلس والمغرب) لأبي الوليد بن الأحمر.

- (شعراء أهل البيت) : ديوان جمع فيه السلطان المنصور السعيد شعراء أهل البيت أتى فيه على أزيد من ألف ترجمة مع شعره هو (كشف الظنون ج 1 ص 400) وأشار الشهاب في (الخبايا) إلى هذا الديوان وذكر الزياني أنه وقف عليه إلا أنه لم يستوف الألف شاعر من أهل البيت.

- (الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب) لعبد القادر بن عبد الرحمن السلاوي الفاسي ألفه عام 1176 هـ/1762م) (يحتوي على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة في غرائب الشعر وفنونه وحكاياته) (خم 925 / التيمورية 335 تاريخ 473 ص/ دار الكتب المصرية (4854 أدب) مكتبة الشاذلي النيفر بتونس / دار الكتب الوطنية بتونس ق.275 - س. 25./مكتبة حسن حسني عبد الوهاب 18429) (السلوة ج 2 ص 186) / (فواصل الجمان) - محمد غريط ص 199).

- كناشة عبد العزيز الغرديس.

أورد فيها أشعارا وتراجم مغربية (خع 1081 ك).

- كناشة لعب الواحد بن محمد بن عقيرة المكناسي (1317 هـ/1899م) جمع فيها أشعار أدباء القرن الثالث عشر (خع 159 د/157 د).

- (المطرب من أشعار أهل المغرب) - تحقيق د. مصطفى عوض لعمر بن الحسن ابن دحية السبتي (633 هـ/1264م).

- (الأدب العربي في المغرب الأقصى) لمحمد بن العباس القباج (1399 هـ/1979م) طبع في مجلدين عام 1929 وتجدد طبعه أخيرا.

- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة).

لابن الأبار محمد بن الله القضاعي (658 هـ/1259م) نسبة بروكلمان غلطا لابن الخطيب.

- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة) لمحمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماني (776 هـ/1374م).

طبع ببيروت عام 1963 كاملا وطبع طرف من أوله بمطبعة يمني بفاس عام 1327 هـ/1909م.

توجد نسخ في خزانة القرويين (خق د 132/ المكتبة الوطنية بتونس (408م) / ثلاث نسخ في خم (6117/756/559) / مكتبة الكلاوي (خع) / مكتبة تطوان (192) الزاوية الحمزاوية 128 - 141).

- (قصائد مختارة لأدباء العصر) لمحمد بن علي بن محمد بن أحمد الرافعي التطواني (كان حيا عام 1116 هـ/1698م).

تاريخ تطوان ج 1 ص 372 - 390/ ج 2 ص 12 - 30).

(وهو صاحب ديوان الشعر الحاوي لثلاثة آلاف بيت مرتب على حروف المعجم).

- (الروض الأريض من بديع التوشيح ومنتقى القريض) (ديوان شعر) لمحمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد ابن زاكور الفاسي (1120 هـ/1708م) صاحب (عنوان

النفاسة في شرح ديوان الحماسة (يوجد النصف الأول منه في الزاوية الحمزاوية 110 ـ 164).

ـ كناشة لمحمد بن محمد بن الحاج بن سودة (1122 هـ/1710م) تحتوي على مختارات أدبية لشعراء من معاصريه كمحمد بن محمد ابن غازي (خع 163 د).

ـ (إفادات وأشعار لخالد بن محمد الهادي العمري الطنجي) بقلم محمد بن محمد بن يحيى الطنجي (خم 2847).

ـ (الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة) لابن هاني محمد اللخمي السبتي (733 هـ/1332م).

ـ (نبذة الزهريات) لمحمد بن يحيى الصقلي نزيل الدار البيضاء (جمع فيه مساجلات غرامية مع بعض الشعراء) ـ مطبعة العرب بتونس 1342 هـ/1924 (21 ص).

ـ (الشعر النسوي في الأندلس) لمحمد المنتصر الريسوني ـ بيروت ـ دار مكتبة الحياة 1978 (192 ص).

ـ (شعراء موريطانيا القدماء والمحدثون) لمحمد بن يوسف مقلد / الطبعة الأولى ـ الدار البيضاء ـ مكتبة الوحدة العربية 1961 (752 هـ).

ـ (رايات المبرزين وغايات المميزين) في شعراء الأندلس والمغرب / مكتبة الأزهر (أدب 642 (7224).

طبع بمدريد عام 1942م/1361 هـ مع الترجمة الاسبانية وهنالك عشرات المراجع والمظان تتحفنا بنبذ رائعة من شعر فحول القريض قد نستجلي بعض مختاراتها في جزء لاحق من كتابنا هذا بحول الله.

الرباط : عبد العزيز بنعبد الله

فمن لك أن تحكيه في القول والفعل

أيا حاسدا عبدَ العزيز وَحَاكيًا
لـه منزعًا قـد سـار فيـه على أَصْلِ

فهبـك تحـاكِيـه بِعَبْـدٍ وَبَغْلَـةٍ
فَمَنْ لَكَ أن تحكيه في القول والفعل ؟

المغرب لا سعيد 292/2

أول جمعية وطنية سرية بالمغرب

للأستاذ محمد الفاسي

بدأت الحركة الوطنية المغربية بمحاربة البدع والخرافات والرجوع إلى صفات الإسلام ومبادئه السامية مما يدعى بالحركة السلفية[1] التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني رحمه الله وتلميذه المصلح الكبير الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا رحمهما الله وتزعمها بالمغرب الشيخ السلفي أبو شعيب الدكالي وشيخنا محمد بن العربي العلوي وكان من أنصاره شيخنا عبد السلام السرغيني الذي ألقى محاضرة طبعت بفاس وكنا ونحن تلاميذه نقوم بتوزيعها ونتحمس لما تدعو إليه من محاربة الطرق الضالة لأننا كنا نرى في بعضها تثبيطا للهمم وقبول الوضع الاستعماري بدعوى أن ذلك من قدر الله ولا ينبغي أن نثور عليه وهكذا استغل المستعمر هذه الوضعية المخالفة لعزة الإسلام وكرامته ولم تكن كل الطرق على هذه الشاكلة ولكن ذلك كان هو الجو السائد في هذه الأوساط وكان لها من جهة أخرى زعماء كانوا يستغلون بساطة الشعب وطيبوبته وإيمانه لنشر أفكارهم واكتساب الاتباع وكانت طرق أخرى تسيء إلى سمعة المغرب بما تقوم به من أعمال مشينة كافتراس الخرفان وهي حية وتشديخ الرؤوس بأنواع من الأسلحة البيضاء والكرات الحديدية التي يرسلونها بقوة إلى السماء ويتلقفونها برؤوسهم ودماؤهم تسيل على وجوههم وأبدانهم.

كل ذلك نعتبره زيادة على وحشيته مخالفا لكل مبادئ الإسلام الحنيفة وقواعده فكان أساتذتنا يندون بهذه الأعمال الشنيعة بروح وطنية صادقة فبثوا فينا هذه الروح وربونا عليها مبينين أن هذه الهمجية تمس بسمعة الإسلام ووطننا العزيز.

وفي العشرينات من هذا القرن قام البطل محمد ابن عبد الكريم الخطابي بثورته التحريرية الأولى من نوعها في البلاد المستعمرة لأنها لم تكن مجرد حركة وطنية تستند على المظاهرات وإلقاء الخطب التحميسية والكتابات في الصحف والمستندات والملصقات كما كان الشأن في الهند مثلا وكما سرنا عليه نحن في المغرب بعد ذلك في أول نشاطنا الوطني. أقول لكن محمد بن عبد الكريم عبأ بوسائل محدودة جيشا ليحارب بالسلاح المستعمر الإسباني ثم الفرنسي وحصل على انتصارات باهرة كانت موضوع اهتمام الرأي العام الدولي وكان حديث الناس في العالم بأسره.

وفي هذه الأثناء قام أحد الشبان الوطنيين الأولين وهو المرحوم عبد القادر التازي بتأسيس جمعية وطنية سرية تتركب من عدة خلايا صغيرة. لا يتعدى عدد كل واحدة منها ثلاثة شبان لا يعرفون أعضاء الخلايا الأخرى.

1) انظر مقالي عنها في دعوة الحق العدد 8 السنة الثانية ص : 43.



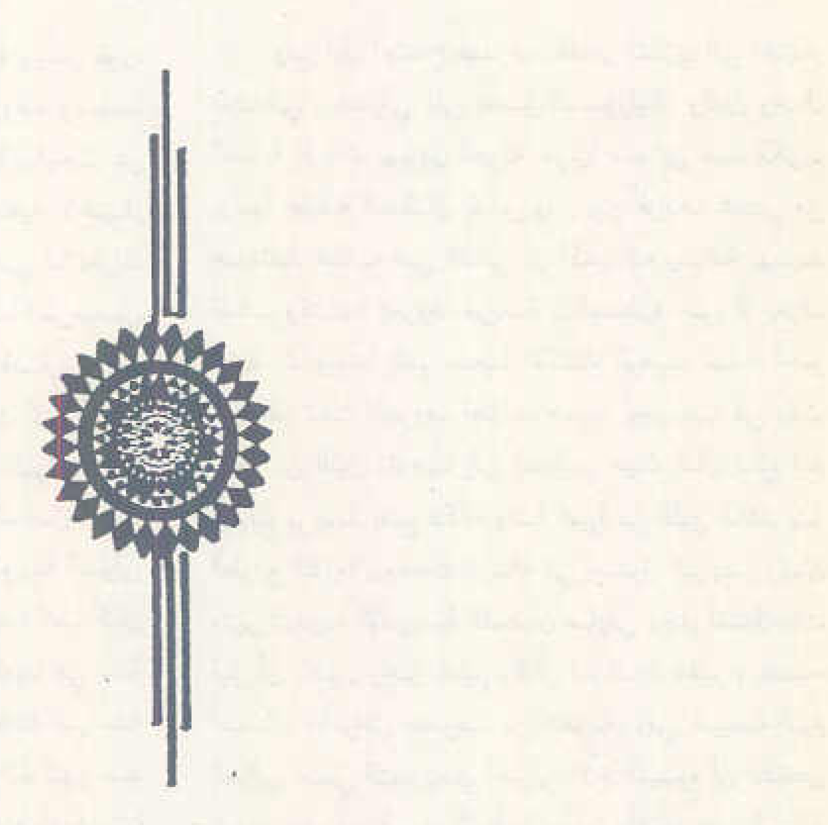
من اليمين المرحوم علال الفاسي، ومحمد عبد الكريم الخطابي، ومحمد اليزيدي (بوشعيب)، ومحمد الفاسي في القاهرة...

وكان يعتمد في اختيارهم على شاب يعرفه ويسبر غوره من حيث استعداداته الوطنية ثم يخبره بمشروعه وعندما يصبح عضوا في خلية يكلفه مؤسس الجمعية بالبحث عن عضوثان فيبحث ويقدم له الشخص الذي وقع عليه الاختيار فيكلف الاثنان بالبحث عن ثالث وقد رشحني للانخراط في هذه الجمعية السرية العضوان الأولان وهما المرحومان عبد الرحمان عبد الرحمان الميسوم والعربي قصاره وكان الأول مراقبا في ثانوية مولاي ادريس حيث كنت أدرس في السنة الخامسة أي سنة 1925 فكلمني في الموضوع كما كلمني العضو الثاني وكان موظفا في إدارة التسجيل بفاس وقد كان من رفاقي في المسيد ثم في ثانوية المولى ادريس ولكنه انقطع في السنين الأولى وتوظف كما كان يقع في الغالب حتى إنني كنت مع ثلاثين تلميذا في سنة 1920 عندما وصلت للثانوي وصرنا اثنين فقط في سنة الشهادة الثانوية أي سنة 1926 وهما المرحوم الدكتور عبد الملك فرج رحمه الله. وعبد ربه وهكذا تم انتظام خليتنا وكان عبد القادر التازي يشترط أن تكون اجتماعاتنا بعد نصف الليل وكنا نجتمع بمنزلي.

وفي أول اجتماع عمد عبد القادر التازي إلى اختبار شجاعتي ومقدرتي على تحمل المسؤولية. وكان رجال الحماية إذ ذاك يهيؤون لحركة حربية ضد ابن عبد الكريم يرأسها خليفة السلطان بفاس ومن بين أفرادها شخص من حومتنا. فطلب مني الثاني أن أكتب له رسالة تهديد فقبلت وكتبتها بحروف مربعة بالمسطرة حتى لا يعرف الخط. ثم وقعتها باسم جمعية الانتقام الرهيب بمداد أحمر تتقاطر تحت الحروف قطرات حمراء، وخرجنا في وقت مؤخر من الليل وتوجهنا إلى النخالين حيث كان بائع تبغ وطوابع بريدية يفتح دكانه وقتا كبيرا من الليل فاشترينا الطوابع اللازمة ووضعت الرسالة في صندوق البريد. وكان مدير المدرسة الإدريسية القبطان مارتي رجل استعلامات قبل أن يكون رجل تعليم وكان له نفوذ عظيم ويقصده أصحاب الأغراض خصوصا من الخونة، وفي صبيحة اليوم الموالي لعملي التهديدي أخبرني الأخ الميسوم أن الشخص المهدد جاء عند المدير القبطان مارتي وأطلعه على الرسالة وتشكى له فطمأنه ولكنه لم يستطع عمل شيء لأن الأسلوب الذي كتبت به الرسالة لا يمكن من معرفة كاتبها.

هذا وقد كنا نجتمع في النهار خارج المدينة في الحقول بعيدا عن السكان والمارة وكان في نيتنا الالتحاق بالبطل الريفي والمشاركة في الجهاد ولم يتم ذلك لصعوبة المحاولة، إلا أن عبد القادر التازي تمكن من الذهاب إلى الواجهة والالتقاء بمحمد بن عبد الكريم وكان في صحبته أحد إخوته وعضو من جمعيته فقامت قيامة الفرنسيين ووجهوا أحد عملائهم اسمه عبد العزيز الحلو عند ابن عبد الكريم وفاوضه في إرجاع الشبان الثلاثة والتازيان المذكوران ابنا النائب السلطاني بطنجة إذ ذاك. فلذلك عظم عليهم هذا الانحياز لعدوهم اللدود. أما ابن عبد الكريم فقد تكالبت عليه القوى الاستعمارية وتضافرت على القضاء على حربه التحريرية حتى إن طائرات أمريكية شاركت بجانب الفرنسيين في الحملة النهائية التي أسر أثناءها البطل المغربي الفذ ولقد تم تهريبه عند إرجاعه إلى فرانسا ووقوف باخرته ببور سعيد من مصر كما هو معلوم وذلك بتدبير من الله بمساعدة رفاقه من أعضاء مكتب المغرب العربي. رحم الله الجميع من التحقوا بالرفيق الأعلى وأطال الله عمر الباقين.

محمد الفاسي



دراسة التحف المعدنية في طراز الأشراف العلويين بالمغرب الأقصى :

الصّاع والمُدّ النّبوي العلوي

للدكتور عثمان عثمان إسماعيل

مدخل وتوطئة :

قمت في دراسات سابقة بكتابي تاريخ العمارة الأثرية والفنون الإسلامية بالمغرب الأقصى طرز الفن العربي الإسلامي بالمغرب إلى طرز أربعة أولها الطراز المغربي العربي القديم (طراز البربر) الذي قام على أسس وطنية سابقة على دخول الإسلام، يليه الطراز المغربي الإسلامي المبكر منذ صدر الإسلام وعصر الأشراف الأدارسة إلى بداية ظهور المرابطين، ويقوم على أسس إسلامية وعربية ووطنية إلى أن ظهر الطراز الثالث الذي نسميه الطراز المغربي الأندلسي[1] (ويسميه المتشرقون الأندلسي المغربي) ويغطي دول المرابطين والموحدين وبني مرين ويتميز بامتداده شرقاً بالمغرب العربي إلى ليبيا وشمالا بالأندلس ليطعم الفن بمؤثرات جديدة يستلهم وحيها من الشرق عن طريق الأغالبة بإفريقية، وفنون المغرب الأوسط، وعن طريق فنون المشرق المهاجرة مع الأمويين بالأندلس ليطبع أخيراً فنون العدوتين المغرب والأندلس بطابع متميز ترك آثاره الخالدة في فنون العدوتين إلى يومنا هذا كنتاج لعبقرية ومنجزات الفكر والعمل الإسلامي بالمغرب والأندلس منذ دخولها في وحدة سياسية وحضارية إسلامية ابتداء من تاريخ موقعة الزلاقة على عصر المرابطين إلى تاريخ سقوط مملكة غرناطة ونهاية حكم بني الأحمر.

وبظهور الأشراف السعديين ثم العلويين تتخذ الفنون وجهة أخرى ليظهر الطراز الرابع بالمغرب الأقصى ابتداء من القرن العاشر الهجري بسبب تغير الأوضاع السياسية والعسكرية، فبعد أن كانت الفنون تتخذ وجهتها نحو المشرق أصبحت مهتمة في المقام الأول بالتعبير عن المقاومة ورد الغزاة الطامعين من البرتغال والإسبان ثم الفرنسيين.

وقد بويع المولى محمد بن الشريف أول ملوك العلويين بسجلماسة سنة 1050 هـ[2] وهو من نسل السيد الحسن الداخل الذي انتقل من ينبوع النخل بشاطئ الحجاز إلى المغرب الأقصى منذ أواخر أيام الموحدين سنة 664 هـ ويرتفع نسبه إلى سيدنا الإمام علي وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ[3]. ولاشك أن نسب الدولة الشريف وعروبتها الأصيلة فرضت عليها مسؤوليات

1) كتابنا تاريخ شالة الإسلامية، المقدمة وتصدير الأستاذ الوزير المغربي محمد الفاسي رئيس الجامعة.

2) عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة : الحسن الثاني حياته وجهاده، الرباط 1969 ص 23.

3) عزيز سلام : ثلاثة قرون وعشر سنوات من تاريخ الدولة العلوية، ص. 19 وما يليها.

جلي وجعلت خيارها الرئيسي التمسك المتين بحبل الدين في المعاملات والعبادات، ولهذا كان الاهتمام في صنع الصاع والمد النبوي (مقياس الكيل) بسلسلة الإسناد المرتفعة إلى الصحابي الجليل سيدي زيد بن ثابت على النحو الذي نراه في دراسة عدد من التحف المعدنية من عصر الإشراف العلويين بالمغرب الأقصى..

تعريف المد : (قياس الصدقة) :

المد وحدة قياس من المعدن غالباً ما يأخذ شكل أسطوانة أو مخروط ينقص محيط فتحته عن محيط القاعدة، ويكون قدر سعته (حفنة اليدين المتوسطتين لا كبار ولا صغار وإنما المتوسطين) وهو المد النبوي. والمد مفرد وجمعه أمداد، والصاع أربعة أمداد.

وقد ظهر عام 1975 م بحث ودراسة موثقة بنصوص وصور وتحقيقات بقلم بول باسكون (Paul Pascon) في مجلة هسبريس تامودا أحد أهم منشورات كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط وأصلها مجلة الهسبريس التي كانت على عهد معهد الدروس العليا المراكشية، وتتناول الدراسة عدداً وافراً من الأمداد العلوية وأمدادا أخرى سابقة عليها[4].

ذكر بول باسكون في البحث المشار إليه أن عدد الأمداد المعروفة بالمتاحف المختلفة وقت نشر بحثه يزيد على الثلاثين وربما أربعين مداً.

وتتضح أهمية دراسة تلك الأمداد من كونها تحمل سلسلة إسناد ثابتة ومنقوشة في المعدن تسمح بصحة انتسابها وتتابعها التاريخي، كما أن نظام فهرستها سهل ميسور فجميعها تنتسب إلى مد زيد بن ثابت الصحابي الجليل كاتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ والمتوفى بالمدينة المنورة عام 45 هـ، وقد عدل مده في السنة الثانية للهجرة[5] في حياة الرسول ﷺ وربما على أساس مد عدله رسول الله ﷺ بنفسه.

وتشهد سلسلة الإسناد بدقة الرواية الإسلامية الدينية والتاريخية مما يجعلها مفتاحا للكشف عن حقائق تاريخية وحضارية لا مجال لحصرها الآن، ويكفي أنها تحمل تاريخ الصنع واسم الآمر بالصنع مع ألقابه بالإضافة إلى اسم الصانع وتاريخ الصنع لكل مد سابق على المد المذكور في سلسلة تاريخية تصل بنا إلى المصدر الأول والينبوع الأصلي.

وتفصح هذه الأشعار الواردة عن أبي العباس أحمد بن عاشر السلاوي المغربي عن الهدف الديني للأمداد[6].

فضائل ما حوى مد النبي
فلا يخفى على فهم الذكي
وذلك أن هذا المد أعني
به مد النبي الزمزمي
فأربعة به في الفطر تجزى
بحكم الشرع في نص جلي
وعن كفارة الأيمان عشرا
إذا أقمت به اللد العلى
فهذا مستفاد العلم منه
عظيم القدر مكيال النبي

ملاحظات على النصوص ومواقعها على البدن :

الملاحظ وجود بعض التفاوت في قراءة بعض الأسماء الواردة بالنصوص المنقوشة في المعدن لأسباب عدة، منها ثقافة الكاتبين، ومدى حذق الصانع النقاش، ثم طبيعة الاسم نفسه الذي يحتمل أكثر من قراءة بسبب اختلاف أوضاع النقط.

4) Paul Pascon : description des Mudd et SAᶜ Maghrebins, Hesp. Tamuda 1975, T. XVI P. 25/88 et 7 PL.

5) نفس المصدر ص 81.

6) نفس المصدر ص 37، وقد نقشت نفس أبيات على مد صنع للناصر بن عبد الكريم بن عبد الله بن الشيخ عام 1001 هـ وهو معدل على مد مفتي مراكش أبي محمد عبد الواحد ابن أحمد الشريف...، تراجع بقية السلسلة بنفس المصدر ص. 37.

على أن دراسة نقوش الأمداد الواردة بدراسة الأستاذ بول باسكون توضح مواقع النقوش العربية والنصوص وتوزيعها على البدن، فقد تتوزع على بدن المد في وضع دائري وقد تكون حلزونية الوضع أو تكون داخلة ضمن أربعة أقواس موزعة على أوجه البدن وقد تكون ضمن منطقة زخرفية متوسطة أو على هيئة أعمدة رأسية.

وهذه نماذج للصاع والأمداد العلوية :

1) وأول صاع ندرس هنا نصه وننشر صورته يرجع إلى عصر مولاي اسماعيل بن الشريف العلوي صنع بمكناسة الزيتون (عاصمة المملكة المغربية على عصر المولى اسماعيل) صنعه المعلم البوعناني عام 1050 هـ (1641/1640 م)، وهو صاع مخروطي الشكل على هيئة القمع يدور بحافته العليا شريط من الخط النسخي البسيط أسفله شريط آخر مزدوج الخط، ويدور بالبدن مناطق زخرفية محصورة بين أقواس متعددة الفصوص تشغل خمس مساحات، منها نصوص تأسيسية بالإسناد، وهي تتناوب مع خمس مساحات أخرى تشغلها زخرفة نباتية، وتبدو تقاليد الكتابة المغربية في وجود النقطة تحت الفاء، ووجود نقطة واحدة فوق القاف، وفتحة الصاع 13,7 سم وتبلغ سعته 3,750 لتراً، درسه بول باسكون بالبحث المذكور ص. 43.

2) مد مصنوع من البرونز خال من الزخرفة قطر فتحته 8,5 سم وسعته 0,8 لتراً وقد وضع النقش الكتابي على هيئة حلزونية بخط مغربي نسخي، ومن النقش ما نصه (... صنع تعديله مقابلة ووزنا بالمد المحبس على مدينة فاس المعروف بمد أمين القبابين الذي اتصل سند تعديله إلى مد زيد بن ثابت رضي الله عنه صنع في شهر رجب بتاريخ عام تسع وأربعين وألف)[7].

3) مد من النحاس وزعت حوله ستة أقواس تشتمل على النص الكتابي بخط مغربي رديء، الفتحة 8,4 سم والقاعدة 11 سم والارتفاع 9,5 سم والسعة 0,73 لتراً وعلى هذا المد العلوي نقش كتابي طويل منه (... حقق عليه هذه سنة أربع وثلاثين وسبع مائة وهذه سنة 1067 وصانعه المعلم الأديب الفقيه... عبد السلام جلو بن الغزاني...)[8].

4) مد نحاس مصنوع بفاس أواخر رمضان عام 1100 هـ، قطر الفتحة 8 سم والقاعدة 11,2 سم والارتفاع 10 سم والسعة 0,732 لتراً، وهو مد مخروطي الشكل[9] حول فتحته دائرة من النحاس الأصفر للتقوية وتحيط بالبدن ستة أقواس منفرجة ترتقي أكتافاً قصيرة سميكة وتغطي الزخارف النباتية المساحات المحصورة بين أكتاف الأقواس.

5) المد النبوي المبارك المعدل (1130 هـ) لمولانا أبي محمد عبد الله ابن أمير المؤمنين مولانا إسماعيل الحسني سنة 1130 هـ (1717 ـ 1718 م) حول قاعدته دائرة من معدن الفضة لتقويتها ومثبت إلى جانبه حلقة ذات عنصر نباتي (Palme d'acanthe) وتبدو بالزخارف تأثيرات فارسية، ويبلغ قطر الفتحة 9,1 سم والقاعدة 12 سم والسعة 0,761 لتراً[10].

كما عدل مد نبوي آخر باسم الأمير مولاي عبد الله بن السلطان مولاي اسماعيل العلوي (وهو عدله بمد أبي سعيد المرغش السوسي...)[11].

---

7) نفس المصدر ص 41 والنص منقول بأخطائه الأصلية ورقم المد بالبحث المذكور (G ABCA) ومصادر الدراسة ص 40 (متحف تلمسان 1905 ودراسة الفرد بل).

8) كان في ملكية عائلة أقصبي بفاس اشتراه القبطان G. Mellin سنة 1916 م وأعطى لمتحف البطحاء بفاس نفس العام ودرسه الفرد بل، ص 44.

9) نفس المصدر ص 49 ولوحة 4 أعلى وقد دخل متحف الوداية بالرباط برقم 41 سنة 1944 م درسه Marcel Vicaire بمجلة هسبريس 1944 وأعاد دراسته بول باسكون 1970م بصفحة 48.

10) كان في ملكية محمد بن الحاج محمد بناني خليفة المحتسب بفاس 1914 م، أعاد دراسته الفرد بل في :

Bulletin Archéologique, Paris 1917, p. 350.

وانظر ص 50 من دراسة باسكون.

11) نفس المصدر ص 53/52.

6) مد نبوي من تاريخ 18 جمادى الثاني 1167 هـ (12 أبريل 1754 م) محفوظ بمتحف البطحاء بفاس منذ سنة 1971 م تحت رقم 431382 ولم يسبق نشره قبل دراسة بول باسكون، حافة المد مقواة بحاشية إضافية وتحيط بالبدن أربعة أقواس دون زخارف. قطر الفتحة 9,2 سم والقاعدة 11,5 سم والارتفاع 11 سم، وتقدر السعة عن طريق الحساب 0,92 لترا.

ويدور النص الكتابي داخل شريط يحيط بالحافة العليا وكذلك داخل الأقواس بخطوط بسيطة للطراز المغربي مع ملاحظة زيادة فتحة حرف الميم كما تلاحظ رداءة الصنع والخط، وصانعه هو الحاج علي بن أحمد بن جلون.

7) ويرجع إلى العصر العلوي مد عدل على يد الفقيه عبد الله حمود الشيخ سنة 1177 هـ (1763/ 1764 م) يوجد بالمتحف الوطني للفنون الإفريقية والمحيطية بباريس منذ عام 1967 م درسه الأستاذ مصطفى الحبيب بمجلة هسبريس تامودا (ج 10 ص 263).

والمد مصنوع من النحاس الأصفر (Laiton) مقوى بشرائط مضافة إلى الحافة العليا والقاعدة، وعلى البدن أربعة أقواس بينها زخارف نباتية وزهرية، قطر الفتحة 8،9 سم والقاعدة 10،4 سم والارتفاع7، 10 سم والسعة 0،75 لترا، وحروف الكتابة بخطوط مزدوجة وطريقة تنقيط الفاء والقاف تتبع القاعدة المشرقية[12].

8) وهذا مثال لمد نبوي من العصر العلوي توجهت لدراسته دراسة تطبيقية بمتحف البطحاء بمدينة فاس حيث يوجد بالقاعة الثالثة تحت رقم 411319 منذ عام 1944 وقد نشر الأستاذ فكير دراسته بمجلة هسبريس تامودا[13] دون نشر نصه العربي ونقشه التأسيسي.

ونقدم الآن خلاصة دراسة هذا المد الذي اختتم نقشه التاريخي بعبارة (من صنعة مبارك الزيات في موفى عشرين من جمادى الآخير عام تسعة ومائتين وألف).

وهذا المد المؤرخ 1209 هـ مخروطي الشكل تضيق فتحته عن قاعدته وينقسم البدن رأسيا إلى ثلاثة أقسام أوسطها القسم الرئيسي، ارتفاع المد 7،7 سم ويشمل على ستة أقواس موزعة على البدن من النوع المتجاوز كامل الاستدارة ترتكز أرجلها على سوارٍ (أعمدة) ذات زخرفة هندسية مجدولة، وتحتضن الأقواس وحدات النص العربي التأسيسي بإسناده الكامل.

والقسم العلوي شريط يدور بحافة المد بارتفاع 3 سم ويتصل به خاتم من النحاس، وقوام زخرفة هذا الشريط خطوط متوازية رأسيه تعلو أخرى أفقيه تكون الخلفية الزخرفية لهذا الشريط وقد كتب فوقها بالخط النسخي (بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله)، أما القسم الثالث الأسفل فيبلغ ارتفاعه 0،9 سم وتدور به زخرفة مجدولة أفقية، وهكذا يبلغ ارتفاع المد في دراستنا المباشر11,6 سم بينما قدره في دراسة باسكون[14] 11،8 سم وهذه هي قراءة النقش التاريخي كما درستها وراجعتها على دراسة باسكون فيما بعد

9) والمثال الأخير صاع من العصر العلوي بتاريخ المحرم 1124 هـ قادني إليه محافظ متحف البطحاء بفاس لاطلاعي على (مد نبوي مصري) كتب على بطاقته (المد المصري)، وقد لفت نظري طراز الكتابة وأسلوب النص فأكدت له أن في الأمر لبس وأن (المد) مغربي وليس (مصريا) فبادر بإصلاح البطاقة.

وقد وجدنا بالبطاقة التقنية أن الأستاذ فيكير كان قد اشتراه من الرباط ورقمه بالمتحف 451442، وكالعادة تدور

12) نفس المصدر ص 57.

13) هسبريس تامودا جزء 13.

14) دراسة بول باسكون المذكورة في الهسبريس تامودا ص 61.

بالبدن ستة أقواس تشتمل على النصوص التاريخية والإسناد، والقسم الأول منها (... أمر بتعديل هذا الصاع النبوي المبارك... العلامة أبو عبد الله الهاشمي ابن مولانا محمد بالفتح بن مولانا عبد الله بن مولانا عبد الملك العلوي الحسني السجلماسي...).

وفي النص السادس (ابن أبي سعيد... الفاسي داراً ومنشأ في الخامس والعشرين من محرم الحرام فاتح عام 124...)[15].

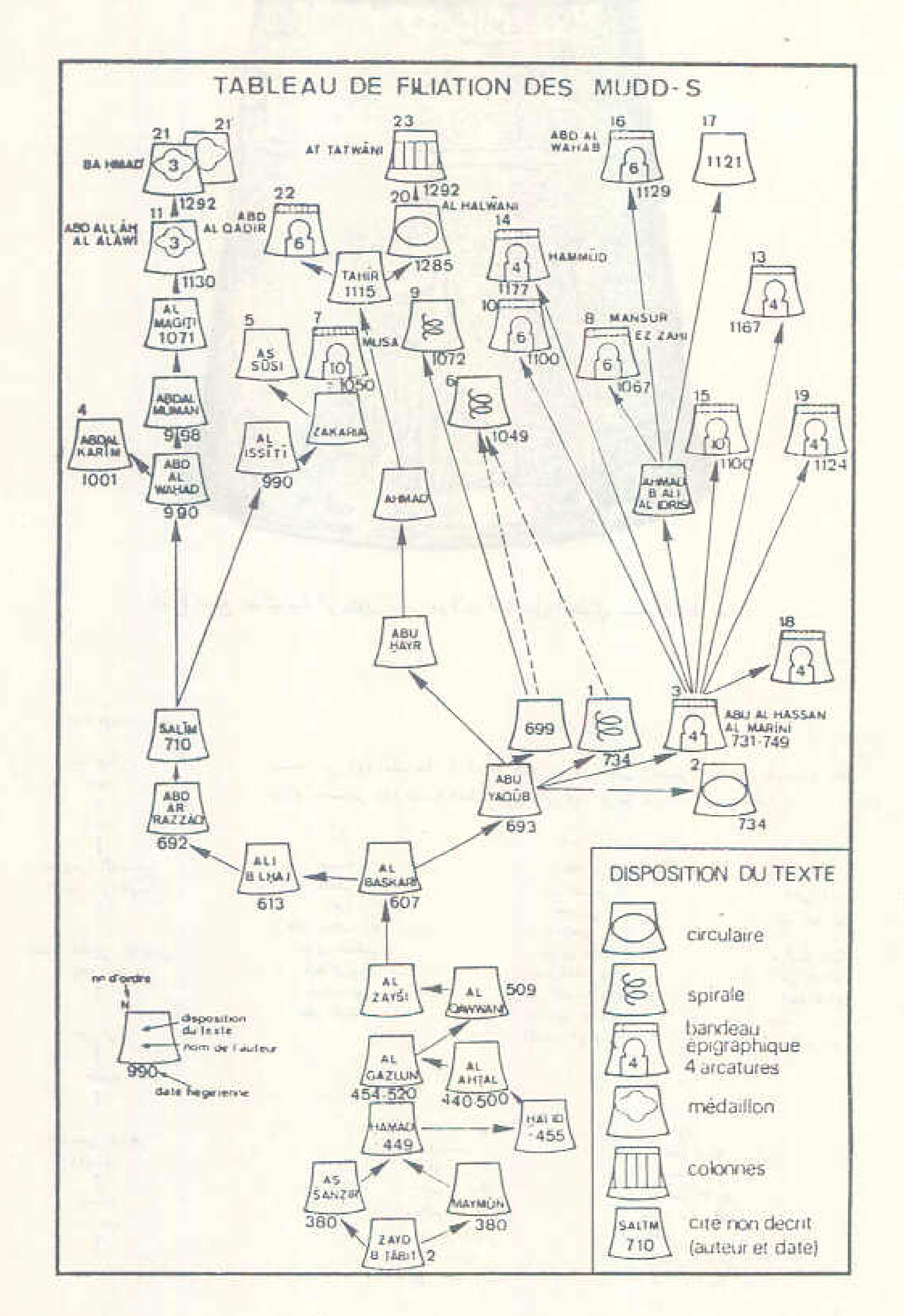
الرباط : عثمان عثمان اسماعيل



15) نفس المصدر ص 67.

N°	Code génétique	Décrit par / Cité par	Dates	Dépôt Musée n° ...	Date création	Capacité (litres)	Disposition du texte	Métal	Ordonnateur
1	ABC	Vicaire !	1914	Oudaya, Rabat Fès-Batha 411.317	Rağab 734 Fès	0,795	spirale	laiton	Abū al-Ḥasan al-Marīnī
2	ABE	Vicaire Kettani	1914 1927	Kettani ?	2 Ǧum. II 731 - Fès	0,796	circulaire	laiton	Abū al-Ḥasan al-Marīnī
3	ABA	Dessus-Lamare Pascon !	1929 1971	M.N.Antiquités Alger	731-749 Fès	0,733	bandeau 4 arcs	laiton	Abū al-Ḥasan al-Marīnī
4	A^{2}B	Kettani	1927		1001				En-Nāṣir ibn ʿAbd el-Karīm
5	A^{1}BA^2	Kettani	1927		après 990				Al-Ḥuḍaykī as-Sūsī
6	ABCA	Bel Wiet	1905 1932	M. de Tlemcen Le Caire, n° 75 ?	Raǧ. 1049	0,800	spirale	bronze	
7	?	El Habib	1969	M.N.A.A.Oc., Paris 1967-5.5	1050	3,750	2 bandeaux 10 arcs	cuivre laiton	
8	ABA^3	Bel Wiet	1907 1932	Musée Fès, 1916 Le Caire, n° 65 ?	1067	0,7?0	6 arcs	cuivre	Qā'id Manṣūr az-Zāhī
9	ABDA	Pascon !	1971	Pascon	Ǧum. I 1072 Marrakech	3,005	spirale	cuivre	Muḥammad b. Mūsa b. al-Ḥasan b. Yaʿzza
10	ABAD	Vicaire Pascon !	1914 1970	Oudaya, Rabat 471-490	Rm-L. 1100 Fès	0,732	bandeau 6 arcs	laiton	
11	A^8	Bel Wiet	1917 1932	Si Mhd b. Haj Mhd Bennani en 1914. Le Caire	1130	0,760	3 médaillons	cuivre argent	Mawlāy ʿAbd Allāh b. Ismāʿīl al-ʿAlāwī
12	A^{8*}	Kettani	1927	cf. 11 ?	1135 ?				Mawlāy ʿAbd Allāh b. Ismāʿīl al-ʿAlāwī
13	ABAF	Pascon	1971	Batha, Fès 431-382	18 Ǧum. II 1167	0,765	bandeau 4 arcs	laiton	
14	ABAG	El Habib	1969	M.N.A.A.Oc., Paris M.N.A.M. 1967.5.6	1177	0,750	4 arcs	laiton	
15	ABAC	Bel	1917	Kettani ?		2,750	bandeau 10 arcs	laiton	Sulṭān Sīdī Muḥammad...
16	ABA^3	Pascon Vicaire	1971 1914	1970. Oudaya, Rabat Batha, Fès, 411.319	20 Ǧum. II 1209	0,815	bandeau 6 arcs	laiton	Al-Murābiṭ al-ʿArbī b. ʿAbd al-Wahāb ad-Daʿāwunī
17	ABA^{2}B	Kettani	1927		1211 Fès				
18	ABAE	Vicaire	1914	Oudaya, Rabat n° 417 (1914) abs. en 1970		0,836	bandeau 4 arcs	laiton	
19	ABAE	Pascon	1971	Batha, Fès 451-442	25 muḥar. (1)124	3,004	bandeau 6 arcs	laiton	Abū ʿAbd Allāh S. Mḥ. al-Hāšmī al-ʿAlāwī
20	ABEA^1	Wiet	1932	M.N.A.A., Le Caire n° 81/3313	1285		circulaire		Aš-Šayḫ al-Ḥasan Ḥalwānī
21	A^9 (et A^{9*})	Pascon	1976	M. Oudaya 1967.2.1 Coll. Oustry	121.	0,812 0,780	3 médaillons	laiton	Ba Ḥmad
22	ABEA^{2}B	Pascon	1976	Coll. Thau	128[5]	0,710	6 arcatures	cuivre	Aš-Šayḫ ʿAbd al-Qādir
23	ABEA^4	Pascon	1975	Coll. Pascon	1292	[0,8] ?	8 colonnes	laiton	At-Ṭiṭwānī

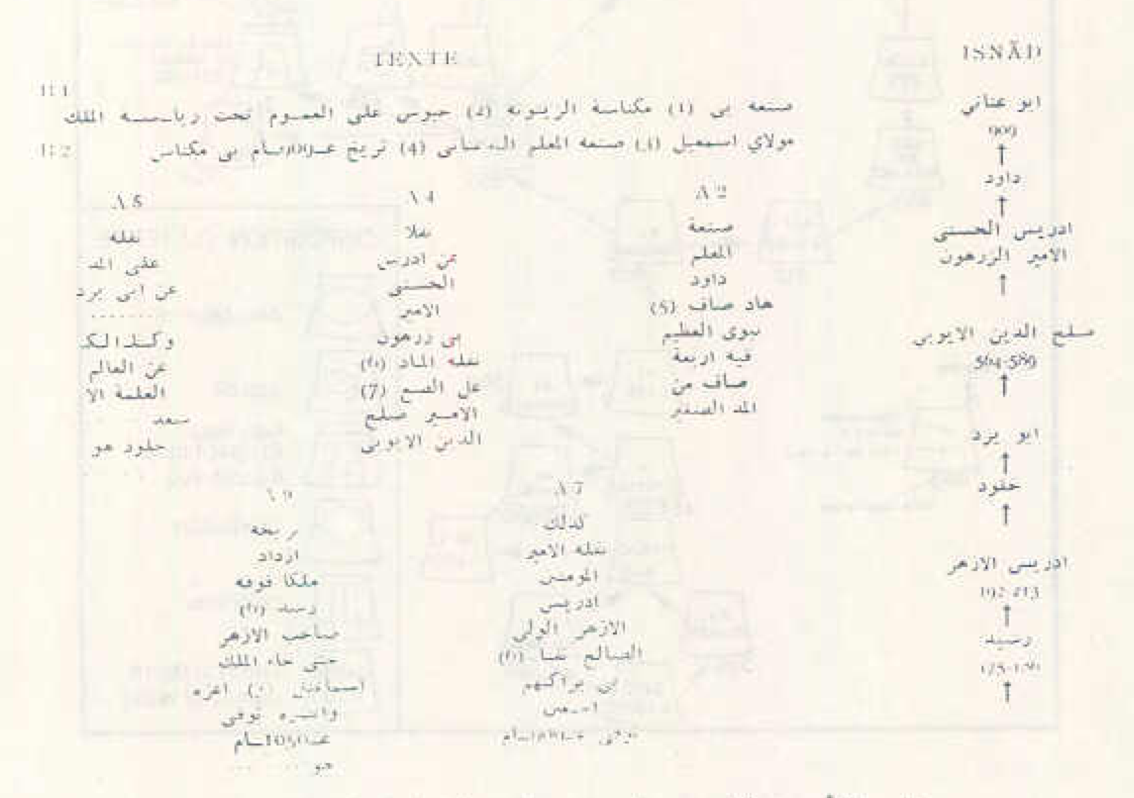
بيان النماذج التي درسها بول باسكون



لوحة توضح توزيع النص على بدن المد أو الصاع



صاع صنع بمكناسة الزيتون بأمر مولاي اسماعيل العلوي سنة 1050 هـ



النص التأسيسي التاريخي على بدن صاع مولاي اسماعيل 1050 هـ



10. ABAD

ألف، صورة مد نحاس أصفر صنع سنة 1100 هـ

TEXTE

HANDEAU

الحمد لله وحده صلى الله على مولانا محمد المصطفى الكريم وعلى آله

A 1

الله
الحمد وحده
امر بتعديل هذا
المد المبارك مولانا
امير المسلمين ابو
الحسن ابن مولانا
امير المسلمين ابى سعيد
ابن مولانا امير المسلمين
ابى يوسف ابن عبد الحق

A 2

ايده الله
وبقدره على المد الذي
امر بتعديله مولانا
ابو يعقوب رحمه الله
على المد الذي عدله
الحسين بن يحيى
البسكري بمد ابراهيم بن
عبد الرحمان الجايشي
الذي عدله بمد الشيخ

A 3

ابي علي
منصور بن يوسف
القواس (1) وكان ابو
علي عدل مده بمد
الفقيه ابى جعفر احمد
ابن علي بن غزلون وعدل
ابو جعفر مده بمد
الفقيه القاضي ابى
جعفر احمد بن الاخطل

A 4

وعدل ابو
جعفر مده بمد
خالد بن اسماعيل
وعدل خالد بن اسما
عيل مده بمد ابى
بكر احمد بن حنبل (2) و
عدل ابو بكر مده بمد
ابي اسحاق ابراهيم بن

A 5

الشنظير
وبمد ابي جعفر بن
ميمون وكانا عدلا
مديهما بمد زيد
ابن ثابت صاحب رسول الله صلى
الله عليه وسلم
وشرف وكرم عن دوام

A 6

وعدل
الان هذا المد
المبارك تبركا بالنبي
صلى الله عليه وسلم واحيا لسنته
وفي اواخر رمضان المعظم
عام مائة والف
بفاس المحروسة بالله

ISNĀD

?
1100
↑
ابو الحسن المريني
↑
ابو يعقوب المريني
↑
الحسين البسكري
↑
الجايشي
↑
القواس (1)
↑
غزلون
↑
الاخطل
↑
خالد
↑
حنبل (2)
↑
الشنظير وميمون
↑
زيد بن ثابت

(1) mis pour القوامي

(2) mis pour حمد

النص التأسيسي التاريخي الموزع على بدن المد المصنوع 1100 هـ



ISNĀD

مولانا الادريسي
1067
↑
ابو الحسن المريني
734
↑
ابو يعقوب المريني
↑
الحسن (2) السكري
↑
عبد الرحمن (4)
↑
القواس (5)
↑
كزلون (6)
↑
الاخطل
↑
اسماعيل (7)
↑
حنبل (8)
↑
الشنظير وميمون
↑
زيد بن ثابت

TEXTE

A 1

الحمد لله
حقق هذ المد
المبارك على مد مولانا
احمد بن مولانا على الا
دريسي نافلا له على
مد امير المومنين ابى
الحسن (1) امير المؤ
منين ابى يوسف بن عبد
الحق نافلا له على مد
مولانا ابى يعقوب نافلا
له على مد الحسن (2) بن يحيى

A 2

يحيى (3) السكري
على مد ابراهيم بن عبد
الرحمان (4) نافلا له
على مد الشيخ ابى علي
منصور بن يوسف القو
اس (5) نافلا له على مد
الفقيه ابى
جعفر احمد بن على
بن كزلون (6) نافلا له على
مد الفقيه القاضي
ابى جعفر احمد بن الا
خطل نافلا على (7)

A 3

بن
اسماعيل نقلا
له على مد ابى بكر
احمد بن حنبل (8) ونقل
ابن حنبل على مد ابى اسحاق
ابراهيم بن الشنظير وعلى
مد ابى جعفر بن ميمون
كلاهما نقلا
على مد سيدنا وبركتنا و و
سيلتنا الى ربنا صاحب
رسول الله صلى الله عليه
وسلم زيد بن ثابت رضي الله
عنه وكان تاريخ ٢ له حقق

A 4

حقق
عليه هذا
سنة اربع وثلاثين
وسبع ماية وهذه
سنة ١٠٦٧ وصانعه
المعلم الاديب الفقيه
الى رحمة ربه الراجي
عفوه عند
انقضاء اجله عبد
السلام جلو بن
المزاني بمده اله
برحمته وادخله
جنته بفضله وكرمه

A 5

وعامله
القائد منصو
ر بن الزاهي
الباشا صنع
هذ المد
المبارك تبركا
على منهاج نبينا
محمد صلى الله عليه
وسلم

A 6

الحمد لله

(1) rajouter ابن .
(2) mis pour الحسن .
(3) répétition de يحيى .
(4) manque الجايشي .
(5) mis pour القوامي .
(6) lire غزلون .
(7) manque مد خالد .
(8) mis pour حمد .

النص التأسيسي التاريخي على مد نبوي من النحاس صنع سنة 1067 هـ

TEXTE

M 1 هذا

المد النبوى المبرك
على صاحب الصلاة والسلام
عدل للسيد الاصيل ابى محمد مولانا عبد الله بن
امير المومنين مولانا اسماعيل الحسنى سنة ١١٣٠
بمد عدل للفقيه سيدي محمد بن سعيد المرغثني السوسي سنة
١٠٧١ بمد عدل لعبد المومن بن عبد المومن سنة ٩٩٨ بمد عدل
للفقيه المفتى عبد الواحد بن احمد الحسنى سنة ٩٩٠ بمد عدل
للفقيه ابى محمد عبد الله بن سالم سنة ٧١٠ بمد عدل للفقيه ابي
محمد عبد الرزاق سنة ٦٩٢ بمد عدل للفقيه ابى الحسن
على بن الحاج سنة ٦١٣ بمد
عدل الحاج الحسن (3) بن يحيى
اليسكري

M 2 بمد

ابى اسحاق ابرا
هيم بن عبد الرحمن الجكجكى (4)
بمد عدل للشيخ منصور بن يوسف القواس (5) بمد (6) بن غزلون
بمد عدل للفقيه ابى جعفر احمد بن الاخطل بمد عدل
لخالد بن اسماعيل بمد عدل لابي بكر بن جميل (7) بمد عدل
لابي اسحاق ابراهيم بن شيطير (8) بمد ابي جعفر احمد
بن ميمون بمد الصحاب (9) زيد بن ثابت الانصاري
بمد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام
واختبر بدرهم الكيل الستى فوافقه لله
الحمد وله المنة

M 3 ميانان

واربعون وستهم وذلك ستون صاعا عند
كسان وفى آقل لوضوء مد و اربعة غسل
عشر به تكفين ايمان منه يعدل هذا
وكتل به ابدا (10) وتبركا في سروا اعلان
من الحاج عبد الرحمن بن ابراهيم المراكشي

ISNĀD

مولانا عبد الله بن مولانا اسماعيل
1130
↑
المرغثني السوسي
1071
↑
عبد المومن بن عبد المومن
998
↑
عبد الواحد بن احمد الحسني
990
↑
عبد الله بن سالم
710
↑
عبد الرزاق
692
↑
الحسن على بن الحاج
613
↑
الحسن (1) بن يحيى اليسكري
↑
ابراهيم الجكجكي (2)
↑
ابو منصور القواس (3)
↑
ابو جعفر غزلون
↑
ابو جعفر الاخطل
↑
خالد بن اسماعيل
↑
ابو بكر احمد بن جميل (5)
↑
شيطير (6) و ميمون
↑
زيد بن ثابت

(1) Fils de Mawlāy Ismā'īl qui devait régner neuf ans plus tard.
(2) Avec la capacité donnée et les diamètres annoncés, la hauteur devrait être de... 2,17 cm ?).
(3) mis pour al-Ḥusayn.
(4) mis pour al-Ẓaysī.
(5) mis pour al-Qawwānī.
(6) manque : Abū Ẓa'far Aḥmad b. 'Alī.
(7) mis pour Ḥammād.
(8) manque : ibn.
(9) mis pour aṣ-ṣiḥāb.
(10) manque : Lillā.

النص العربي بالاسناد المحفور في معدن المد النبوي المؤرخ 1130 هـ



صورة المد النبوي المؤرخ 1167 هـ

ISNĀD

1167
↑
⋮
ابو الحسن المريني
↑
ابو يعقوب المريني
↑
البسكري
↑
الخابشي (1)
↑
القوامي (2)
↑
عزلون
↑
الاخطل
↑
خالد بن اسماعيل
↑
ابو بكر احمد بن حنبل (3)
↑
الشنظر (4) و ميمون
↑
زيد بن تابت (5)

TEXTE

BANDEAU

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله الحمد لله امر بتعديل هذا المد

1

المبارك
مولاى امير المسلمين
ابو الحسن بن مولانا
امير المسلمين ابي سعيد
بن مولانا امير المسلمين
يوسف بن عبد الحق ايده

2

الله
ونصره على المد
الذي امر بتعديله
مولانا ابو يعقوب رحمه
الله تعالى على المد الذي
عدل الحسن بن يحيى البسكري
بمد ابراهيم بن عبد الرحمن
الخابشي (1) الذي عدله بمد الشيخ
ابى على منصور بن يوسف

3

القوام
وكان ابى على عدل
مده بمد الفقيه احمد بن علي
عزلون وعدل ابو جعفر مده بمد
الفقيه القاضي ابي جعفر احمد بن الاخطل
وعدل ابو جعفر مده بمد خالد بن اسماعيل
وعدل خالد مده بمد ابى بكر احمد بن حنبل (3)
وعدل ابو بكر مده بمد اسحاق ابراهيم بن
الشنظر (4) وبمد ابى جعفر بن ميمون و
كانا عدلا مديهما بمد زيد بن تابت (5)

4

صاحب
رسول الله صلى
الله عليه وسلم وعدل
الان هذا المد المبارك تبركا
بالنبي صلى الله عليه وسلم و
احياء السنته (6) وكان الفراغ منه
يوم ثمانية عشر من جماد (7) الثانية
عام سبع وستين ومائة ولف (8)
صانعه الحاج على بن الحاج احمد بن جلون

(1) mis pour الجابشي .
(2) lire القوامي .
(3) mis pour حمد .
(4) mis pour الشنظير .
(5) lire زيد بن ثابت .
(6) soit لسنته soit السنة .
(7) mis pour جمادى .
(8) mis pour الف .

النص العربي بالاسناد المحفور على بدن المد المؤرخ 1167 هـ



صورة المد المؤرخ 1177 هـ

TEXTE

1

امر
المسلمين
ابى سعيد بن مولانا
امير المسلمين ابى يوسف
ابن عبد الحق على مد
الذي امر بتعديله مو
لانا ابو يعقوب رحمه الله
على المد الذي عدل الحسين ابن يحيى
البسكري بمد ابراهيم بن عبد الرحمان

2

الحايسى (1)
الذى عدله بمد
الشيخ ابى على منصور
ابن يوسف الفواصى (2)
وكان ابو على عدل مده
بمد الفقيه ابى جعفر
احمد ابن على ابن
غزلون وعدل ابى جعفر

3

مده
بمد الفقيه
القاضى ابى جعفر
احمد ابن الاخطل
وعدل ابى جعفر مده
بمد خالد ابن اسماعيل
وعدل خالد ابن اسماعيل
مده بمد الامام ابى بكر احمد ابن حنبل (3)

4

وعـدل
ابى بكر مده
بمد ابى اسحاق ابرا
هيم ابن الشنظر (4) وبمد
ابى جعفر ابن ميمون وكـانا
عدلا مديهما بمد زيد
ابن ثابت صاحب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهذا تبركا
بسنته على يد الفقيه عبد الله حمود الشيخ
(ابن) سـ١١٧٧ـنة

ISNĀD

الفقيه عبد الله بن حمود الشيخ
↑
[ابو الحسن المريني]
↑
ابو يعقوب المريني
↑
الحسين البسكري
↑
الحـايسـي (1)
↑
الفواصي (2)
↑
غزلـون
↑
الاخطـل
↑
خـالد
↑
حنبل (3)
↑
الشنظر وميمون (4)
↑
زيد بن ثابت

(1) mis pour الجايشي .
(2) mis pour القوامي .
(3) mis pour حمد .
(4) mis pour الشنظير .

النص التاريخي المحفور على بدن المد المؤرخ 1177 هـ

TEXTE

BANDEAU

بسم الله ماشاء الله لا قوة الا بالله بسم الله ماشاء الله لا قوة الا بالله

1

بسم الله
ما شاء الله لا
قوة الا بالله العلى
العظيم الحمد لله
وحده صنع هذ المد
المبارك ابتغاء
وجه الله ومحبت
فى سنة رسول الله صلى
الله عليه وسلم تسليم
عبد لربه سبحانه ||||||||||
المرابط العربى بن
عبد الوهاب الدعاوني

2

اللهم
تغمده برحمتك
وارحمه بفضلك
واجعل عمله فيها طهر
وما يطب لوجهك وارحم
جميع المسلمين
امين |||||||| ناقلا له على
مد مولانا الشريف
احمد بن مولانا على
الادريسى ناقلا على مد
امير المومنين ابى الحسن
بن امير المومنين ابى
سعيد بن امير المومنين
ابى يوسف بن عبد

3

الحق
المرينى ناقلا على
مد ابى يعقوب ||||||||
المنصور ناقلا على مد
الحسن (1) بن يحيى البكرى
ناقلا على مد ابراهيم
ابن عبد الرحمان
الجايشى ||||||||
ناقلا على مد الشيخ
ابى على منصور بن يوسف
القواس (2) ناقلا على مد
الفقيه ابى جعفر احمد
بن على ابن غزلون ناقلا

4

على
الفقيه القاضى
ابى جعفر احمد بن
الاخطل ناقلا على مد
ابى خالد اسماعيل
ناقلا على مد ابى بكر
احمد ابن حنبل (3) ناقلا
على مد ابى اسحاق
ابراهيم بن ||||||||||
الشنطير ناقلا على مد (4)
ابى جعفر بن ميمون
كلاهما ناقلا على مد
سيدنا وبركتنا
ووسيلتنا الى الله

5

زيد بن
ثابت رضى الله عنه
صاحب رسول
الله صلى الله عليه
وسلم تسليم وشرف
وكرم ومجد وعظم
وبرك وانعم اجلا لا
وتعظيما لسنة
للنبى عليه السلام
واتباع ماكان يعمله
صلى الله عليه وسلم
تسليم مثل
الوضوء والطهارة

6

وصدقة
الفطر وغير من
المقدرات الشرعية
وذلك |||||| صنعة عبد
ربه سبحانه الذي من
الله عليه بالسلام
مبارك الزيات
غفر الله ذنوبه وستر ||||||
عيوبه امين فى موقى (5)
عشرين من جماد الاخير
عـ1209ـام تسعة وماءتين
والف نقل لحمد لله وحسب
عونه

ISNĀD

المرابط العربي بن عبد الوهاب الدعاوني
↑
مولانا الشريف احمد الادريسي
↑
ابو الحسن المريني
↑
ابو يعقوب المنصور
↑
الحسن (1) البكري
↑
الجايشي
↑
القواس (4)
↑
غزلون
↑
الاخطل
↑
خالد بن اسماعيل
↑
حنبل (3)
↑
الشنطير
ميمون
↑
زيد بن ثابت

(1) mis pour الحسين .
(2) mis pour القوامي .
(3) mis pour حمد .
(4) lire وعلى au li-u de ناقلا .
(5) lire في يوم .

نص النقش التأسيسي التاريخي على بدن المد المؤرخ 1209 هـ



صورة الصاع المؤرخ 1124 هـ

TEXTE

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المصطفى الكريم HANDEAU
وعلى اله وصحبه افضل الصلاة والتسليم

1

لله
الحمد
امر بتعديل هذ الصاع
النبوى المبارك الشريف
الجليل الماجد الاصل العالم
العلامة الدارك الفهامة
ابو عبد الله سيد محمد الهاشمي
الله
ابن مولانا محمد بالفتح بن مولانا عبد
ابن مولانا عبد الملك العلوي
الحسنى السجلماسي كان الله له
وليا ونصيرا ابتغاء مرضات الله

2

ومحبة
فى سنة رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعد ما
احضر لديه ستة امداد
نبوية من عند اناس افاضل
الناس من محروسة فاس
امنها الله مرسومة الاسانيد
وابدل الجهد فى تحقيق ذلك
وتدقيقه وتعديله والبحث فى
اسانيده حتى جاء والحمد لله مع الاعداد

3

عدو
النعل بالنعل
بحسب اربعة امداد
فى الصاع المذكور
والكل انتهى سنده الى تعديل
مد امير المومنين ابى الحسن المرينى
ابن امير المومنين ابى سعيد بن امير
المومنين ابى يوسف بن عبد الحق
المرينى وهو امر بتعديله على
مد امير المومنين ابى يعقوب المنصور

4

الموحدى (sic)
وهو عدله على مد
الحسين بن يحيى البسكري
وهو عدله على مد ابراهيم
• ابن عبد الرحمان الجايشى
وهو عدله على مد الشيخ ابى
على منصور بن يوسف القوامى
وهو عدله على مد الفقيه ابى
جعفر احمد بن على بن غزلون
وهو عدله على مد القاضى

5

احمد بن
الاخطل وهو
عدله على مد الفقيه
خالد بن اسماعيل وهو عدله
على مد امام المذهب ابى بكر
احمد بن حنبل وهو عدله على مد
ابى اسحاق ابراهيم بن الشنظر وابى جعفر
ابن ميمون وهما عدلا مديهما على مد
سيد زيد بن ثابت صاحب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعدل هذ [ا]
الصاع المبارك على يد المعلم عبد السلام

6

ابن ابى
سعيد الزيات
الفاسى دارا ومنشا
فى الخامس والعشرين
من محرم الحرام فاتح عام
1124 جعله الله من
الاعمال المدخرة فى الدنيا
والاخرة انه على ما يشاء
قدير وبالاجابة جدير
وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى اله وصحبه وسلم تسليما

ISNĀD

محمد الهاشمي
العلوي
↑
ابو الحسن المريني
↑
ابو يعقوب الموحدي
↑
البسكري
↑
الجايشي
↑
القوامي
↑
غزلون
↑
الاخطل
↑
خالد
↑
حنبل [احمد] •
↑
الشنظر وميمون
↑
زيد بن ثابت

النص التاريخي المحفور على الصاع المؤرخ 1124 هـ

آل أمغار ودورهم في التوجيه الروحي

للأستاذ عبد القادر العافية

إن الباحث ليقف مندهشا إزاء النزعة الروحية التي اتسمت بها منطقة دكالة بالمغرب الأقصى عبر تاريخها الطويل، بحيث يمكن القول أن إقليم دكالة يعد من أغنى الأقاليم المغربية في هذا المجال الروحي، ويجد الباحث أن عددا كبيرا من رجال التصوف والتربية الروحية ينتمون إلى هذه المنطقة في مختلف العصور.

وهذه ظاهرة تستلفت نظر الباحثين، وهذا مما جعل بعضهم يؤكد بأنه : «كانت الزوايا الدكالية من أول ما ظهر بالمغرب».

ويذكر ابن عبد العظيم الأزموري في كتابه «بهجة الناظرين» أن آل أمغار توصلوا بظهائر من أمراء بني يفرن، تهدف إلى تمتين روابط الصداقة مع المغاربيين وذلك لما لهم من دور روحي بالمنطقة - وقصد محاصرة البرغواطيين الذين كانوا يعملون على نشر نحلتهم البرغواطية.

يضايقون المناطق السنية، ويشنون غاراتهم عليها، وبنو يفرن الزناتيون كانوا على عهد الأدارسة وقبل ظهور المرابطين، حيث ظهروا على مسرح الأحداث السياسية بالمغرب خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ومعنى هذا أن النفوذ الروحي لبعض الرباطات بهذه المنطقة يعود إلى عهد مبكر، فإذا كان القرن السادس عرف كبار رجال التصوف بالمغرب مثل : أبي ينور المشترائي، الدكالي (المتوفى في منتصف القرن السادس هـ). ومثل أبي شعيب أيوب السارية (مولاي بوشعيب) ت : 561 هـ. (مدحه الناصري بقصيدة طويلة 2 : 185)، وابن العريف، وابن برجان ت : 536 هـ. وأبي الحسن علي ابن حرزهم (ت : 559 هـ) وأبي يعزى يلنور بن ميمون ت : 572 هـ. وأبي الحسن علي بن غالب دفين قصر كتامة ت : 574 هـ وأبي مدين الغوث ت : 514 هـ.

وغيرهم فإن إقليم دكالة عرف التصوف قبل هذه الفترة بكثير، واشتهر به عدد لا يحصى من رجال التصوف، وإذا ما عدنا إلى كتاب : «التشوف إلى رجال التصوف» لابن الزيات التادلي (ت : 627 هـ). والذي ترجم فيه لمائتين وخمسة وسبعين شخصية صوفية من مختلف البلاد الإسلامية، من الأندلس، والمغرب، والجزائر، وتونس وليبيا، ومن بلاد المشرق العربي...

نجد أن تراجم الدكاليين تحتل النصيب الأوفر من الكتاب حيث ترجم فيه لنحو خمسين شخصية صوفية من إقليم دكالة وحده، أي ما يمثل خمس الكتاب تقريبا،

حيث نجد التراجم الدكالية تحمل الأرقام الآتية : 22 ـ 23 ـ 24 ـ 30 ـ 32 ـ 34 ـ 35 ـ 36 ـ 59 ـ 61 ـ 62 ـ 73 ـ 75 ـ 78 ـ 79 ـ 87 ـ 88 ـ 90 ـ 110 ـ 111 ـ 121 ـ 127 ـ 136 ـ 155 ـ 158 ـ 159 ـ 160 ـ 161 ـ 195 ـ 209 ـ 219 ـ 224 ـ 230 ـ 238 ـ 239 ـ 244 ـ 245 ـ 246 ـ 247 ـ 250 ـ 254 ـ 255 ـ 258 ـ 265 ـ 266 ـ 272 ـ 273 ـ 276.

هذه أرقام التراجم لرجال التصوف بإقليم دكالة في كتاب التشوف، وهي تؤكد ما قلناه من أن هذه التراجم تشغل حيزا هاما من الكتاب. (ط : افريقيا الشمالية بالرباط سنة 1958) وذكر عدد منهم بتشوف الراغبين، للصومعي من (ق : 9 هـ) وترجم الناصري في الاستقصا لمجموعة كبيرة من رجال العلم والتصوف بهذه المنطقة وكذلك الشيخ محمد بن جعفر الكتاني في سلوة الأنفاس.

ونجد (كتاب الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام) للعباس بن ابراهيم يضم تراجم كثيرة لرجال التصوف بهذا الإقليم وكتاب : (ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع، وما والاهما من الأتباع) للمهدي الفاسي، ومرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي، وغيرها.

وبالإضافة لهذه المؤلفات العامة نجد مؤلفات خاصة بأعلام هذه المنطقة أو بالأسر الشهيرة بها : مثل (المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزي) لأحمد الصومعي فرغ منه سنة 1000 هـ (خ.ع : ر : 265)[1] ومثل : كتاب (بهجة الناظرين، وأنس الحاضرين، ووسيلة رب العالمين، في مناقب رجال آمغار الصالحين) لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد العظيم الزموري من أهل القرن الثامن الهجري.

تكلم فيه مؤلفه عن صلحاء آل أمغار، وعرف بهم، توجد منه نسختان بالخزانة العامة بالرباط إحداهما برقم : 13.43. والثانية برقم : 1501.

ومثل : كتاب (البدر اللائح والمسك الفائح في مآثر آل أبي محمد صالح) لمحمد بن أحمد العبدي الكانوني (ت : 1938 هـ).

عرف فيه بآل الشيخ أبي محمد صالح بن ينصارن بن غفيان الدكالي، ثم الماجري (ت : 631 هـ).

ومثل كتاب : (المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح)، لأحمد بن ابراهيم من آل أبي محمد صالح، طبع بالمطبعة المصرية سنة 1933 م، ومثل : (ابتهاج القلوب، بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب)[2] مخ، ع، ر : 5326. لعبد الرحمان الفاسي (ت : 1096 = 1685 م).

ومثل : (سلسلة الذهب المنقود، في ذكر الأسلاف والجدود) لأبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم الدكالي المشترائي (ت : بعد : 1160 هـ = 1747 م). وذيله لأخيه محمد (ت : 1184 هـ / 1770 م) أتم فيه الكلام عن أعلام هذه الأسرة الدكالية والأصل والذيل بالخزانة الزيدانية بمكناس، «الدليل».

• بهذه المناسبة أذكر أن آل (ابن إبراهيم الدكاليين المشترائيين) ترجم لمجموعة منهم ابن عسكر صاحب «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر» ت : 876 هـ. انظر : الترجمة : 36 ـ 37 ـ 38 من الدوحة ط : فاس وترجم لهم ابن القاضي في «جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس «انظر مثلا الصفحات الآتية : 66 ـ 110 ـ 239 ـ 248 ـ 250 ـ 407 ـ 455 ـ ط : دار المنصور بالرباط.

1) خ. ع. ر : الخزانة العامة بالرباط، والرقم رقم الكتاب بها.
2) عبد الرحمان بن عياد المجذوب ذكره غير واحد من المتحدثين عن رجال التصوف وهو شيخ الأسرة الفاسية ونجده في مؤلفات هؤلاء : في مرآة المحاسن، وممتع الأسماع، وابتهاج القلوب وغيرها توفي سنة 976 هـ ودفن بمكناس، وهو أشهر من نار على علم.

ومثل : كتاب : (صريح الدلالة في صحة نسب من سكن دكالة)، لمحمد بن علي الدكالي نزيل سلا (ت : 1945) وكتاب (التعريف ببعض رجال دكالة والدار البيضاء ومراكش وغيرها) لأحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد الأندلسي من أهل ق : 11، نسخة منه بالقرويين عدد : 641 ضمن مجموع.

وهكذا نجد أن منطقة دكالة غنية بعلمائها وبكبار رجال التصوف وبالأسر التي توارثت العلم والصلاح...

وبما أن الكلام يتعلق بذكر آل أمغار ودورهم في التوجيه الروحي فلا بأس بذكر أهم المصادر عنهم.

ومما يلفت النظر في الحديث عن الأمغاريين كثرة ما ألف عن هذه الأسرة التي توارثت الصلاح لفترة طويلة من الزمن.

ويمكن القول أنها تأتي في طليعة الأسر المغربية التي كثر التأليف عنها. وبالرغم من ضياع كثير من هذه المؤلفات، أو على الأصح عدم وجودها في الوقت الراهن فإن ما بقي منها احتفظ بعناوين كثيرة لمؤلفات عديدة.

وأهم مرجع للحديث عن آل أمغار هو كتاب (بهجة الناظرين وأنس الحاضرين ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين).

لأبي عبد الله محمد بن محمد الزموري كان حيا سنة 900 هـ. والكتاب يقع في مجلد واحد ويحمل بالخزانة العامة بالرباط رقم : 1349.

وهناك نسخة أخرى منسوبة لأبي عبد الله محمد بن عبد العظيم الأزموري الجد الأعلى، وهذا كان في القرن الثامن :» هـ، وهو معاصر للسلطان أبي سالم المريني.

وصاحب بهجة الناظرين ذكر مجموعة من المؤلفات التي تحدثت عن آل أمغار منها :

1 - «الأخبار في كرامات الشرفاء بني أمغار» وهو : لمحمد بن عبد العظيم الزموري الأكبر، نقل عنه.

2 - أنس العلماء العارفين في بني أمغار الصالحين تكلم فيه عن آل أمغار أصحاب المشاهد الشهيرة على شاطئ البحر قرب الجديدة بعين الفطر» نقل عنه ولم يذكر مؤلفه.

3 - «تنقيح الأخبار في ذكر كرامات الصالحين بني أمغار».

نقل عنه ولم يذكر مؤلفه.

4 - «تحفة الأصفياء في تعريف الأولياء».

- لأبي عمر بن عيسى الهناء.

تكلم فيه عن أولياء بني أمغار بعين الفطر بدكالة، ذكره صاحب بهجة الناظرين. ومن الكتب التي نقل عنها أبو عبد الله الزموري :

5 - «طبقات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين» ذكره صاحب الدليل، وقال نقل عنه صاحب بهجة الناظرين، ص : 266.

6 - «الذخيرة والأسرار في مناقب بني أمغار»، ذكره ابن عبد العظيم ونقل عنه.

7 - «مطالع الأنوار في كرامات أسلاف أمغار» للشيخ أبي علي عمر بن عيسى الهناء المتقدم.

ذكره صاحب بهجة الناظرين ونقل عنه.

8 - «مناقب البدلاء[3] العشرة من بني أمغار».

نقل عنه ولم يذكر مؤلفه.

9 - «نتيجة الناظرين في مناقب أهل عين الفطر».

وهو لمحمد بن عبد العظيم الأزموري، وقف عليه محمد الكانوني ونقل عنه.

10 - «الوسائل والزلفى» لأبي عمران موسى بن علي الزناتي من القرن السابع، كان حيا بعد : 650 هـ /

3) قال ابن منظور في اللسان : يقال : بدل وبدل، لغتان، ومثل ومثل وشبه وشبه، ونكل ونكل، لم يسمع غير هذه الأربعة، ثم قال : الابدال قوم من الصالحين بهم يقيم الله الأرض : 40 في الشام، و30 في سائر البلاد لا يموت أحد إلا قام مكانه آخر، ولذلك سموا أبدالا، وأورد حديث : «الإبدال بالشام والنجباء بمصر، والعصائب بالعراق» قال ابن السكيت سمي المبرزون في الصلاح إبدالا، لأنهم أبدلوا من السلف الصالح.
والابدال : الأولياء، والعباد.

1252 م وهو في مناقب بني أمغار نقل عنه في بهجة الناظرين كثيرا.

وذكر ابن عسكر في الدوحة أنه ممن ألف في مناقب هذه الأسرة : صاحب التشوف، والتجيبي، ومحمد بن عياض (الدوحة : 77. ط : حجرية بفاس)، وهؤلاء من الأعلام البارزين في عصرهم.

ومن الكتب المؤلفة حديثا في بني أمغار : «تنوير بصائر الأبرار، بتاريخ زاوية تيط، وآل أمغار» (آسفي وماليه ص : 17) لمحمد بن أحمد الكانوني ت : 1938 م قال عنه عبد السلام بن سودة يقع في عدة كراريس، (الدليل).

وللكانوني أيضا :

«جواهر الكمال في تراجم الرجال، وهو القسم الثاني من كتابه «آسفي وما إليه» الذي يقع في أربعة أسفار. طبع الأول منه بالمطبعة العربية بالبيضاء : 1937 وطبع جواهر الكمال كذلك، وأعيد أخيرا طبع «آسفي وماليه».

التعريف بآل أمغار :

1 ـ نسبهم :

يؤكد محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد العظيم الزموري أن آل أمغار أدارسة حسنيون من ذرية علي وفاطمة ـ ض ـ وأتى بنص ظهيرين في مقدمة كتابه بهجة الناظرين لإثبات ذلك.

وبدأ كتابه بقوله : «أما بعد فهذه نسخة شرف كريم، محمدي صميم... إلى أن يقول : «غرة وجوه صنهاجة وأعيانهم، سادات المغرب وكبرائه...».

وهو في الكلام عنهم يفرد لكل واحد منهم نعوتا وأوصافا تستغرق أحيانا صفحة كاملة. أو أكثر قبل أن يذكر الاسم الذي سيتحدث عنه... يفعل ذلك تعظيما لقدرهم، ونسبهم...

ويؤكد الشيخ محمد بن جعفر الكتاني في السلوة (ج : 2 : 218) في ترجمة محمد بن عبد الله أمغار دفين فاس، يؤكد نسبهم الحسني فيقول : «سيدي محمد بن عبد الله الشريف الولي الجليل الصالح البركة الحفيل الحسني الإدريسي المعروف بأمغار من السادات الأمغاريين أهل عين الفطر المسماة (بتيط نفطر) وتعرف الآن بتيط.

يقول : «وهم على ما هو التحقيق في نسبهم شرفاء أدارسة من ذرية عبد الله بن إدريس ـ ض ـ وقد وسمهم بالشرف جماعة من الأئمة، كما في الممتع وغيره قاله الشيخ سيدي علي بن رحال (كذا) ـ والصواب علي الهداجي المعدني ـ في «الروض اليانع» ـ توفي على المعدني بعد : 1180 هـ.

الدليل : 1 : 214.

ونقل أنهم ـ ض ـ «دعوا على من طعن في نسبهم الشريف بقطع عقبه، فليحذر الإنسان من الوقوع في مثل ذلك».

ومعنى هذا الكلام، أنه هناك من كان ينفي هذه النسبة.

يقول صاحب السلوة : «وأمغار معناها» الشيخ «لقب بها جدهم، القطب الكامل أبو عبد الله محمد أمغار الصنهاجي دفين أزمور، ويعرف بأمغار الكبير، والأكبر، وهو ابن الشيخ أبي جعفر سيدي إسحاق بن اسماعيل بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن الحسين بن عبد الله بن ابراهيم بن يحيى بن موسى بن عبد الكريم بن مسعود، بن صالح بن عبد الله بن عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر بن تميم بن ياسر بن عمر بن يحيى بن أبي القاسم بن عبد الله بن ادريس باني فاس ـ ض ـ.

يقول صاحب السلوة هكذا وجد هذا العمود الشريف في شجرة قديمة بخط قديم، محفوظة عند حفدة أبي عبد الله أمغار المذكور ثم يقول : «وما يوجد في بعض المقيدات مما يخالفه لا صحة له، وهو من الخطأ الصراح.

وهكذا يؤكد محمد بن جعفر الكتاني نسبهم الادريسي الحسني ويحكم على من يخالف هذا بأنه خطأ صراح.

ومِمن يؤكد نسبهم الحسني ابن عسكر في الدوحة والعربي الفاسي في مرآة المحاسن، والمهدي الفاسي في ممتع الأسماع، وعبد الرحمان الفاسي في ابتهاج القلوب، ودافع صاحب الممتع عن شرفهم ونقل عن الشيخ القصار ما يؤكد شرفهم... أي نسبهم الحسني.

وتعرض العباس بن ابراهيم في الإعلام لشرفهم وأطال الكلام عنه، ونقل عدة نقول تؤكد شرفهم، في ترجمة موسعة لسيدي عبد الله بن احساين. (ج : 8 : 277).

أما التادلي في التشوف (ت : 627 هـ / 1230 م) فقد ترجم الثلاثة من أعلام آل أمغار، وذكر ثلاثة آخرين عرضا، ولم يذكر أنهم حسنيون، ففي الترجمة : 245 (ط : الرباط : 1958) يقول : «ومنهم».

«أبو يعقوب يوسف بن محمد بن أمغار الصنهاجي» من أهل رباط : (تيط نفطر) من بلد أزمور، وبه مات في الثاني من شوال عام أربعة عشر وستمائة، وأبوه هو أبو عبد الله محمد، وجده أبو جعفر أمغار من كبار الصالحين من بيت الخير والصلاح... ص : 445.

وفي الترجمة رقم : 75 يقول :

ومنهم : أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر إسحاق بن اسماعيل بن سعيد الصنهاجي المعروف بابن أمغار، الذي كان بموضع أغيور، وأبوه : أبو جعفر، وجده : إسماعيل، وأسلافه بيت خير وصلاح، وولاية، وكذلك خلفه إلى الآن... وحدثوا عن أبي شعيب أنه كان يكثر زيارة أبي عبد الله... (أي مولاي بوشعيب السارية) وفي الترجمة : (87) يقول :

ومنهم أبو محمد عبد السلام بن أبي عبد الله محمد بن أمغار الصنهاجي. من أهل رباط (تيط نفطر). وكان عبدا صالحا منزويا عن الدنيا، ولم يتزوج إلى أن مات... ص : 217 (ط : أدولف فور : 1958).

فصاحب التشوف لم يضف حسني، ولا ادريسي، فهو لم ينف النسبة الحسنية ولم يثبتها ومثل هذا يستفاد من الظهير الذي نقل مضمونه العباس بن ابراهيم في الإعلام حيث يقول : «وقفت على ظهير أحمد المنصور السعدي مؤرخ ب : 18 رمضان سنة 997 هـ بأنه يصرف للمرابط ابراهيم بن أحمد ابن المرابط الخير عبد الله بن حسين جمع الغائر من الآبار المندرس الآثار قرب تامصلوحت صرف العام، واقطاع تمليك... (الإعلام : 182 ج : 1).

فهذا الظهير السلطاني لم يثبت ولم ينف.

لكن نسبة آل أمغار إلى البيت النبوي نجدها عند غير واحد ممن ترجم لهم. ابتداء من محمد بن عبد العظيم الزموري الجد (ق : 8) إلى العباس بن ابراهيم، والكانوني، فكلهم ينعتون الأمغاريين : بالشرفاء الادريسيين الحسنيين، ويؤكدون ذلك، بل تحمس الفاسيون في الدفاع عن هذه النسبة، وتبعهم الشيخ محمد بن جعفر الكتاني في السلوة.

وعلى منوالهم نسج الشيخ محمد الكانوني في كتابه (آسفي وما إليه) فهو عندما أراد الحديث عن بيوتات هذا الإقليم بدأ ببيت آل أمغار فقال : «هذا البيت عظيم القدر عزيز الفضل وافر الجلالة، كثير العلماء نبغ منه عدد من الأئمة والشيوخ المرشدين وكان واسطة عقدهم الشيخ الإمام أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي جعفر بن اسماعيل الحسني الإدريسي المدعو أمغار الكبير، من أهل القرن السادس الهجري، وكان له أولاد سبعة تسنموا مراتب العلم والعمل، واتصفوا بالولاية والعرفان، وقد تناسل من ذرياتهم مالا يحصى من العلماء المرشدين ظلوا حاملين راية العلم والهداية، وكانت زاوية تيط مركزهم الوحيد للعلم والدين، قصدت من الآفاق، وشدت إليها رحلة الرفاق...».

وسبقت الإشارة إلى أن ما ألف عن هذه الأسرة الأمغارية شيء يلفت أنظار الباحثين، وما ذلك إلا لما كان لهم من دور فعال في التوجيه الروحي.

التوجيه الروحي لآل أمغار :

قليلة هي الأسر التي يتوارث أفرادها الصلاح أبا عن جد لفترة طويلة من الزمن.

منذ القرن الرابع الهجري بدأ الحديث عن آل أمغار وعن صلاحهم، ورباطهم بعين تيط.

ويثبت محمد بن عبد العظيم الزموري أن بني يفرن في القرن الرابع الهجري كان لهم اتصال بهذه الأسرة وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وينقل عنه الناصري في الاستقصا «أن أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين لما عزم على إدارة السور على مدينة مراكش شاور الفقهاء، وأهل الخير في ذلك، فمنهم من ثبطه، ومنهم من ندبه إليه، وكان من جملة من ندبه القاضي أبو الوليد بن رشد، ثم شاور أبا عبد الله محمد بن إسحاق المعروف بأمغار صاحب عين الفطر فأشار ببنائه، وبعث له من ماله الحلال، وأمره أن يجعله في صندوق صائر البناء، ويتولى الانفاق رجل فاضل فقبل السلطان استشارته وعمل برأيه فسهل الله أمر البناء» (الاستقصا : 2 : 23).

ومن خلال هذا النص نرى أن محمد بن إسحاق الأمغاري كان له جاه ونفوذ على عهد المرابطين إلى درجة أنه يشير على السلطان، ويبعث له بقدر من المال ليجعله في نفقات البناء، ويوجهه إلى من يجب أن يتولى الإشراف على بناء السور...

فمثل هذا النص يظهر أن آل أمغار على عهد المرابطين كانت لهم حظوة كبيرة عند رجال الدولة، وما ذلك إلا لمكانتهم الروحية في الأوساط الاجتماعية، ولما لهم من صيت وشهرة في هذا المجال، ومن هنا يتضح أن الأمغاريين عرف رباطهم وبيتهم قبل أبي عبد الله المعاصر لأبي شعيب السارية (ت : 561 هـ).

وسور مراكش الذي يتحدث عنه النص بني سنة 526 هـ. وبعد قرن من الزمان، وفي عهد الدولة الموحدية نجد ابن الزيات (ت : 627 هـ) يعلي من شأن هذه الأسرة، ويشيد بدورها الروحي، وبما وصل إليه أفرادها من فضل وصلاح، حيث أصبحوا نماذج يقتدى بهم، وتلتمس بركاتهم، ودعواتهم... وامتد إشعاعهم الروحي ليشمل جهات كثيرة وأقاليم متعددة... وبعد قرن آخر من الزمان في عهد الدولة المرينية (760 ـ 762 هـ) أي في النصف الثاني من القرن الثامن، نجد محمد بن عبد العظيم الزموري الكبير يهتم بالحديث عنهم اهتماما بالغا ويؤلف فيهم : كتاب : «الأخبار وكرامات الشرفاء بني أمغار» ويذكر ما وقع أيام السلطان أبي عنان من التنويه ببيت آل أمغار الشرفاء، وما كان من إعفائهم من المغارم، ومنحهم رسوم الاحترام.

وفي القرن التاسع يؤلف فيهم حفيده كتاب «بهجة الناظرين...» السالف الذكر.

وابتداء من هذا القرن نلاحظ : أن الأمغاريين الذين كان لهم رباط، وزوايا قبل ظهور الشاذلية نلاحظ أنهم أصبحوا من كبار مشايخها، ومن أبرز أعلامها.

ويذكر أن ابن عسكر في الدوحة في سند شيوخه إلى الشاذلي. أن الشيخ أبا عبد الله محمد الجزولي أخذ الطريقة الشاذلية عن شيخه أبي عبد الله الشريف من بني أمغار. (مقدمة).

ويؤكد محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن (ص : 193) أن الشيخ أبا عبد الله محمد الجزولي أخذ عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله أمغار نزيل رباط (تيط نفطر) الطريقة الشاذلية.

ويذكر نفس السند الذي ذكره صاحب الدوحة ويتوقف قليلا عند القرافي الوارد في السند هل هو الفقيه المشهور أم غيره ؟.

وفي القرن العاشر نشطت الحركة الصوفية بالمغرب نشاطا كبيرا، وأصبحت كتب الفهارس والتراجم تترجم لكبار الصوفية : وفي ضمنهم وطليعتهم «آل أمغار».

وفي هذه الفترة تألق نجم سيدي عبد الله بن احساين من آل أمغار، ونال الإكبار والتبجيل من كل من ترجم له.

ونرى هذا الشيخ يجدد سنده إلى الشاذلي بأخذه عن الشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني المتوفى سنة : 935 هـ، دفين مراكش واحد رجالها السبعة. وهذا أخذ عن الشيخ عبد العزيز التباع، والتباع أخذ عن الشيخ أبي عبد الله محمد الجزولي المتوفى : ما بين (869 ـ 875 هـ)

والجزولي يتصل بالشاذلي من عدة طرق، ذكرها المهدي الفاسي في ممتع الاسماع، وغيره.

ويلاحظ الباحث أن الإشعاع الروحي للأمغاريين امتد عبر فترة طويلة من الزمن.

اعتبار سيدي عبد الله بن احساين مجدد مجد هذه الأسرة في القرن العاشر الهجري حيث ذاع صيت هذا الرجل وقصده الناس من كل مكان، ونسبت إليه الكرامات العجيبة...

ونجد كل من تناول الحديث عنه، إلا ويخصه بمزيد من التعظيم والاحترام... وسنرى فيما بعد أن حفيده مولاي ابراهيم (ت : 1072 هـ) دفين «كيك» أدرك نفس الحظوة التي كانت لجده.

ولقد ترجم لعبد الله بن احساين جماعة، ويعد ابن عسكر صاحب الدوحة من أبرز من ترجموا له، وهو معاصر له، مات بعده بسنوات قليلة (10 سنوات) وقد ترجم له ترجمة حافلة تليق بمكانته، وستصبح هذه الترجمة عمدة المترجمين له فيما بعد.

ومما ذكره عنه ابن عسكر :

«ومنهم أعجوبة الدهر الشيخ الولي ذو المناقب التي لا تحصى كثرة أبو أحمد عبد الله بن حسين الحسني من شرفاء بني أمغار، أهل عين الفطر.. كان هذا الشيخ من أصحاب الشيخ سيدي أبي محمد الغزواني... إلى أن قال : انتشر صيت الشيخ عبد الله بن حسين وقصدته الوفود وظهرت على يده الخوارق التي لا تحصى...».

إلى أن يقول : وكانت بيني وبين الشيخ مودة راسخة ومحبة شامخة... واستفدت منه دعواته، ولله الحمد. ولولا قصد الاختصار لأفردنا له كتابا مستقلا (توفي رحمه الله : 976 هـ).

ووصل الاشعاع الروحي لسيدي عبد الله بن (احساين) إلى جهات كثيرة، وأقاليم بعيدة، وعنه أخذ الشيخ سيدي محمد بن علي بن ريسون (ت : 1018 هـ) وهو شيخه الذي اعتمده في طريقته الريسونية، حسبما ذكره ولده الحسن في كتابه : «فتح التأييد، في مناقب الجد والعم والوالد...

فهو قد ذكر قصة اتصال والده بسيدي عبد الله بن احساين، وذكر أن والده شد الرحلة إليه من جبل العلم بشمال المغرب، وزاره بزاويته بتامصلوحت، وبأن والده ورث أسرار هذا الشيخ، الذي هو قطب الأقطاب، وعلى يديه تم له الفتح، وبأمر منه فتح الزاوية الريسونية بتازروت بجبل العلم قرب تطوان بقبيلة بني عروس... وبعد وفاة الشيخ سيدي محمد بن علي بن ريسون ظلت الزاوية الريسونية بالشمال مخلصة لآل أمغار إخلاصا لا نظير له، ووظفت مدح سيدي عبد الله بن احساين فيما ينتشده المريدون بالزاوية الريسونية، وهناك منظومة من الملحون بعنوان (حضرة القطب مولاي عبد الله بن احساين) تبدأ هكذا :

«باسم الله نبدأ الذكر نمدح البشير النذير، مصباح البيان» وهي طويلة في مدح سيدي محمد بن علي بن ريسون وشيخه بن احساين.

ولازمتها :

والولي صاحب المهابة
كملو بن احساين وأعطاه أعلامو
قطب الصالحين يا ابن ريسون
يا كنزي بابا امحمد
من دكالة وأنا نسأل
وأعييت أبويا وعيا وماولي
الوالي صاحب المهابة
كملو بن احساين وعطاه أعلامو

☆ ☆ ☆

ومنظومة هذا الملحون تنشد بالزاوية الريسونية بتازروت، وتطوان، والمنظومة بكاملها في كتاب : أبطال صنعوا التاريخ «لعلي بن ريسون» (ط : المهدية : 1974) حيث نقلها عمن لا يزال يحفظها من أفراد أسرته.

فالاشعاع الروحي لآل أمغار عرفته كثير من الجهات بسوس، وجنوب المغرب وشرقه وشماله.

بل نجد الإمام عبد الرحمان القسنطيني يقول عنهم : «أكبر بيت في المغرب في الصلاح، بيت بني أمغار، لأنهم يتوارثونه كما يتوارث الناس المال».

وهذه الجملة نقلها غير واحد من الذين ترجموا لهم، وآخرهم الشيخ محمد بن أحمد الكانوني في كتابه آسفي وما إليه. (ص : 16).

وإذا كنت أعتبر سيدي عبد الله بن (احساين) مجدد النشاط الروحي لهذه الأسرة في القرن العاشر الهجري، فإن حفيده مولاي ابراهيم لا يقل عنه في هذا الشأن، وقد ترجم له غير واحد كالإفراني في الصفوة، والحضيكي في الطبقات، وابن ابراهيم في الإعلام، وغيرهم.

فعن مولاي ابراهيم يقول صاحب «الإعلام لمن حل مراكش وأغمات من الإعلام» : «كان هذا الرجل آية من آيات الله في الواردات الإلهية والأحوال الصادقة، مع حسن سمت، ومتابعة للسنة في أقواله وأفعاله... وقبل متابعة الشيخ العباس ابن ابراهيم فيما يذكره عن مولاي ابراهيم تلاحظ : أن الصوفية كثيرا ما يفخرون بأنهم من أتباع السنة.

وفي هذا المجال ينقل ابن الزيات في التشوف : أن عبد العظيم بن عبد الله أمغار، قال لإخوته : أتدرون بما زاد والدكم على صالحي المغرب ؟ قالوا لا ندري، فقال ما فاقهم بكثرة صلاة، ولا صيام وإنما فاقهم باتباع السنة، فكان إذا صلى العتمة لا يتحدث مع أحد للنهي الوارد في النوم قبلها، والحديث بعدها... (التشوف : 192).

وبعدما ذكر العباس بن ابراهيم قصة فرار مولاي ابراهيم من السلطان زيدان بن أحمد المنصور ـ لكيك ـ من عمالة مراكش يقول : هناك شاع ذكره وفاح على المريدين سره، فقصده الناس من الآفاق البعيدة، وشدوا إليه الرحال من النواحي الشاسعة، وازدحم على بابه مالا يحصى حتى إنه اجتمع عنده في بعض الأيام ثلاثون ألفا من الرجال، وتسعة آلاف من النساء... وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر... وذلك دأبه وسيرته على الدوام.

وكان يقول : لا يأتينا إلا من أمنه الله، لأن مقامنا هذا مقام ابراهيم الخليل، ومن دخله كان آمنا... وبعدما نقل كثيرا من أخباره قال : «كانت له مشاركة في العلوم أخذ عن الشيخ أحمد المنجور، وعن عبد الله بن طاهر الحسني، وأبي مهدي السجتاني، وغيرهم، توفي عن سن عالية سنة 1072 هـ.[4]

ونستخلص من المعلومات السالفة عن بيت آل أمغار الدكاليين، أن هذه الأسرة امتد إشعاعها الروحي داخل دكالة وخارجها، وكثر الصالحون من بين أفرادها عبر فترة طويلة من الزمان، تمتد من القرن الرابع الهجري إلى عهود متأخرة.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن إقليم دكالة كان غنيا بعطائه الفكري والروحي وقد اشتهر كثير من أفراده على مستوى المشرق والمغرب حيث استطاع كثير من الدكاليين أن يفرضوا وجودهم في الميدان الفكري بالمغرب، والجزائر، وتونس، ومصر...

واستطاع شاب من إقليم دكالة أن يفرض نفسه على الأوساط العلمية بمصر وبلاد المغرب العربي وغيرها حيث تسنم مرتبة الإمامة في العلم في ريعان شبابه، وهو الشيخ الإمام محمد بن علي الدكالي (720 ـ 763) دفين مصر.

4) ترجم له الحضيكي في الطبقات 1 : 127.
الافراني في الصفوة ص : 148.
وانظر الإعلام للعباس بن ابراهيم : 1 : 181 ـ 182.

واعظ، مفسر، فقيه، له شرح على عمدة الأحكام - في الحديث لعبد الغني المقدسي (ت : 600 هـ) في : ثماني مجلدات، وله : «تخريج أحاديث الرافعي» و«كتاب الفروق» و«تفسير مطول، سماه : «السابق واللاحق» التزم فيه عدم النقل من أي تفسير، وله : «المذمة في استعمال أهل الذمة» وله : «إحكام الأحكام الصادرة من بين شفتي سيد الأنام» (مخطوط) وله شعر جيد...

هذا وما يزال الحديث عن نبوغ الشيخ أبي شعيب الدكالي يملأ الأسماع، والحديث عن حفظه وإتقانه، وسعة إطلاعه... يهز النوادي، ويتناقله عشاق المعرفة، وطلاب العلم ومحبيه...

فآل أمغار الذين تحدثنا عنهم في هذه العجالة هم نموذج من نماذج إقليم دكالة الغني بعلمائه وصلحائه.

سلا : عبد القادر العافية

سوى البلادة فيه...

لي صـــــاحب ليس فيـــــه
ســـوى البـــلادة فيـــــه

ســـألتـــــه عن أبيـــــه ؟
فقـــــال : «خــــالي شعيب»



في عيدك الذهبي يبدع شاعر ... ويطيب إنشاد ويمتع ناثر
ستون عاما من حياة ملؤها ... غرر تضيء وكلهن مفاخر
ستون عاما كالمشاعل نورها ... في الخافقين وفي المحافل باهر
كالعقد في جيد الزمان وضيئة ... ما مثلها بين العقود جواهر
لكأنني بك في الطفولة برعم ... غض وغصن في الشبيبة ناضر
ما زلت تسمو في ظلال أبوة ... مثلى، ويغمرك الحنان الغامر
حتى ارتقيت ذرى الكمال ولم تزل ... يسمو بهمتك النبوغ الباكر

○ □ ○

ماذا سيقطف شاعر من روضكم ... وهو المخير في الجمال الحائر ؟
أني التفت رأيت شخصك ماثلا ... ملء العيون وأنت فيها حاضر !
تهوى الشراة نضارة العيش التي ... تغري ويغرقها النعيم الوافر
وتغوص في لذاتها ونعيمها ... ويحفها من كل ذاك مظاهر
ويشاء ربك أن تكون نموذجا ... لم يمتلكه أوائل وأواخر !
لم تله والأحداث تلهو في الصبا ... ودم الشباب عواطف ومشاعر
أو تنس أنك للنضال ميسر ... ولأمة أوهى قواها الغادر
ألهمت أن العلم خير وسيلة ... لخلاصها وهو السلاح الباتر
فكرعت من شلاله وسبحت في ... محرابه شوقا وجفنك ساهر

حتى استـويت كمـا أرادك والـد ربى فلم يفخر بمثلـك فـاخر !
فـإذا استشرت فـأنت فكر ثـاقب وإذا نطقت فـذو بيـان سـاحر
وإذا عـزمت فـذو يقين صـادق أن الإلاه وراء خطـوك نـاصر
سعي دؤوب لا يمـل وقـدرة خـلاقـة ومـلاك سلم طـاهر
وأرى سـواك يـذم مـا يمنى بـه وترى وأنت لمـا تـلاقي شـاكر !
ان الحيـاة معلم. نكبـاتهـا درس يعيـه على الطريق السائر !

○ □ ○

قرت بـأنسـك عين والـدك الـذي ضحى وتـوجـه الأيـاب الظـافر
شـاركتـه شرف القيـادة واعيـا أن القيـادة محنـة ومخـاطر !
ورسـالـة وأمـانـة لم يحتمـل أعبـاءهـا إلا عظيم صـابر !
وخلفتـه فـازدان عرش وازدهت بـك في حمـاه مكـارم ومـآثر
والحكم ليس تسلطـا لكنـه عهـد وحب جـامـع وأواصر !
والحب مـا أعطيت حبـا مثلـه وصفت عليـه سرائر وضمائر !

○ □ ○

تبني بعـزمـك مـا يـوفر أمنهـا لغـد بـدت في الأفـق منـه بـوادر
في كـل إقليم شـواهـد نهضـة وبكـل واد للنمـاء بشـائر
أعطيت أرض الخير مـاتحيى بـه فـإذا صحـاريهـا ربيـع آسر
وإذا السـواعـد بـالمعـاول تلتقي فيفيض بينهمـا عطـاء زاخر
وتضيء أنـوار العلـوم عقـولهـا فتـزاح عن عمي العيـون ديـاجر
أعليت بـاسم اللـه أعظم مسجـد لم يبنـه للـه قبلـك غـابر
تتضـاءل الأهرام من إجـلالـه علمـا بـأن صخـورهن مقـابر
إيثـار شعبـك وهـو شعب مسلم ونهـوضـه للخير وهـو يبـادر
رفعـا لأمتنـا منـارا شـامخـا هـو في سجلـك أول لا آخر !

○ □ ○

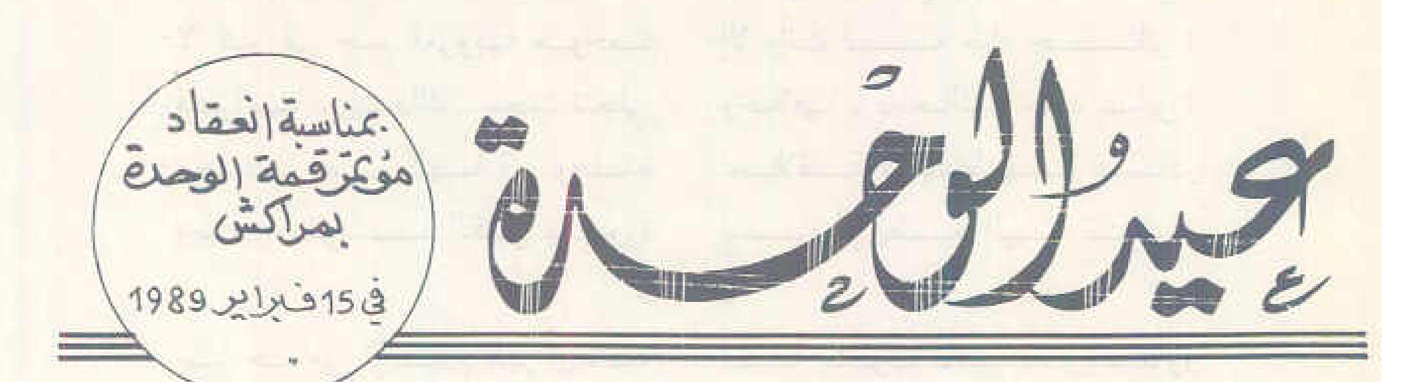
آمنت أنـك ملهم فيمـا ترى ربـان مركبـة خبير مـاهر
جنبت مغربنـا خطـوبـا روعت أبنـاءه وعـلا صـداهـا الهـادر
لـولا دهـاؤكمـا خبت نيرانهـا ولمـا انتهت فوق الحدود مجـازر !

بك فاخرت بين الشعوب محافل | وبك ازدهت بين الوفود منابر
تملى على الدنيا فتلقي سمعها | وتحس أنك في خطابك آمر !
لا كسر في جسم العروبة موجعا | إلا وأنت له ضماد جابر !
فنزاعها - بهداك - سحب تنجلي | وخلافها - بحجاك - خلف عابر !
وحدت يعرب كلها في وحدة | عملاقة لم يستطعها قادر
وصنعت مغربنا الكبير بثورة | بيضاء لم يطمح إليها ثائر !

○□○

يا حامي الإسلام طهر أرضه | مما يشوب صفاءه ويساور
فبغير هدي الله لا نهدى ولا | يهنأ لأمتنا غد أو حاضر !
وبغير دين لا تقوم حضارة | وبغير أخلاق حمانا شاغر !
أمعلم الأجيال والعلم الذي | به غنت الدنيا ودان مكابر
ماذا يقول الشعر عنك وأنت في | أوج المعالي وهو عنها قاصر ؟
هذي زغاريد الشباب بعيدكم | جذلى قصائد عنبر ومباخر
يهدي إليك ولاءه في قبلة | نشوى ويرقصه فؤاد طائر !
فاسلم له حتى ترى أغراسكم | قد أزهرت، والروض روض ناضر
يرعاك والأشبال رب لم يزل | يرعاك مما تختشي وتحاذر
هذا دعاء لا أماني شاعر | ملك البيان فطاوعته خواطر !

محمد الحلوي



الحمـــد للــــه عنـــا أذهب الحـزنـــا
وأفعم القلب منـــــا فرحـــــة وهنـــا

أضــاء من نــوره الــوهــاج ســاحتنــا
ودلــل السبــل المستعصيـــات لنــــا

وألهم القـــــادة الأبرار شرعتـــــــه
فصـــار واقعنـــا مـــا كـــان محض منى

تســابقــوا، وريــاح الشــوق تــدفعهم
إلى لقـــاء أذاب الــوجـــد والشجنـــا

المغرب العربي اليـــوم مـــولـــــده
والفرح عم قراه السمر والمـــدنـــــا

فسبـح اللـــه شكرا، صرت، يـــا وطني
أسمى وأعظم ممـــــا كنتـــــه وطنـــا

من «مـوريطـانيـا» إلى «ليبيـا» نسير غـداً
بـلا حــدودٍ عن الأحبــاب تفصلنـــا

بشراي ! أصبـح شعبي بعــد وحـدتــه
في العــدستين مليـونــا، ومنــه أنــا !

ولم يعـــــــد وطني قطرا بمفرده،
بـل صــار خمســة أقطــار تفيض هنــا

فكيف نخشى عـوادي دهرنـــا ولنـــا
ســور بخمســـة أبراج يحيــط بنـــا
حتى المصــائب تبـــدو غير مـوجعــة
مـع الجمـــاعـــة لا تـوهي لهـــا رسنـــا

☆ ☆ ☆

فيـــا شبـــاب بـلادي، طـــاب فجركم
فـاستيقظـوا، خـاب من للنوم قـد ركنـا
مـع العظـــائم والتـــاريـخ مـوعــدكم،
فـاسعـوا إليـه، فـإن اللـــه قـــد أذنـــا
صفي القلـوب، ونقـــاهــا، وطهرهـــا
وفجر الحب فيهـــا منبعـــا حسنـــا

☆ ☆ ☆

يـــا قـــــادة المغرب الأبرار بسمتكم
أضـــاءت الكـون نـورا حـولنـــا وسنى
من العيـــون مسحتم أدمعــــا، ومن الـ
ـقلـوب مـــا ضـــامهـــا من حسرة وضنى
على الطريـــق إلى آمـــــال أمتنـــا
نسير والحب والإيمـــان يـــدفعنـــا
بمغرب عربي واحـــــــد شسعت
أطرافـــه، وامتلت أرجـــاؤه مـــدنـــا
جـــذوره في ثرى افريقيـــا، ومهجتـــه
بـــالشرق، والعقـل منـه للشمـال رنـــا
إلى الـــذين استعـــاروا من حضـــارتنـــا
مشـــاعـلا قبسـوهـــا من أئمتنـــا
إلى الـــذين اقتفـوا آثـــارنـــا، ومضـوا
وخلفـونـــا نعـــاني الكرب والمحنـــا

☆ ☆ ☆

والآن يـــا أمتي، هـــا ســـاعتي أزفت،

وحـان بعثي، وخطـوي بـالعـلا اقترنـا

وجـــاء دوري لكي أحيـــا وآخـــذ من

جيراننـــا بعض مـــا أعطيتهم زمنـــا

علمـــا، وفنـــا، وآدابـــا، وفلسفـــة،

منـا استقـوهـا، ولم نطلب لهـا ثمنـا

☆ ☆ ☆

لنـــا خيـــار وحيـــد واحـــد أحـــد،

تـوحـــد، أو زوال مَـــاحِـقٌ وفنـــا !

لم تبـق وحـــدتنـــا حلمـــا ولا ترفـــا

تلـوكهـــا في نـــوادي الفكر ألسننـــا

بـل أصبحت مطلبـــا مستعجلا، ولـــه

تكـــاد سيـــارة الإسعـــاف تنقلنـــا

وفي اتحـــاد (أوروبـــا) أسـوة حسنت

لشعب مغربنـــا المـوعـود، لـو فطنـــا

وفي الخليـــج رجـــال للعـــلا سبقـــوا

بمجلس شرعـوا فيـــه الطريـق لنـــا

وفي العراق اتحـــاد ضم أربعـــة،

وضم مصر إلى الأردن واليمنـــــــا

رأوا بـنـــــور إلٰهيٍّ محجتـــــه

مضيئـــة فـــاقتفـوا آثـــارهـــا علنـــا

☆ ☆ ☆

أعظم بهـــا خطـوة عمـلاقـــة بـــدأت

على الطريـــق إلى تـوحيـــد أمتنـــا

من الخليـــج إلى شـــط المحيـــط وفي

قـدس النبـوات نحيي حفـل وحـدتنـا

☆ ☆ ☆

يــا أيهــا الخمســة الأطهـــار، إن لكم

في جمعكم بركـــات ســوف تشملنــــا

أنتم علينــا «حجــاب» لن يفــارقنــا

وسترة من عيـون الحـاســدين لنــا

كقبضـــة اليــــد أنتم قــوة ضربت

بشـــدة أذهلت شيطـــان فرقتنـــا

وجنــدلتــه، ومــا كــانت بقــادرة،

لــولا تــوحـــدهـــا، أن تقهر الــوهنــا

فلن يعــود إلى الــوســواس في أذن،

إنـــا دفنـــاه والبغضـــاء والإحنـــا

والسيف أقطـع في كف أصــــابعهــا

عليــه مُطبقـةٌ إن قَــدَّ أو طعنــا

قلـــوب ستين مليـــونــــا بكم علقت

وهـــو امتحــان عسير للـــذي امتحنـــا

الفرد للكـــل يغنيهم بقـــوتـــه،

والكــل للفرد في إجمـــاعهم أمنـــا

☆ ☆ ☆

مراكش لبست للحفـــل زخرفهـــا

وازينت بسنـــاء بـــاهر وسنـــا

تعطرت وتجلت في مبـــاهجهــا

مثـل العروس، فهـذا عرس وحــدتنـا

ورحبت بضيــوف العــز فــاتحـــة

صـــدرا لهم بضروب الحب محتضنــا

تقمصت في تجليهــــا وبهجتهـــا

مشـــاعر الحسن المنصـور سيـــدنـــا

مـوحـد الصف، راعي الشمـل جـامعـه،

حب الأشقــاء في أحشـائــه سكنــا

قـــدتم سفينتنـــا والحب رائـــدكم

في لـج بحر عبــاب يغرق السفنــا

وكم سفينــة تـوحيــد بنــا غرقت

وأغرقت كـل آمـــال لنـــا معنـــا

إلا سفينتكم هـــذى، فقـــد وصلت

بر السـلامـة مـأمـونـا ومـؤتمنـا

☆☆☆

عـدوى التكتـل والتـوحيـد ساريـة

يـا رب زدهـا لظى في قلب أمتنـا !

واشرح لـدعـوتهـا بـاقي الصـدور، ولا

تحرم من الهـــدف الأسمى أحبتنـــا

واجمـع مـوزعـة الأعضـاء في جسـد،

واجعلـه جسمـا قـويـا نـاميـا مرنـا

وبـارك اللـه فيمن صـالحـوا، وسعـوا

لجمعنـا وتـلاقينـا بـإخـوتنـا

وبـارك اللـه في الأبطـال قـادتنـا

إذ جـاهـدوا النفس حتى أطفـأوا الفتنـا

وليبـق رائـدَنـا وعيُ الشعـوب، ففي

وعي الشعـوب لنـور اللـــه ومض سنى

فلن نضـــل إذا سرنـــا على سنن

يضيئـه وعيهـا، أرشـد بـه سننـا !

الرباط : أحمد عبد السلام البقالي

مراعاة المرونة في القراءة القرآنية

للأستاذ محمد ابن تاويت

كثيرا ما أمعنت في منع «أشياء» من الصرف بالقرآن الكريم.

وكنت قد جنحت إلى قضية «التوهم» المعروفة عند اللغويين ونص على أمثلة منها في المعاجم الموجودة بين أيدينا. وأردت بذلك التوهم ما حصل فيها في الجاهلية وتركت عليه.

لكنني أخيرا انتهيت إلى قضية غيرها، وهي قضية الانسجام «الأرموني» في منعها من الصرف عند قوله تعالى : **﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾**.

وقد بر علينا هذا المنع في «أشياء» هذه، توهمات في نحو «أحياء» «وأخطاء» ولم يقف الأمر عند هذه التي تنتهي بالألف والهمزة بعدها ـ كأنها ألف تأنيث ممدودة ـ بل تخطت هذه العشوائية، إلى كل ما هو على زنة «أفعال» فصارت إذاعاتنا تمنع نحو «أفعال» «وأطوار» «وأوهام» «وأغلاط» مما تضرسنا به الإذاعة الوطنية وغيرها كل يوم وقد قلدتنا الإذاعات الجزائرية ـ وهي دائما تقلدنا ـ في كل شيء، شكلا وموضوعا. أذكر من هذا الأخير، أني ذكرت أول السبعينيات، بإذاعة فاس، أن البوصيري من الجزائر، فانطلقت في الحين إذاعاتها، تهلل وتكبر بهذه «الجزائرية»...

المهم أن «التوهم» هذا إن كان منشأ لمنع الصرف في «أشياء» أفضى ـ كما كنت قائلا ـ إلى توهمات أخرى، لم يقف عند «أخطاء» مثلا بل شمل حتى «أغلاط»، على سبيل المثال.

وهنا يطرح علينا السؤال، ما هي الأرمونية، في «أشياء» هذه ؟ والجواب أننا لو لم نمنعها من الصرف، لوقعنا في قلق عظيم، بسبب اتصال «إنْ تُبْدَ» فلنقرأ الكلمة غير ممنوعة هكذا «عن أشياءٍ إن تبد». ولنستشر أذواقنا وما يعترينا بنطق «ن إن» من الكلفة، بل إن الكلفة تنكبها القراء، حتى وهي ممنوعة من الصرف حيث سهلوا همزة «إن»، حتى لا تصطدم الهمزتان بعضها مع بعض.

ويؤيد ما استظهرناه، بادئ ذي بدء منا، أن كلمة مصر وردت في القرآن أربع مرات ممنوعة من الصرف، ومرة واحدة مصروفة.

لماذا ؟ لأن الأربع المذكورة لم يتصل بها ما يغيرها عن حالها فبقيت على منعها هكذا :

أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا.

وقال الذي اشتراه من مصرَ لامرأته

وقال ادخلوا مصرَ إن شاء الله

قال يا قوم أليس لي ملك مصرَ وهذه الأنهار

أما الخامسة وهي الأولى من حيث الورود في المصحف، فهي مصروفة هكذا :

﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾. فعل مهل ما رأينا من التنوين تخفيفا كما قال الراغب، يعني من توالي الحركات لولا التنوين فيها فهنا عكس ما تقدم والعلة واحدة وهي التحقق من الثقل، هناك منع الصرف وهنا بصرف الممنوع منه.

لقد قرأ بعض القراء «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهارَ».

بفتح النهار، بدل كسرها، بالإضافة، كما في قراءتنا.

فقيل له ماذا تريد بصنيعك هذا ؟ فأجاب إنما أردت «سابق» بالتنوين... فقيل له «ولم لا تنون «سابق» إذن ؟ قال : لو قلت ذلك لكان أوزن...

يعني «أثقل» نعم : إننا لو فعلناه لتواردت محذورات بالتقاء السواكن الساكن الأول في «سابق» والثاني في النون الأولى من «النهار» وتوالت بذلك ثلاث نونات، إذ كل حرف مشدد، كما هو معلوم، أصله حرفان، وما أحرج ما يكون عليه اللسان، لو لم تسعفه قاعدة الإدغام في نون «النهار» ! وعلى هذا الاعتبار، منع من الصرف «أشياء» هنا ولم يمنع نظيره في نحو أحياء من قوله تعالى : **﴿أموات غير أحياء﴾**. فلو اتصلت «أحياء» ونحوها بنحو «إن» السالفة، لكان شأنها، والله أعلم، شأن «أشياء» ولمنعت من الصرف صورة، على الأقل، كأن يقال : **﴿أموات غير أحياء إن تُفَكِّرُوا﴾**.

وهنا نلقى سؤالا آخر، على ذلك القارئ، لم لا تستعمل الإضافة، كما في قراءتنا ؟ يجيب إنها «الأرمونية» نفسها، منعتني من ذلك في عمقها، ونحن نراعي «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر» كأننا قلنا : ولا الليل أن يدرك النهار، يعني «ولا الليل ينبغي له أن يدرك النهار، فهناك إذن مطابقة الصورتين، بينهما في الجملتين، نعم إن الإضافة عندنا، إضافة لفظية، وليست معنوية، وهذا صحيح بالنظر إلى قواعد الإضافة، ولكن الذوق لا يسلم بسوائية العمليتين، عملية النصب الصريح، بإعمال اسم الفاعل عمل الفعل، وعملية إضافته إلى مفعوله، إذ الإضافة تكون هامدة، ليست بالحيوية التي عليها الإعمال وهو عمل الفعل، صراحة، لا تقديرا، أو تحكما واحتكاما إلى قاعدة الإضافة.

وكما يحقق لنا هذه «الأرمونية» منع ما يصرف من الصرف، كذلك يحققها صرف ما يمنع من الصرف، وذلك مثل الاتباع لغيرها أو إتباع غيرها لها، كما في الصنفين في قوله تعالى : **﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب، كانت قواريرا قواريرا من فضة قدروها تقديرا﴾** وينقطع الاتباع بعد هذا، حيث نجد : **﴿وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾**، ذلك أنه لم يتعلق بأساور ما يتطلب التجمل بالاتباع، عطفا أو غيره بين الجمل والمفردات المنساقة لغيرها كما في قوله أيضا : **﴿وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا﴾**، وهكذا نجد كما في الأمثلة التي تضم النوعين :

قوم نوح وعاد وثمود (التوبة).

إلا أن ثمودا كفروا ربهم (هود).

قوم نوح وعاد وثمود (إبراهيم).

وعادا وثمودا وأصحاب الرس «الفرقان».

وأصحاب الرس وثمود (ق).

وأنه أهلك عادا الأولى وثمودا (النجم).

صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (فصلت).

كذبت ثمود وعاد بالقارعة (الحاقة).

ومن هذه الهرمونية ما نحذف الفواصل من نحو.

«فأضلونا السبيلا»، ونحو : **«وتظنون بالله الظنونا»**.

والقرآن ترتيل، بلا تطريب، كما يقول خليل، فلا بد من الانسجام في هذا الترتيل، قال تعالى : **﴿ورتل القرآن ترتيلا، إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا، إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا﴾**. ومما هو من هذا القبيل ورود «هذان» بالألف، في قوله تعالى : **﴿إن هذان لساحران يريدان﴾** مراعاة لما بعده : **﴿لساحران يريدان﴾** ليكون الانسجام تاما بين الكلمات في موازينها ورنيتها.

تطوان : محمد بن تاويت



ناظر الوقف

وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي

للأستاذ محمد بن عبد الله

18

VI دور ناظر الوقف في تنظيم المكتبة الإسلامية :

لقد أقيمت، لحفظ الكتاب، قديما وحديثا، عدة مكتبات جامعة في مختلف الحواضر العلمية في العالم، وحظي الكتاب بقيمة كبيرة في الإسلام وقبله، كما عني المسلمون به، وبإنشاء المكتبات العامة والخاصة في كل عصر، وفي كل مكان، بل إن الكتاب قد حظي منذ أقدم العهود بالحفظ والرعاية والحرص والصيانة، وقد عثرت إحدى البعثات الأمريكية في وادي الفرات على خزانة كتب تحوي ثلاثين ألف آجرة من الطين المجفف، مكتوب عليها بالخط المسماري معلومات عن شؤون إدارية وفنية وأدبية، كما عثرت بعثات أثرية أخرى على مكتبات في وادي النيل، من أقدمها مكتبة «حوتب»، وقد اشتهرت في القديم مكتبات عدة، كمكتبة الإسكندرية، ومكتبة الرها، ومكتبة نصيبين، ومكتبة القدس. كما قدمنا تفصيلا لذلك في الحلقة السابقة...

ولحفظ الكتب للقراءة والمطالعة، نشأت المكتبات في الإسلام، وذلك مع نشأة المساجد، وتحت إشراف الناظر، حيث جمعت الصحف من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ثم تفسير القرآن، ومن الكتب الدينية...

وكان بيت رسول الله ﷺ أولى المكتبات، حيث كان يجمع فيه ما يدونه كتاب الوحي من التنزيل، ثم نقلت المكتبة من بيت الرسول، ومن بيوت الصحابة إلى بيت أبي بكر، ثم حفظت هذه المصاحف في بيت عمر عند حفصة أم المومنين رضي الله عنها، إلى أن استعارها عثمان، ونسخ منها المصاحف، وصارت بعد ذلك بيوت الصحابة بمثابة مكتبات خاصة كبيت سعد بن عبادة الأنصاري، وكان فيه كتب تحتوي على طائفة من الحديث النبوي، وكبيت ابن مسعود، وتجمع فيه عدة صحف بخطه، وصحف المصحف كذلك، وكان عند أبي هريرة كتب فيها حديث رسول الله ﷺ، كما كان الصحابي عبد الله عمرو بن العاص يحفظ كتبا له في صندوق، وتجمع عند عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير كتب كثيرة.... ولما احترقت كتب عروة في يوم الحرة حزن عليها، وقال : «وددت لو أني استطعت أن افتدي كتبي بأهلي ومالي...».

☆ ☆ ☆

المكتبات المغربية :

في المغرب كانت المكتبات والخزانات الوقفية، منذ عهد الأدارسة، وباقي الدول التي تعاقبت على الحكم

الإسلامي في المغرب، بمثابة الخزانة العامة في تاريخنا المعاصر... ففي كل مسجد أو زاوية أو رباط تجد جملة من المكتبات الوقفية مفتوحة في وجه الباحثين والدارسين، تعير الطلبة ما يحتاجون إليه من كتب، يستنسخون منها، ويستفيدون ويفيدون... كما تجد المؤلفين والمصنفين يقفون كتبهم، بعد الفراغ من جمعها وتأليفها في خزائن المسجد، حتى أصبحت تلك المكتبات حافلة، بشتى المظان والمراجع... فهذا أحمد بابا السوداني لما كان في مدينة مراكش أيام السعديين ينقل عن عدد من المصادر الوقفية التي فقدت الآن، لندرتها، أو لتعدد أسفارها، ومرد ذلك إلى أنه كانت تفتح في وجهه خزانة جامع الأشراف الوقفية بحومة المواسين، وخزانة المنصور السعدي... ومن جهة أخرى، كان يجد مساعدة من السكان، ومن بين المثقفين في مدينة مراكش، فهو يسجل في مستهل كتابه الذي، اختصر فيه : «المناقب السنوسية» أنه لما كان في السجن، كان يزوره بعض الطلبة والفقهاء بمدينة مراكش، ويأتون إليه بالكتب الموقوفة ليقرأها ويطالعها، وهو بقيد السجن، وكذلك في بعض النسخ من كتابه : «نيل الابتهاج» تجد فاتحة يقول فيها : إنه بدأ تأليف كتابه لما كان في السودان، ولكن الكتاب جاء ضئيلا لقلة المراجع. وندرة المصادر حتى إذا دخل مراكش استفاد من الخزانة الموقوفة، ولا سيما من خزانة السعدي، التي وصفها لما شهدها، وانتفع بالمراجعة فيها بأنها «كانت تشمل على الطم والرم من كتب العلم».

بل إن المكتبة المغربية تهافت عليها كثير من الأجانب لوفرة ما كانت تنعم به من كتب، من ذلك ماذكره دوفيردان Gaston DEVERDUN في كتابه عن «مراكش» أن إيتيان هوبير Etienne Hubert الفرنسي الذي قضى بمراكش عام 1598م 1006 هـ تعمق فيها في اللغة العربية حتى صار من كبار علمائها. واكتفى بمغادرة هذه المدينة ممتلئا علما، ومثقلا جدا بالمخطوطات العربية التي فاقت ما حمله من الأموال والنفائس الثمينة [ص : 436]... وإن لويس الرابع عشر كلف سفيره دو مونسو DE MONCEAUX عام 1077 هـ 1667م بمهمة إلى المغرب الأقصى، وهي أن ينقب تنقيبا عن مخطوطات عربية وفارسية ويونانية وغيرها، ويبتاعها له، وقال له : إن من تلك المخطوطات شيئا كثيرا في خزائن جامع القرويين بمدينة فاس.(*)

☆ ☆ ☆

إن نظام الوقف في مجال الكتب والمكتبات، نظام كامل في كل مراحل العصور الإسلامية، تلمس ذلك من وثائق وحوالات تطوي أسرارا غزارا مهمة في سائر ميادين الأوقاف من مستندات ومشاريع عديدة دينية وعلمية واجتماعية واقتصادية وإدارية...

والأوقاف التي كانت مسؤولة عن المكتبة والتعليم قديما، قد حافظت لنا على هذا التراث المجيد، ولم تسلمه، أخيرا إلى المكتبة الوطنية العامة إلا بعد استقلال البلاد عندما تأكدت أنها تقوم بالحرص والصيانة على ما كانت تقوم به الأوقاف في القديم...

☆ ☆ ☆

لقد كانت المكتبات العامة أو الخزانة الملوكية المغربية في وقت مبكر، كما كانت المكتبات الوقفية منتشرة في ربوع المملكة، وفي مختلف العهود. وسواء في العصر الموحدي الذي نرى فيه خزانة الخليفة الفقيه العالم عبد المومن بن علي، ثم خزانة حفيده الخليفة يعقوب المنصور في مراكش واشبيلية تزخر بشتى المخطوطات النادرة، أو العصر المرابطي الذي تحققت فيه وحدة المغرب الحقيقية، وتحققت وحدة الملوكية المغربية تتخذ مكانتها المرموقة في سلسلة من الخزائن العلمية الجليلة حيث كانت خزانة الكتب الملكية في عهد علي بن يوسف تزخر بكتب

(*) خزانة الكتب العربية في الخافقين ص 586 - 1/587 للكونت فيليب دي طرازي.

العلوم الأندلسية والمشرقية كما وصفها الأستاذ المرحوم محمد عبد الله عنان، أو العصر السعدي أو المريني، وكذلك الوطاسي... فهذه مدينة العلم، فاس، كانت بها خزانة جامع القرويين عامة وكذلك خزانة جامع الأندلس كانت عامة، وكان عدد من المدارس التي أسسها المرينيون مجهزة بخزائن، وذلك كالمدرسة البوعنانية، ومدرسة الأندلس، ومدرسة الصفارين.[1]

☆ ☆ ☆

في العصر المريني :

لقد ازدهرت العلوم والآداب في العصر المريني، وتأسست الخزائن العلمية المرموقة، كان من أشهرها خزانة السلطان الكبير، والعالم المتبحر أبي عنان المريني، وهي التي تم تجهيزها وإعدادها للباحثين في عام 750 هـ، وقد كان مجلسه العلمي الحافل من أشهر المجالس الملوكية، حيث كان ينتظم فيه أقطاب نوابغ مثل الفقيه العلامة الخطيب بن مرزوق، والمؤرخ الفيلسوف الاجتماعي عبد الرحمن بن خلدون وغيرهما من صدور العلماء وأعيان العصر...

فلبني مرين يرجع الفضل في تقوية مركز مدينة فاس علميا، فقد وسع أبو عنان خزانة القرويين، وبنى المدرسة البوعنانية، فقد جاء في «جنى زهرة الآس»[2] «وأما خزانة الكتب التي يدخل إليها من أعلى المستودع الذي بها، فإنه لما كان من رأي أبي عنان رحمه الله تعالى حب العلم، وإيثاره، والاهتمام به، والرغبة في انتشاره، والاعتناء بأهله ومتحمليه، والتودد لقرائه ومتحليه، انتدب لصنع هذه الخزانة، وأوسع على طلبة العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان، واللسان والأذهان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها، وتنوع ضروبها وأجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى، ورجاء ثواب الله الأوفى، وعين لها قيما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة، وأجرى له على ذلك جراية مؤبده تكرمة وعناية، وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة...

وأما خزانة المصاحف التي أمر بها مولانا أمير المومنين أبو عنان، رحمه الله تعالى، في قبلة هذا الجامع، الناطقة بالخير الجامع، انثئ على حسنها ما لم يسبقه إليها أحد من أئمة هذه الأصقاع، فإنه رحمه الله تعالى، صورها في ذهنه الثاقب المبين، ثم أبرزها لمن صنع شخصها الجليل الحصين، فأبدى من ذلك ما هو المعهود من حسناته المأثورة، وسهل بها على الناس تلاوة القرآن في كل وقت من الأزمان، وأعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية، وأباحها لمن أراد التلاوة فيها بعد أن كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مر الأعوام والليالي والأيام، ونجز لها من قيد لإخراجها من هذه الخزانة وإبرازها وردها لصيانها في موضعها وإحرازها، وذلك عند الفراغ من حاجة الناس إليها، فلا يبدل ذلك ولا يغير، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وأجرى لذلك جراية واسعة، وكرامة ورعاية، وكتب فوق هذه الخزانة ما نصه : «الحمد لله، أمر بإنشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المومنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس، أيد الله أمره، وأعز نصره بتاريخ شهر شوال عام سبعين وسبعمائة، رزقنا الله خيرها...

☆ ☆ ☆

وفي مدينة مكناس توجد خزانة الجامع الكبير التي يرجع تاريخ تأسيسها إلى عهد ملوك الدولة المرينية، وقد كانت هذه الخزانة، في العهد القديم، تزخر بنفائس الكتب، لكن جلها تعرض للنهب والاختلاس، وهذا ما تحدث عنه

---

1) انظر وثائق عديدة عن وقف الكتب في مختلف العصور المغربية في المحاضرة القيمة التي كان قد ألقاها المرحوم الأستاذ محمد العابد الفاسي محافظ الخزانة الكبرى للقرويين التي ألقاها بمناسبة الاحتفال الألفي لجامعة القرويين... «المسند الصحيح» لابن مرزوق : البابان : الأربعون والواحد والأربعون...

2) جنى زهرة الآس لعلي الجزنائي ص : 76.

صاحب : «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس» حيث يقول :[3] «وفي الجهة الغربية من الجامع الكبير المكتبة العلمية، الجامعة لمحاسن الكتب القديمة، لولا اختلاس جل نفائسها، ومد اليد العادية في ذخائرها الثمينة، وإضاعة باقيها من ولاة الأحباس، بعدم التعاهد والإصلاح أولا، وتعطيل منفعتها بغلق أبوابها عن القراء ثانيا، حتى آل الأمر بسبب ذلك إلى أن صار الكثير مما بقي من كتبها التي يعز أن توجد في غيرها إلى حد لا ينتفع به لتمزقه وتلاشيه، ووضعه في محل الكناسة والأزبال، وذلك في المفاسد التي لا تباح، ومن العظائم التي أوقعت في الجناح.

ويحدثنا محمد بن القاسم الأنصاري السبتي في كتابه،[4] وهو يتحدث عن المكتبات الموجودة بمدينة سبتة، فيقول : «وعدد الخزائن العلمية بسبتة اثنتان وستون خزانة كان فيها في الزمن القديم بدور الأكابر، وذوي الأقدار خمس وأربعون خزانة كبني العجوز، كان جدهم الذي نوه بهم قد رحل إلى أبي محمد بن أبي زيد بالقيروان، وأخذ عنه جميع تواليفه، وقرأ عليه تفقها وغيرهم كالقاضي أبي عبد الله بن عيسى التميمي من أشياخ القاضي أبي الفضل عياض، والفقيه القاضي الزاهد أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأموي، والفقيه المحدث الحبيب أبي العباس العزفي اللخمي وسواهم، وكان منها في زماننا سبع عشرة خزانة، تسع بدور الفقهاء والصدور، كبني القاضي الحضرمي، وبني ابن أبي حجة وأشباههم... وثمان خزائن موقفة على طلاب العلم، **أقدمها الخزانة الشهيرة ذات الأصول العتيقة، والمؤلفات الغريبة خزانة الشيخ أبي الحسن الشاري المذكور التي بالمدرسة المنسوبة إليه التي ابتناها من ماله، وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم نفعه الله بها**، وأعظمها إحدى خزانتي الجامع العتيق الكائنة بشرقي صحنه، وبإزاء باب الشواشين أحد أبوابه، وكانت في الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنون، ولا نوع من المعارف أصلا مع تعدد مصنفات ذلك الفن، وكثرة دواوينه، وباقي هذه الخزائن مفترق، منها بالمدرسة الحديدة خزانتان، وبمسجد القفال خزانة واحدة، وبمسجد مقبرة زكلو أخرى، وهو أكبر مساجد سبتة بعد المسجد الجامع منها.

☆ ☆ ☆

ويمكن تقدير فداحة الرزء العظيم، والخطب الأليم، والخسارة الفظيعة التي أصيبت بها المكتبة المغربية من جراء احتلال مدينة سبتة الغادر، وغياب حضارة يانعة ضمتها تلك الخزائن العلمية، إذا نحن استحضرنا المركز العلمي الممتاز الذي كان لهذه المدينة المجاهدة، وما كانت تزخر به من مكتبات عمومية وخصوصية، هي نتاج حضارة هذه الأمة المغربية التي ننتمي إليها، في مختلف العلوم والفنون...

فكم ضاع من مؤلفاتنا في شواطئنا الشمالية والغربية التي استمرت سنين طويلة عرضة للاعتداء الصليبي، وخصوصا من قبل الإسبانيين والبرتغاليين والفرنسيين.

☆ ☆ ☆

وقوف المكتبات في العصر السعدي :

ولقد كان من المكتبات العظيمة في العصر السعدي، خزانة السلطان أحمد المنصور الذي اشتهر في نفس الوقت برعايته للعلماء وإيثارهم، كما يشهد بذلك أقطاب معاصرون ممن نعموا بهذه الرعاية، أمثال الوزير الكاتب القدير عبد العزيز الفشتالي صاحب القلم الأعلى، والحافظ المؤرخ أبي العباس المقري...

ففي أيام السعديين، وبمدينة مراكش نجدها نفس الظاهرة، فمن خزانة جامع الأشراف بحومة المواسين إلى

3) ص : 105 ـ 106 / 1.

4) اختصار الأخبار، عما كان بثغر سبتة من سني الآثار.

خزانة جامع ابن يوسف، إلى مسجد أبي العباس السبتي إلى زوايا وأمكنة أخرى...

ومن تأسيس الحرة مسعودة الوزكيتية أم أحمد المنصور مكتبة جامع الحرة بمدينة مراكش حوالي عام 995 بنتها في قبلة الجامع الذي شيدته بباب دكالة، وأوقفت عليها جملة وافرة من الكتب العلمية، وتنافس في إهداء الكتب العلمية إلى المكتبة كل من أحمد المنصور وأبنائه وأحفاده، وجملة من العلماء والمعتنين...

كما أسس مكتبة الحرم العباسي بمراكش أبو فارس عبد الله الواثق بن أحمد المنصور في قبلة الجامع الكبير الذي شيده بجوار ضريح أبي العباس السبتي، وقد عبر أحمد المقري عن كثرة الكتب التي أوقفها أبو فارس على هذه المكتبة بقوله : «وحبس عليها خزائن من الكتب العتيقة» فكأنه جمع فيها ما يملأ مكتبات عديدة.

وقد أسس مكتبة دار العدة في فكيك في مطلع القرن العاشر الشيخ عبد الجبار بن أحمد البرزوزي الفكيكي، وأوقف عليها هو وأولاده العلماء كتبا كثيرة، من ضمنها تآليفهم في التفسير والفقه والآداب «حبس على من ينتفع به من الذرية وغيرهم بالنظر فيها والانتساخ منها ان كان أصلا لذلك، ثم ترد بعد ذلك لمحلها، معقب مؤبد...».

وأحي السعديون مكتبة المسجد الأعظم بمدينة مكناس، وأوقفوا عليها العديد من الكتب، وازدادت عنايتهم بها عندما عين الأمير العالم زيدان بن أحمد المنصور واليا على مكناس.

وأسس مكتبة ابن يوسف بمدينة مراكش عبد الله الغالب حوالي عام 965 هـ عندما جدد المدرسة الكبرى المتصلة بجامع على يوسف المرابطي، وفضلا عن الكتب التي أوقفها الغالب على هذه المكتبة ظل المؤلفون وغيرهم من العلماء وذوي اليسار يتنافسون في وقف الكتب عليها...

كما أسس عبد الله الغالب أيضا مكتبة جامع الشرفاء بمراكش، وأوقف عليها من نفائس الكتب أكثر، وظل الأمراء السعديون والمحسنون من العلماء والأثرياء يوقفون عليها من أمهات الكتب ما جعلها في الجنوب قرينة مكتبة القرويين في الشمال، ومن هذه المكتبة كان أكثر استفادة أحمد بابا السوداني لتأليف كتبه الشهيرة في التراجم كما قدمنا.

☆ ☆ ☆

الخزانة الأسيرة لمولانا زيدان :

لقد كانت خزانة ولد المنصور السلطان الأديب العالم[5] مولانا زيدان الحسني فريسة لقراصنة الإسبان، وذلك في عام 1021 هـ ـ 1612 م لما كانت العلائق كدرة متوترة بين مولاي زيدان وإسبانيا بسبب تدخلها في الشؤون المغربية الداخلية، والحروب الأهلية التي نشبت بينه وبين أخيه الشيخ، ومعاونتها لأخيه، واحتلالها ثغر العرائش ثمنا لهذه المعاونة، وكان مولاي زيدان ملكا عالما أديبا شغوفا بجمع الكتب والخزائن النفيسة النادرة، وكانت مكتبته العظيمة تحتوي على مجموعات كبيرة من نفائس الكتب المشرقية والمغربية. وقد قال منويل : إن قراصنة الإسبان غنمت في بعض الأيام مركبا للسلطان زيدان فيه أثاث نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك.[6]

وهكذا تعرضت خزانة أبي المعالي زيدان السعدي لنكبة بعد ثورة ابن أبي محلى ضد زيدان (عام 1020 هـ 1612 م) الذي اضطر إلى مغادرة مراكش إلى آسفي، حتى

---

5) كان زيدان أديبا شاعرا فقيها مشاركا متضلعا في العلوم، وله تفسير على القرآن العظيم اعتمد فيه على ابن عطية، والزمخشري.

6) الاستقصا ص : 6/70.
انظر «الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ص : 186 ـ 1/187.

يسافر منها على طريق البحر إلى أكادير ومعه أمواله وذخائره ومكتبته النفيسة، وبها عدة آلاف من كتب الدين والآداب والعلوم والفلسفة... وفي مرسى آسفي استأجر مركبا فرنسيا حمله ذخائره، وكمية من عيون خزانته، تقدر بنحو أربعة آلاف مخطوط، في مختلف العلوم والفنون، ثم آل أمر هذا المركب إلى أن أسره القرصان الإسبان قسرا في عرض البحر، وذهبوا به إلى إسبانيا، فأمر الملك «فيليب الثالث» أن توضع الكتب في دير الأسكوريال، وفي أثنا سنة 1671م انقضت صاعقة على دير الأسكوريال، فأحرقت أكثر من ألفي مجلد من مخطوطاته العربية كما شب حريق عظيم في الدير التهم قسما مهما من هذه الكتب، ولم يسلم منها إلا نحو ألفي مجلد كما جاء في مقدمة فهرس «بروفنسال» ص : 8 ـ 9، هذه الكتب باقية إلى اليوم من «المكتبة الزيدانية» في قصر الأسكوريال، حيث وضع لها ثلاث فهارس : الأول قام به السوري الماروني السيد ميشيل كازيري Michel CASIRI في مجلدين بعنوان : «المكتبة العربية الإسبانية في الأسكوريال»، وظهر المجلد الأول عام 1760، والثاني 1770 م. والفهرس الثاني قام به المستشرق الفرنسي السيد «هارت ڤيك دير انبورغ Hartwig DERENBOURG حيث وضع المجلد الأول عام 1884 تحت عنوان : «مخطوطات الأسكوريال العربية»، وفي عام 1903 صدر الكراس الأول في المجلد الثاني...

وقد أصدر «ليڤي بروفنسال» LEVI - PROVENÇAL مجلدا جديدا يتمم عمل سابقه، ونشر عام 1928 بعنوان : «قائمة المخطوطات العربية في الأسكوريال»...

☆ ☆ ☆

استمر المغرب يطالب بهذه الكتب المسروقة، ولا سيما السلطان العلوي محمد الثالث، وكان هذا من أشغال سفارة محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان المكناسي، وهي التي ألف عنها : «الإكسير في فكاك الأسير»...

تلك هي المكتبة الأسيرة التي تتكون من مكتبة والد زيدان المنصور، ثم مما صار إليه من مكتبتي أخويه أبي فارس والمامون... وقد أضاف كتبا أخرى، وهي تلك التي تحمل أوائلها توقيعاته بخطه الشرقي.[7]

لقد اهتزت الأوساط العلمية المغربية لهذا الحادث العلمي الجلل، واعتبرته نكبة علمية قومية... وحاول الملوك المغاربة استرداد هذه المكتبة العظيمة، أو ما تبقى منها، ومن الكتب الأندلسية الأخرى بعد حريق الأسكوريال الكبير الذي وقع عام 1671، وأتلف معظم محتويات المكتبة الملكية.

ومنذ استيلاء الإسبانيين على هذه الكتب، وملوك المغرب متمسكون بالمطالبة بإرجاعها إلى المغرب، وكان ذلك من المهمات التي تسند إلى سفراء المغرب لدى البلاط الإسباني.

وقد حمل السلطان زيدان السفير الإنجليزي السيد «جون هرسون» رسالة مؤرخة بـ 14 يناير 1615، كانت موجهة إلى الحكومة العامة للأراضي الواطئة، كان يطلب فيها زيدان من هذه الحكومة أن توسط ملك فرنسا لويس الثالث، في أن يعمل على تحرير مكتبته التي كان قد وسقها في سفينة فرنسية يملكها رجل اسمه كيستلان بتاريخ يونيه عام 1612، فاستولى عليها الاسبان، وهي في طريقها، وقد قامت الحكومات العامة بعدة اتصالات مع الملك الفرنسي في هذا الشأن.[8]

ومن ذلك مطالبة الوليد بن زيدان بتلك المكتبة من «دوبرادو» JUAN DE PRADO عام 1040 ـ 1631 م.[9]

7) مراكش، لمؤلفه المستشرق ديفردن ص : 434، نقلا عن الأستاذ محمد المنوني.

8) ص : 127، «من زوايا التاريخ المنسي» للأستاذ محمد بن تاويت، مجلة «تطوان» عدد 9، عام 1964.

9) كما عند دوفيردان في كتابه : «مراكش» ص : 435.

وفي عام 1102 ـ 1690 م أرسل المولى اسماعيل عاهل المغرب الكبير وزيره محمد بن عبد الوهاب الغساني سفيرا إلى كارلوس الثاني ملك اسبانيا ليقوم لديه بمهمة مزدوجة هي الاتفاق على تبادل الأسرى، واسترداد الكتب العربية، وقد زعم الاسبان للوزير أن الحريق أتى على سائر الكتب العربية، وأخفوا عنه حقيقة ما تبقى منها، كما بعث بعد ذلك بنحو ثمانين حولا المولى محمد بن عبد الله بن اسماعيل ملك المغرب في عام 1179 هـ كاتبه أحمد بن المهدي الغزال بسفارة مماثلة إلى كرلوس الثالث ملك اسبانيا من أسرة البوربون، تدور حول افتكاك الأسرى، واسترداد الكتب العربية،[10] وقد استطاع السفير المغربي هذه المرة أن يحصل، إلى جانب افتداء الأسرى، على كمية وافرة من الكتب العربية التي جمعت له من مدريد وغرناطة، ولكن الإسبان أخفوا عنه، كما أخفوا عن سلفه الوزير الغساني، حقيقة الأمر فيما يتعلق بمجموعة الأوسكوريال، وما تبقى من كتب المكتبة الزيدانية.

ويقول الأستاذ محمد عبد الله عنان إنه ما زالت هذه البقية توجد حتى اليوم بمكتبة الاسكوريال، ومنها عشرات من الكتب النفيسة والنادرة وما زال على المغرب أن يسعى لاسترداد ما تبقى من تراثه العلمي المغصوب، ويزيد الأستاذ محمد عبد الله عنان في تعليقه على هذا الحادث بأن قصة المكتبة الزيدانية، وما بذله الملوك المغاربة لاستردادها، إنما هو دليل ساطع ـ على ما أسلفنا ـ من أن الخزائن العلمية العظيمة هي سنة للملوكية المغربية تحرص عليها، وعلى استمرارها.

☆☆☆

إن محتويات خزانة الاسكوريال من الكتب المغربية والأندلسية تكون 1955 مخطوطا، ومنها ما كتبت صيغة التملك بخط مولاي زيدان نفسه، ومن كتب خزانة مولاي زيدان بين هذه المجموعة : «لباب المحصل» لابن خلدون، و«المباحث المشرقية» لفخر الدين الرازي، والسفر الثاني من «نهاية الأمل، في شرح الجمل» لابن مرزوق التلمساني، و«جواهر العقدين، في فضل الشرفين» لنور الدين علي أحمد الحسني فهذه المخطوطات الزيدانية يجدها الزائر لمكتبة الاسكوريال مصورة معروضة بالقاعة، ومن بينها مصحف والده السلطان المنصور الذهبي رحمه الله.

وهناك ترجمة مغربية لفهرس الأسكوريال للأديب المغربي محمد بنعبد السلام السلوي، وزير السلطان المولى سليمان، وهي مظهر من مظاهر الاهتمام المغربي بالكتب العربية بالأندلس، وقد تبناها الوزير المغربي المذكور الذي كانت له هواية بالكتب. وتحتفظ المكتبة الحسنية بالرباط بنسخة فريدة منها تحمل رقم 6772، وقد أسماها : زمام الكتب العربية التي وجدت في الأسكوريال».[11]

المكتبات في عهد الدولة العلوية الشريفة :

ولما استقرت الدولة العلوية بمبايعة السلطان المولى الرشيد بن الشريف ثاني ملوك هذه الدولة واستدف له الأمر، واستقر النظام، كان أول عمل قام به تنشيط النهضة الفكرية والعلمية في البلاد، وإحياء ما كاد أن يندثر من معالم العلم، وآثار العلماء إذ لم تكن الدولة العلوية الشريفة، أقل حرصا واهتماما باقتناء الخزائن العلمية العظيمة، ورعاية العلم والعلماء، فالنهضة العلمية في هذا العصر اتخذت مكانتها المرموقة، والمولى الرشيد له مجالس علمية حافلة، وللعلماء في عصره أعظم النفوذ، فقد أنشأ خزانته التي شيد معالمها بمسجد الدار البيضاء ـ فاس الجديد، عام 1079 هـ، وكانت محتوية على دخائر ثمينة، ومخطوطات نادرة تكثر فيها الدواوين العلمية المجلوبة من الشرق الإسلامي آنذاك... وما زالت لوحتها التذكارية تحمل ذكر تأسيسها

10) نتيجة الاجتهاد، «في المهادنة والجهاد» ص : 58.

11) انظر مجلة، «البحث العلمي» مقالا بعنوان : «ترجمة مغربية لفهرس الأسكوريال» ص : 163 س 2، عام 1965.

على يده في عام 1079 هـ، وما زال الكبير من دخائرها يحمل صيغة التحبيس بتوقيع هذا السلطان العالم وأقدم ما عثر عليه من وثائق الكتب الموقوفة على الخزانة الرشيدية من المولى الرشيد نفسه، يرجع إلى تاريخ 1082 هـ، وهذه وثيقة وقف للسلطان مولاي رشيد موسومة بأول ورقة من الجزء الثاني من كتاب «المفردات» لابن البيطار، بسم الله الرحمن الرحيم : حبس مولانا الإمام العالم الهمام كافل أمة النبي عليه السلام الخليفة أبو المعالي مولانا الرشيد. جميع هذا الكتاب المسمى بابن البيطار المكتوب هذا على ظهر أول ورقة منه على خزانته التي أنشأها بالمسجد الأعظم من المدينة البيضاء أمنها الله لينظر فيه هنا، حبسا مؤبدا، ووقفا مخلدا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، قصد بذلك وجه الله العظيم. والدار الآخرة، وبسط أيده الله، يد قيم الخزانة على حوزه، فحازه، وشهد بذلك على نفسه، وهو بأكمله، وفي عام اثنين وثمانين وألف.

☆ ☆ ☆

ومن أعمال المولى الرشيد تأسيس الخزانة العلمية بالجانب الجنوبي من الجامع الأعظم بفاس الجديد وتحبيس نفائس الكتب عليه، ويدل لذلك ما يقرأه القارئ في نقش خشب بأحرف بارزة بأعلى المحامل التي توضع بها الكتب ونصه :

«الحمد لله حق حمده، هذه خزانة أمر بصنعها وإنشائها الإمام الأوحد الهمام، أمير المومنين، المتوكل على رب العالمين، مولانا الرشيد بن مولانا الشريف بن مولانا الشريف الحسني أيد الله أمره، وأعزه بعزه بتاريخ فاتح شهر الحرام عام تسعة وسبعين وألف».[11]

وفي عقد الحبس هذا لفظه : «حبس مولانا الهمام، غيث الغمام خليفة الله على عباده، وظله في أرضه وبلاده، فخر الأمراء، وسليل الأئمة الكبراء، ذو الجاه المديد، والعز المشيد، أمير المسلمين القاهر بالله أبو المعالي مولانا الرشيد، جميع هذا المجلد المسمى بالتلخيص، في تفسير القرآن العزيز المكتوب على أول ورقة منه على خزانته العلمية أنشأها بالجامع الكبير من حضرته العلية فاس الجديدة ليتتبع بها من فيه أهلية الانتفاع، من المتبوعين والاتباع، حبسا مؤبدا على الدوام والاستمرار، قصد بذلك وجه الله العظيم، وثوابه الجسيم، والدار الآخرة، بحيث لا يبدل ولا يغير، فمن سعى في تبديله أو تغييره، فالله حسيبه، وقصدا لإذاعة العلم وإفشائه كما هي سيرة الخلفاء المهتدين، أثابه الله على قصده، وخلد في صفحات المكرمات ذكره بالنبي وآله، وبسط أيده الله تعالى يد قيم الخزانة على حوزه مجازه عام 1082 هـ».

☆ ☆ ☆

وما اعتناء المولى اسماعيل بجمع الكتب، وبذل كل غال ونفيس في سبيل تحصيلها، فشيء طارت به الركبان، وحفظه له التاريخ حسبما قاله في «الظل الوريف»، ولفظه : «وأما آلات العلم وجمع الكتب فله نصره الله في ذلك الهمة البالغة، والرغبة السابغة، وقد جمع من الدفاتر وفي كل فن ما يحير العقول، وقال في «سنى المهتدي» لأبي الحسن علي الزرويلي : «حوت الخزانة الاسماعيلية من التصانيف، وجمعت من أنواع الدفاتر «وأسماء التآليف، ما لم تحوه خزانة بغداد، ولا علق بذهن الدانين الأستاذ».

لقد كانت خزانة السلطان المولى اسماعيل من أشهر الخزائن العلمية في عهده وكانت تحتوي على آلاف من الكتب في مختلف العلوم والفنون وقد أنشأ لها جناحا خاصا داخل المسجد الجامع بمكناسة، لتكون منهلا سهلا للعلماء والباحثين، هذا فضلا عن خزانته العلمية الخاصة التي أنشأها بالدار السلطانية أو الدار الكبرى.

وقال في «روضة التعريف» ما لفظه : «ومن عادته نصره الله أن يسرد كل يوم فصلا من كتاب إلى أن يختمه

11) مكرر ـ الدرر الفاخرة ص : 13 ـ 14.

ويبتدي كتابا آخر، إلى أن قال : «وله من المحاضرات مع كتابه والمباسطة في القطع الأدبية ما يخس زهر الرياض، ويزري بفتور الحدق المراض... من ذلك أنه خرج يوما وخلفه جارية وسيمة حاملة لسيفه، فاستنزل قرائح الكتاب في وصفها، فقال في ذلك خاتمة أهل الأدب عبد الحق السحيمي.[12]

حملت سيوف الهند وهي غنية عن حملها بفواتر الأجفان

حسب الفتاة جلالة ومهابة عز الجمال، وهيبة السلطان

☆ ☆ ☆

وقد حفظ التاريخ أنه كان ينتقي من أقطار إيالته الخطاطين المتقنين لنسخ الكتب القيمة، ويجري عليهم الجرايات الضافية، ولهم محل خاص بنسخ الكتب بأفنية القصر يغاديهم ويراوحهم فيه كل يوم، ويفيض عليهم سجال العطايا، ويمنحهم البلادات الهامة، والدور الأنيقة.[13]

فالمولى اسماعيل هو الذي أقام الأساس لخزانة الأسرة الملكية بعاصمة مكناس والذي «كان يرشح مهرة الطلبة العارفين بنسخ الكتب وضبطها وإتقانها أصحاب الخط البارع من فاس ومكناس، وغيرها من العواصم المغربية».

☆ ☆ ☆

وقد اقتفى أثره في ذلك الملوك بنوه وصفوته من بعده، ولا سيما السلطان المولى الحسن، فإنه كان له نساخون بارعون ملازمون لأبوابه ظعنا وإقامة ما فارقوه قط، إلى أن ختمت أنفاسه.

ومن آثار المولى عبد الله اسماعيل الأدبية والعلمية والذي تبنى النهضة العلمية التي كانت مزدهرة في عهد أبيه إصدار أوامره بإحياء المجموعة التي جمعها وزير والده أبو عبد الله محمد بن الحسن اليحمدي الـ [illegible] على أجزاء عشرة، وهذه النسخة توجد بالمكتبة الزيدانية، تحت عدد 833، وصرح فيها بأن الأمر بإحيائها هو هذا الأمير العالي الأوامر، وتحبيسه نفائس من الكتب العلمية القيمة على خزانة جامع القرويين العامرة.

☆ ☆ ☆

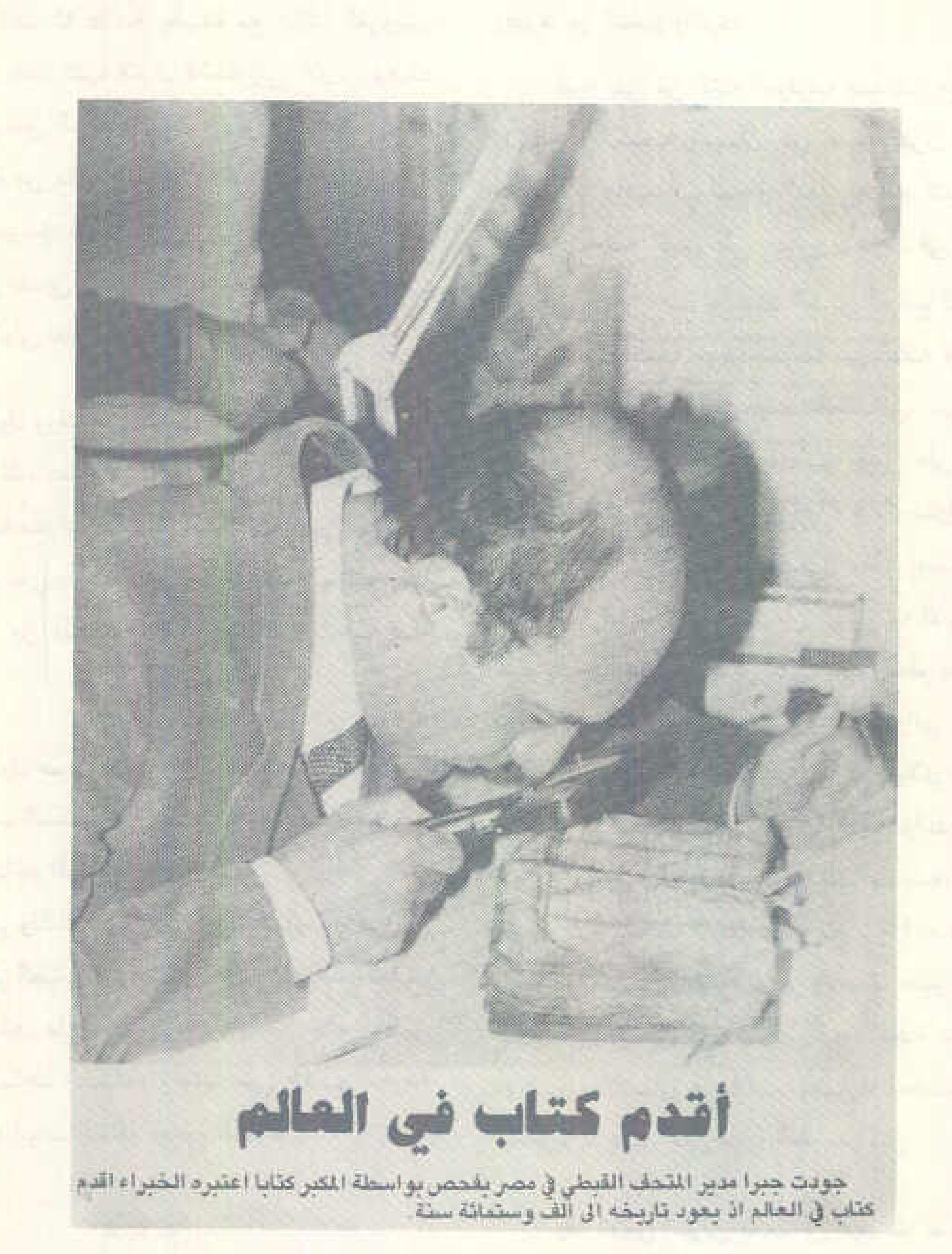
ومن الآثار العلمية لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن هشام، طبع شرح الخرشي الصغير في أجزاء ستة بالمطبعة الفاسية الطبع، الأنيق الذي لم يسبق له قبيل، وكان انتهاء العمل في طبعه ثامن ذي الحجة عام 1280 هـ، وكذلك شرح الشيخ التاودي على العاصمية، وشرح ميارة الصغير على المرشد، والأزهري على الأجرومية، وذلك أول ما طبع بفاس، وتحبيس كمية وافرة على القرويين من ذلك المطبوع، والذي وقع عنه الاستغناء أمر ببيعه رغبة في عموم النفع، وجنوحا للاقتصاد، وحذرا من الضياع، والوقوع في ورطة التبذير...

وقد وقف المرحوم مولاي عبد الرحمن بن زيدان على ظهير سلطاني في الموضوع، أصدره المولى محمد بن عبد الرحمن لخليفته ولده أبي علي الحسن جوابا له عن وصول ثمن ما بيع من نسخ شرح التاودي، هذا لفظه، «بعد الحمد لله، والصلاة، والطابع الإمامي المحمدي «ولدنا البار الأرضى سيدي حسن اصلحك الله، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، فقد وصلنا كتابك تذكر فيه أنك وجهت 16625 ست عشرة مائة متقال، واثنين وستين مثقالا وخمس أواقي ثمن نسخ 300 شرح التاودي للتحفة التي وجهنا لك بحسب إحدى وثمانين أوقية صغيرة، وثلاثة أثمان لكل نسخة، وبينت ما حيز 176 منها لجانب الأحباس المراكشية...».

☆ ☆ ☆

12) نسبة لسحيم فخذ من قبيلة بني حسن إحدى قبائل المغرب الأقصى العربية الشهيرة.

13) «الدرر الفاخرة» ص : 40.



أقدم كتاب في العالم

جودت جبرا مدير المتحف القبطي في مصر يفحص بواسطة المكبر كتابا اعتبره الخبراء اقدم كتاب في العالم اذ يعود تاريخه الى الف وستمائة سنة.

وهذا سيدي محمد بن عبد الله الذي أنعش العلم، ونشر فكرة الإصلاح، وجدد الدولة، وناضل عن مذهب السلف، والذي كانت له علاقة وطيدة مع خزانة القرويين التي وقف عليها عدة كتب لاتزال قائمة إلى الآن... وهذه وثيقة وقف، من قبل السلطان المذكور مرسومة بأول ورقة كتاب : «النخبة، من مشبه النسبة» : الحمد لله حبس مولانا أمير المومنين سيدي محمد نصره الله هذا المجلد على خزانة القرويين بفاس حبسا مؤبدا، ووقفا مخلدا، وفي ثالث جمادى الأولى عام 1175 هـ.

ويوجد بأول ورقة من كتاب أجوبة ابن سحنون ما صورته : الحمد لله، هذا السفر المبارك مما حبسه مولانا الإمام سيدي محمد ابن مولانا عبد الله أمير المومنين الحسني العلوي على طلبة العلم بحضرة فاس لينتفع بها هنالك، وقيده من علمه في اسلاخ جمادى الثانية عام 1175 هـ.

لقد كان أول عمل قام به المولى محمد بن عبد الله في رحاب وقف المكتبات، تحبيس كتب جده المولى اسماعيل على مساجد المغرب، وكان عددها يربو على اثنى عشر ألف مجلد. وذلك لكي ينتفع بها الدارسون في كل مكان، ومن سائر الطبقات والفئات، وقد أبى هذا الملك العالم إلا أن يتنازل على أغلى ثروة ورثها من جده العظيم، ويوزعها على مساجد المملكة، ويقفها على طلاب المعرفة ليسر لأبناء أمته أبواب الثقافة ومنابع المعرفة...

☆ ☆ ☆

وفي مدينة مراكش توجد عدة كتب موقوفة من المولى محمد بن عبد الله، يرجع تاريخ تحبيسها إلى ما قبل عام 1171 هـ. ولما بويع وزع مكتبة جده. وأوقف الكثير منها على المساجد تلبية لرغبة ملحة قديمة طالما راودته... ويكفي أن نشير إلى ما وقفه هذا الملك العظيم من كتب في ربوع المملكة في آسفي، ومراكش والصويرة والرباط وفاس وزرهون ومكناس، وسلا، وتطوان وطنجة، وغيرها من المدن والقرى.

فمما بقي من كتبه الموقوفة بمدينة مراكش الكتب الآتية : «الكشف والبيان، في تفسير القرآن» لأحمد بن محمد بن ابراهيم أبي اسحاق التعلبي، وقد كتب على الجزء الأول منه أنه حبس على جامع الأشراف في السادس ذي الحجة عام 1174 هـ، والممهد الكبير، الجامع لمعاني السنن والآثار، مما تضمنه موطأ مالك من الفقه والآثار، وذكر الرواة لمحمد بن علي بن يوسف العثماني، بقي منه سبعة وثلاثون سفرا، وكتب عليه أنه حبس على طلبة العلم بمراكش مستهل رجب عام 1174 هـ، وحواشي الحفاف الرعيني على برهانية السلالجي، وهو إيضاح العقيدة البرهانية لمحمد بن أحمد بن عبد الله الأزدي الاشبيلي المعروف بالحفاف، حبس على طلبة العلم بمراكش رجب عام 1174 هـ، ونوادر ابن أبي زيد القيرواني، ويتألف من خمسة عشر جزءا، وحبس على ضريح مولاي علي الشريف بمراكش في عشرين صفر عام 1158 هـ «والذخيرة». حبس على جامع بريمة، يوجد الجزء الثالث منه، «والاكتفاء»، حبس على مسجد السبتي بتاريخ 1172 هـ، «والأحكام» لعيسى بن سهل بن عبد الله ابن الأصبغ، حبس على الخزانة العلمية بالمواسين في السادس ذي الحجة عام 1174 هـ، «وكتاب الإشارة في آداب الإمارة» لمحمد بن الحسن الحضرمي، حبس على طلبة العلم بمراكش.

وقد اعتنى المولى محمد بن عبد الله بمكتبة المسجد الأعظم بمدينة آسفي، وقد وصفها الكانوني، وتحدث عن بعض نفائسها، وهي أول مدينة اعتنى بها منذ ولايته للعهد نيابة عن أبيه بمراكش، وقد وقف عليها مائتين وسبعة وعشرين كتابا، كما أن أفراد الشعب كانوا يقفون كتبا في كثير من المساجد فهذا القائد عبد الرحمن بناصر أوقف على مدينة آسفي نحو أربعة عشر ومائة كتاب، منها «كتاب

عيون الأثر، في فنون المغازي والشمائل والسير» للحافظ، ابن سيد الناس اليعمري.[14]

وهذا مسجد القصبة بمدينة الصويرة الذي يحوي خزانة الكتب التي أسسها المولى محمد بن عبد الله، ولا زالت بها عدة كتب خطية من تحبيسه كما هو مسجل نص إشهاد منه على نسخة من كتاب تهذيب الإمام البرادعي لمسائل المدونة المختلطة.

☆ ☆ ☆

وما زالت مكتبة المسجد الأعظم بمدينة سلا تحتفظ ببعض الآثار مما حبسه عليها من الكتب «كشرح القرافي»، «ومفتاح العلوم» للسكاكي في مجلد، ومنها الدماميني في النحو في سفر ضخم مبتور... وفي الأعوام الأخيرة جددت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية معالم هذه الخزانة وأفردت لها جناحا خاصا وفتحت أبوابها لطلبة العلم ورواد المعرفة...

ويجب أن لا نغفل عن وقف المحسان المفضال المرحوم السيد الحاج محمد الصبيحي الذي أوقف خزانته العلمية العظيمة على طلاب العلم والمعرفة ينسلون إليها من كل حدب وصوب، فقد جمعت هذه الخزانة جميع ما يمكن أن يسعى إليها الطلاب والباحثون سواء في الكتب أو المجلات أو الدوريات والوثائق، فرحمه الله وأطال عمر ولده البار سيدي عبد الله الصبيحي الذي ينفق عليها من ماله الخاص ويستقبل العلماء ويكرمهم في بيته بجميع أنواع الاكرام كما يزود الطلاب والباحثين بما يقدر عليه من جميع أنواع المبرات...

☆ ☆ ☆

وقرب المسجد الأعظم بالرباط توجد مكتبة علمية عمومية من حبس السلطان سيدي محمد بن عبد الله، لأنه كان جمع عددا وافرا من الكتب العلمية يزيد على اثنى عشر ألف مجلد، كما قلنا، وحبسها على مساجد الغرب، فناب الرباط قدر «له بال، منه تأسست المكتبة الحبسية لينتفع بها من هو أهل لها كما جاء في نص التحبيس،[15] وقد أمر السلطان المولى عبد الحفيظ بإحصائها، وانتخب منها ما انتخب، ثم بقي منها في حكم العدم إلى أن قيض الله به همة من أصدق الهمم، وذلك لما تناولت يد الإصلاح أحباس الرباط، فصدر الأمر المولوي لجناب ناظرها بالبحث عن البقية الباقية من تلك الكتب الوقفية في خزائن القضاة والنظار والبيوتات العلمية إلى أن جمعت من ذلك مائة وواحدا وثلاثين مجلدا كلها خطية منها تسعة عشر مجلدا من «البيان والتحصيل» لابن رشد، وثمانية من نسخة تامة من «البخاري»، وثمانية من «القسطلاني»، وسبعة من «ابن حجر»، وخمسة من «المعيار»، وخمسة من «الحلية»، وخمسة من «شرح بناني» على «سيرة الكلاعي» المسمى : «مغاني الوفاء بمعاني الاكتفا» وأربعة من شرح «الدراتي» على «الموطأ»، ثم البعض من الزرقاني، و«الترهيب والترغيب» للمنذري، «والإحياء» للغزالي، «والمدخل» لابن الحاج، «والذخيرة»، «ومختصر ابن عرفة»، وكبير الخرشي، والمواق، «وشرح العمل»، «والحطاب»، «واختصار البرزلي»، «والاستيعاب» لابن عبد البر، وشرح «نظم ابن سينا في الطب» وغيره، «والتسهيل» وشرحه للدلائي، «وشرح الكافية» لناظمها، «والمقامات الحريرية»، وكتاب «البداية والنهاية»، «وشرح المواقف»، «والاصابة»، «وشرح التهذيب»، «والشيخ يحيى على المدونة» وغير هذا من الكتب، وكلها بخط

---

14) أسفي وما إليه. ص : 153.

15) مما جاء في بعض الوثائق المكتوبة على تلك الكتب أنه يشترط أن تكون على يد الإمام أبي عبد الله محمد بن قاسم السجلماسي صاحب العمل الرباطي، وشارح العمل الفاسي... فلم يزل القيم بتلك المكتبة مدة مقامه بالرباط إلى أن غادره بأمر مولوي إلى بجعد فكانت الكتب لا تخرج إلا على يده، وسيدي محمد بن عبد الله هو الذي أتى بهذا العالم إلى الرباط ليدرس بها البخاري.

مغربي، والباقي، وهو نحو العشرين مجلدا بخط مشرقي...[16]

☆☆☆

وتوجد مكتبة أخرى حبسية بالرباط من آثار شيخ الجماعة بالرباط أبي إسحاق التادلي رحمه الله الذي كان وقفها على طلبة العلم بالرباط، وما يزال بعضها بخزانة قائمة في ضريحه، والبعض منها تلاشى، والبعض عند أولاده، وكانت هذه المكتبة تشتمل على عدة كتب خطية ومطبوعة وعلى الكثير من مبيضات تآليف الشيخ أبي إسحاق، وهي مؤلفات عديدة تقدر بمائة وعشرين تأليفا في كثير من الفنون.[17]

☆☆☆

إن المتتبع لأعمال المولى محمد بن عبد الله الواسعة لنشر الثقافة الإسلامية بالمغرب، يدرك، أيضا، أن البادية المغربية نالت حظها من وسائل التثقيف كالمدينة، وأن النواحي النائية والقريبة في هذا العمل سواء من سجلماسة إلى طنجة إلى مراكش إلى غيرها من النواحي التي ما زالت أعماله فيها محتاجة إلى البحث والتنقيب، يعطي صورة مشرقة عن جهاد المولى محمد بن عبد الله لإصلاح التعليم والثقافة، وبث الوعي الإسلامي في أوساط الأمة المغربية مستعملا مختلف الوسائل المتوفرة لديه...

ومن الأمثلة على شيوع الثقافة، وذيوع العلم، وانتشار المعرفة وبث المكتبات في القرى أيضا، ما ذكره أبو الربيع سليمان الحوات من أن خزانة الجامع الأعظم بتازروت الواقعة عند منتصف الطريق بين العرائش وتطوان في وسط قبيلة بني عروس، كانت تشتمل على جملة من الكتب المعتبرة من وقف السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ثم آل أمرها إلى الاندثار.

وما يقال في مكتبات المساجد في المدن والقرى، يقال مثله في مكتبات الزوايا والأضرحة المشهورة المقصودة في المغرب، وذلك في خصوص الزوايا الملتزمة بالسنة، ونشر العلم في أوساط الأمة... أما التي كانت مأوى للشعوذة والفساد وإضلال الناس، فقد انتقدها في أحد رسائله...

وإننا لنلاحظ بأنه في العصر السعدي والعلوي وجود خزائن وقفية تتعدد وتنتشر في البوادي انطلاقا من خزانة تامكروت قرب زاكورة، فإذا انتقلنا إلى سوس نجد بها خزائن بعض الزوايا والمؤسسات العلمية، وفي الأطلس المتوسط نجد به خزانة الزاوية العياشية زاوية سيدي حمزة التي كانت هي والزاوية الناصرية[18] في العهد العلوي، وقبل هذا وذاك، فقد تأسست خزانة الزاوية الدلائية، وخزانة الزاوية الشرقاوية، وخزانة مدينة «ابزو»، وزاوية «تانعملت» وغيرها... ولما جاءت فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله - كما أسلفنا - عمد إلى خزانة جده المولى اسماعيل المليئة بالنفائس ففرق محتوياتها على المساجد والزوايا بالمدن والقرى... وكانت هذه المكتبة الاسماعيلية بدويرة الكتب من مكناس، وكان أمره بذلك عام 1175، وكانت تزيد على الاثنى عشر مجلدا، وزعها على جميع مساجد المغرب، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن...

وما زالت خزانة مسجد الشيخ أبي يعزى تحتوي على مخطوطات ممهرة بخاتم تحبيسه حتى اليوم...

ومن ذلك كتب التاريخ والأدب التي أوقفها بمصر والاسكندرية، فقد ذكر الزياني، في «الترجمانة الكبرى» أنه لما بلغه أن ولده المولى علي خليفته على فاس اعتنى بسرد كتب التاريخ والأدب أمره بأن يبعث له بما عنده

16) مقدمة الفتح، من تاريخ رباط الفتح «لمحمد بوجندار رحمه الله ص 150، وقد نقلت هذه الخزانة إلى الخزانة العامة، وسجلت بها تحت حرف : ق.

17) نفس المصدر ص : 151.

18) الزاوية الناصرية محتوياتها متفرقة وموزعة، اليوم، بين شقين، قسم نقل إلى الخزانة العامة بالرباط حيث يحمل اسم جناح الأوقاف، ويشار إليه ضمن مخطوطات الخزانة العامة بحرف القاف وهو محتفظ به، ومعتنى به بالتسفير والترسيم... وهناك قسم آخر موجود في خزانة الزاوية بتامكروت، ويبلغ عدد محتوياتها أربعة آلاف مخطوط.

منهـا بمراكش إلى أن اجتمع عنـده عـدة نسـخ من «ابن خلـدون»، «وابن خلكـان»، «وقـلائـد العقيـان» «والأغـاني»، «ونفـح الطيب»، وتـآليف «ابن الخطيب»، ومـلأ منهـا صناديق، ووجهها مع الكاتب الصنهاجي بوقف بعضها بمصر، وبعضها بالاسكندرية...

☆☆☆

ولقد أحيـا المولى سليمان للدولـة شبابهـا، ونشطت حركـة التـأليف في عصره، وظهر علمـاء في مختلف العلوم والفنون، كما أسلفنا في طليعة هذا البحث، كما شـارك في الإنتـاج العلمي، وكتب في مـوضـوعـات مختلفـة، وحرر تقريرات ضـافيـة على موطـأ الإمـام مـالـك، ومـلأ هـوامش الـدواوين الفقهيـة بتعـاليـق مهمـة، وأسس خـزانـة مسجـد الرصيف بفاس، وملأها بنوادر المخطوطات ما جعلها ممتازة مـوقـوفـة على أهـل العلم والبحث... وهـذه وثيقـة وقف من المولى سليمان : «الحمد لله، حبس مولانا الـسلطـان الأعظم الخليفة الأكرم مولانا أبو الربيع ابن موالينـا الأمراء الخلفـاء، خلد الله ملكهم جميع هذا المجلد المكتوب على أول ورقـة منـه المحتوى على الجزء الأول من نسيم الريـاض في شرح شفـاء القـاضي عيـاض على خـزانـة مسجـد الرصيف الأعظم حبسا مؤبدا، ووقفـا مخلدا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا، وهـو خير الـوارثين، ومن بـدل أوغير فـالله حسيبـه وسـائلـه، ومتـولي الانتقـام منـه، وسيعلم الـذين ظلمـوا أي منقلب ينقلبون وذلك بواسطة الشريف الأجل العالم الأفضل سيـدي الحبيب بن المرحـوم مـولاي عبـد القـادر الحسني السجلمـاسي المحمـدي، وبسـط يـد النـاظرين بـالمسجـد المذكور الفقيهين المدرسين السيد محمد بن المرحوم السيـد محمد بن عبد الرحمن الولائي، والسيـد الطيب بن المرحـوم السيـد الخيـاط برادة، على حوز هـذا المجلـد المشـار إليـه، فحازه معاينـة بـالمسجد المـذكـور، عرفوا قـدره شهـد عليهم بأكمله، وعرفهم وانتصاب الناظرين لذلك، وفي 8 صفر عـام 1217 هـ.

لقد كان السلطان المولى سليمان عالمـا جليلا، محبـا للعلم والعلمـاء، وكـذلـك خلفـه السلطـان عبـد الرحمن بن هشـام، ولم تخب هـذه العنـايـة بـالعلم والعلمـاء، وإنشـاء الخزائن العلمية حتى العصر الأخير.

☆☆☆

ومن مآثر المولى الحسن الأول تجديد جامع الأنـدلس بفاس، ورده إلى شبابه، ووقف مائة مصحف عليه من خاص مـالـه يوم افتتـاحـه بعـد انتهاء العمل في إصلاحـه ليتعبـد التالون بالتلاوة فيها، وكان افتتاحه بصلاته فيه صلاة الجمعة من صفر عام 1256 أثناء زيارته لفاس.

☆☆☆

وقـد عمل الأمراء والمحسنون الواقفون على نشر العلم وبثه بالتدريس والتأليف وتقوية روح المنافسة بين العلماء، فـأمر المـولى محمـد بن عبـد اللـه بشرح «مشـارق الأنـوار» للإمام الصغاني، فشرح منها الشيخ التـاودي ابن سودة الثلث الأول، وشرح أبو السعود الشيخ عبد القـادر بوخريص الثلث الثاني في مجلد ضخم في القطع الكبير، وبخـط دقيق أنيق اشتمـل على أربعمـائـة صحفـة واثنتين وستين صحيفـة كمـا وقف على ذلـك مـولاي عبـد الرحمن بن زيـدان... وشرح الثلث الأخير من المشـارق الحـافـظ أبـو العـلاء ادريس العراقي، وأدركته المنية قبل إكماله، فأمر المولى محمـد بن عبد الله ولـده عبـد اللـه بإكمـالـه وإخراجـه من مبيضتـه، فامتثل.[19]

☆☆☆

ومن آثار المولى الحسن العلمية الجـاري نفعهـا طبعـه لتأليف خواجة الطوسي في تحرير أصول الهندسـة لإقليـدس على يد باشا العاصمة الفاسية الطالب عبد الله بن أحمد عـام 1293 هـ، ومنهـا طبعـه لشرح الإحيـاء «للشيـخ مرتضى الزبيدي آخر الحفاظ، وأمره بطبع شرح الشيخ ميارة الصغير

19) الدرر الفاخرة ص : 59 ـ 60.

على المرشد المعين عام 1292، وأمره لشيخه أبي العباس أحمد بن الحاج السلمي بتأليف تاريخ في الدولة العلوية، ومدله يد الاسعاف والمساعدة على ذلك، فألف «الدر المنتخب المستحسن» في خمسة عشر مجلدا، ومات قبل إتمامه،[20] وقد أمر العلامة السيد محمد بن ابراهيم السباعي المراكشي بوضع تاريخ في دولته العلوية، فامتثل ما أمر به، ووضع مؤلفه المسمى : «البستان، الجامع لكل نوع حسن، وفن مستحسن، في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن».[21]

وقد أمر كاتبه أبا العباس أحمد بن عبد الواحد ابن المواز بتأليف كتاب في الاستدلال على صحة الكيمياء، فألف في ذلك رسالته المعنونة بـ «مطلع الضياء، في الاستدلال على صحة الكيمياء». [22]

☆☆☆

ولقد عمل ملوك الدولة العلوية، في خدمتهم لعلوم القرآن وعلوم الحديث، أيضا أن قاموا على تأليف الكتب ونشر المؤلفات وأنفقوا على طبعها ليسهل تناولها، ووفروا المصادر والمراجع لطلبة العلم وشيوخه بجامع القرويين بفاس، وبجامع ابن يوسف بمراكش وبغيرهما من حواضر العلم ومراكزه بالمغرب، بل والمشرق أيضا، لأن بعض الكتب طبعت بالقاهرة وغيرها... ولعل من الآثار العلمية الوافرة، والمؤلفات التي نشرها السلطان العالم الشاعر المولى عبد الحفيظ ابن مولاي الحسن الأول ووقفها لفائدة الطلبة والعلماء :

1 ـ «حواشي الشيخ التاودي على صحيح البخاري».

2 ـ «مشارق الأنوار» لعياض. 3 ـ «حاشية سيدي المهدي الوزاني العمراني في الانتصار للسدل. 4 ـ «بداية المجتهد» للحفيد ابن رشد. 5 ـ «فتح الودود» للولاتي على مراقي السعود للشنقيطي. 6 ـ الإصابة، لابن حجر. 7 ـ تفسير أبي حيان، المعروف بالبحر. 8 ـ شرحا الأبي والسنوسي على صحيح مسلم. 9 ـ المنتقى للباجي. 10 ـ شرحا الحطاب والمواق على مختصر خليل. 11 ـ الأحكام الكبرى لابن العربي المعافري. 12 ـ «تحفة الملك العزيز، في الرحلة إلى باريز»، للوزير ابن إدريس العمراوي.

كان المولى عبد الحفيظ عالما جليلا، وأديبا شاعرا، حقق كثيرا من العلوم الإسلامية، وتفوق في بعضها عظيم التفوق، ورأس حملة الإصلاح السلفي، وترعم حلقات العلماء في دروسهم وبحوثهم، ونشر الكثير من الكتب النافعة لكثير من علماء السلف من تفسير وحديث ونحو ولغة، بمطابع مصر وفاس، وقائمة كتبه معروفة متداولة، وقف البعض منها على خزانة القرويين، ووزع أكثرها على أهل العلم ومما جاء في وثيقة حبسية من قبل هذا السلطان : «الحمد لله، حبس مولانا الإمام، تاج الأئمة العلماء الأعلام، شمس الملة والدين، محي شريعة جده سيد المرسلين، ناشر لواء العلوم، ومجدد مآثرها، منفق النفائس في إفشاء الكتب المعتبرة قصد العموم النفع بها سلطان العلماء المحققين، وعالم الأمراء المدققين، وخليفة رب العالمين أبو المواهب مولانا عبد الحفيظ، حفظ الله بدوام نصره الملة والدين، وأيده بالفتح المبين جميع عشر نسخ من هذا الكتاب المشتمل على نشر البنود، وما ذكر معه أعلاه المكتوب برسم التحبيس على كل أول ورقة من ثلثيه على خزانة القرويين عمره الله تعالى بدوام الذكر، وإقامة الصلوات، وألحقها بالكتب المحبسة عليها للانتفاع بها، احتسابا لله تعالى رجاء ثوابه العظيم، وبسط أعزه الله يد الحوز لقيم الخزانة المذكورة على النسخ العشر المحبسة

20) توجد منه في المكتبة الزيدانية تسع مجلدات.

21) توجد نسخة من «الدر المنتخب» بالمكتبة الزيدانية تحت عدد 1138 وعليها خط مؤلفها.

22) الدرر الفاخرة ص : 106.

بحوزها من الآن على أن لا تخرج منها الا للانتفاع بها، وترد لها عاجلا، حبسا مؤبدا، ووقفا مخلدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، ومن بدل أو غير، فالله حسيبه، وسائله، ومنتقم منه... شهد به عليه بأتمه وعرفه في أواسط شوال عام 1327.[23]

☆ ☆ ☆

وبسبب هذه المكتبات والخزائن العلمية صارت مدن المغرب وزواياه وقراه مجهزة بخزائن انطلاقا من سوس إلى مراكش والصويرة وآسفي والرباط وزرهون ومكناس وفاس إلى عدة نواحي في الأرياف المغربية، وتقوم مقام الخزائن العامة في العصر الحاضر، وتحت إشراف ناظر الوقف.

☆ ☆ ☆

ولما اعتلى المولى يوسف عرش أجداده الطاهرين كانت أول بادرة قام بها هي الاهتمام بالمكتبة الوقفية،[24] وبعث نشاطها، فأمر آنذاك وزارة العدل بإحياء هذا النشاط ومراجعة تنظيمه، فاتصلت وزارة العدل بنظارة الأحباس في سائر المدن بالقيام بجمع شتات الكتب ووضعها بأم المكتبات في كل مدينة، وبالفعل، نفذ أمر السلطان، وقامت حركة مباركة، حدثت على إثرها المكتبة العامة بالرباط 1919 داخل معهد الدروس العليا المغربية، وشيد مقرها الدائم سنة 1924، ثم بعد ذلك أصدر المولى يوسف رحمه الله ظهيرا بمراكش في فاتح نوفمبر 1926 **ينص على أن المكتبة العامة هي مؤسسة عمومية يستفيد منها الخاص والعام ومركز لصيانة وثائق الدولة،** واثر صدور هذا الظهير تجند موظفوها لإنقاذ التراث المغربي الذي نكبه الدهر وطمره فترة من الزمن.

اتفاق بين إدارتي الأوقاف والمكتبة العامة :

أبرم اتفاق بين إدارتي الأحباس والمكتبة العامة سنة 1930 حول تنظيم ما بقي من المكتبات العمومية الوطنية، ورفع هذا الاتفاق إلى صاحب الجلالة محمد الخامس قدس الله روحه فصادق عليه، ثم صدر اثره ظهير شريف مؤرخ بتاريخ 7 رمضان سنة 1349 هـ ـ 27 يناير سنة 1931 م خول للمكتبة العامة الإشراف الفني والإداري على سائر المكتبات الحبسية، أما إدارة الأحباس فهي المسؤولة عنها، وبالفعل فقد انبعث نشاط المكتبات من جديد، وذلك بجهود الأوقاف التي كانت تمد المكتبة بكل ما تطلبه من حاجيات، وشيدت بالرباط مكتبة عصرية كانت نواتها مجموعة التراث الإسلامي الموقفة على الجامع الكبير سنة 1936 م عرفت بالمكتبة الوطنية، فبلغت رسالتها بما قتنته من إدارة الأحباس من كتب متنوعة وزادت في نموها وتوسيعها بعدما صدع الإمام المقدس جلالة محمد الخامس، في أول وثبة ثورته الجامحة لما نبه الشعب، بالعلم والتعلم قصد نشر الوعي في المجتمع المغربي.

ثم بعد ذلك فتحت أبواب مكتبتي القرويين بفاس وابن يوسف بمراكش وبعد حين طلب الملك بتوسيعهما نظرا لضيق نظامهما ووضع الحجر الأساسي لمكتبة القرويين في حفل بديع يوم 9 ماي سنة 1940 م وأدت هذه المكتبة مهمتها أحسن أداء. حيث أصدر أمره بتنظيم الخزانة القروية تنظيما بديعا، وأنقذها من الغث الأكّال، والأرضة المبيدة بما أبقته اليد العادية، من الكتب العالية، ذات القيمة الغالية، التي قضت على نفائسها العارية، حتى أصبحت الخزانة من كثير مما يزينها عارية، بنهبها وإتلافها في السر والعلانية.[25]

☆ ☆ ☆

ولقد جرى الإمام محمد الخامس على اسنى أسلافه في تحبيس الكتب المفيدة عليها، ومما حبسه شرحي الإمامين الأبي والسنوسي على الإمام مسلم، والبحر المحيط، تفسير الشيخ ابن حيان وما معه، والإصابة لإمام الحفاظ ابن

23) انظر آثار النهضة العلمية للمولى عبد الحفيظ في كتاب : «الدرر الفاخرة ص : 119 ـ 120 ـ 121 ـ 122.

24) الدرر الفاخرة ص : 165.

25) الدرر الفاخرة ص : 166.

حجر العسقلاني مع الاستيعاب لابن عبد البر، وشرحي الإمامين الحطاب والمواق على المختصر الخليلي.[26] وفي عام 1948 فتحت مكتبة الجامع الكبير بمكناس... وفي هذه المرحلة خصصت المكتبة العامة السلط المحلية بوزان وآسفي وتازة وغيرها من المدن بإنقاذ ما هناك من تراث مغربي مطمر بالزوايا... وقد كان دور ناظر الوقف في هذا العمل جد مفيد...[27]

كما كشفت أخيرا، خزانة علمية بزاوية تامكروت الناصرية[28] في أقصى الجنوب بالمغرب، وكذلك كشفت المكتبة العامة، في الزاوية الحمزاوية[29] نفائس المخطوطات بواسطة الإدارة الوقفية، وتيسير مأموريتها... كما كانت إدارة الوقف قديما تعنى بنسخ الكتب ووقفها للعموم،[30] عاينها نشر العلم، والاهتمام بقضايا التعليم الديني والعلمي، ثم طبعها وتقديمها للعموم ابتغاء تعميم المعرفة، وتنمية الثقافة في الأوساط الشعبية المومنة.

☆☆☆

ولما استقل المغرب واصلت المكتبة العامة تنقيبها فكشفت خزانة مهمة بزاوية تامكروت الناصرية في أقصى الجنوب المغربي ووجدت فيها مجموعة قيمة من أمهات الكتب في حالة مزرية فأنقذتها بعملية التطهير في آلة خصوصية، وردت الأصول إلى الزاوية المذكورة واثر هذه العملية أصبحت تزود هذا الفرع بالكتب وجهزت المكتبة تجهيزا لائقا، وتمدها بكل ما تحتاجه لوقاية ذلك التراث القيم، وأصبحت المكتبة هناك تلعب دورا هاما كما كانت في الماضي وهي قبلة السواح من كل الآفاق والطلبة في تلك الناحية.

☆☆☆

وكشفت المكتبة العامة في الزاوية الحمزاوية المنسوبة لأبي سالم العياشي صاحب «الرحلة» من نفائس المخطوطات، فطهرت كتبها من الأرضة، ثم سجلت من جديد وصورتها بأجمعها. والأحباس التي كانت مسؤولة عن المكتبة والتعليم قديما قد حافظت لنا على هذا التراث المجيد ولم تسلمه إلى المكتبة العامة إلا بعد الاستقلال عندما تأكدت أنها تقوم بالحرص والصيانة على ما كانت تفعله الأحباس، ومع ذلك بقي الاتصال متينا بين وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية وإدارة المكتبة.

☆☆☆

ومن خلال هذا العرض الوجيز يتضح لنا أن نظام الأحباس نظام كامل في كل مراحل العصور الإسلامية، وقد لمسنا ذلك أخيرا من وثائق وحوالات تطوي أسرارا مهمة في سائر ميادين الأوقاف الإسلامية من مستندات ومشاريع عديدة، دينية وعلمية واجتماعية واقتصادية وإدارية.

وجل هذه الحوالات ظلت مدخرة في وزارة الأحباس وغيرها بنظارات الأحباس المحلية، وكثيرها عتيق جدا، لكن البعض منها في زوايا بعيدة كادت تحطمه الرطوبة أو تسربت إليه الحشرات، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لما أدركت هذه الخطورة اتصلت بالمكتبة العامة واقترحت

---

26) انظر نص التحبيس بالدرر الفاخرة ص : 167.

27) «نوادر المخطوطات الحبسية» دعوة الحق : ع : 3، س : 9 ـ يناير 1966.

28) انظر : «حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار» فصلة من مجلة «دعوة الحق» العددان الثاني والثالث، س : 16، عام 1973.

29) انظر : مكتبة الزاوية الحمزاوية لأستاذ محمد المنوني ص : 97، مجلة : «تطوان» ع : 8.

30) في أحد أجزاء مجلة «المجمع العلمي العربي»، نقلا عن تاريخ بن فياض أنه كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحب بالخط الكوفي... لقد ذكر المرحوم محمد المختار السوسي في كتابه : «سوس العالمة» بعض خزائن الكتب السوسية. فسمى منها أكثر من ثلاثين خزانة، لم تعرض للمؤلفين السوسيين وبعض مؤلفاتهم، من القرن السادس إلى الرابع عشر وختم بذكر مراجع تاريخ سوس التي صنفها السوسيون أنفسهم، مما سنح له، فبلغ ذلك 112 كتابا من موجودها، أو المظنون وجودها.

عليها تطهير هذه الحوالات بالآلة الخصوصية الكائنة بالمكتبة وتجليدها من جديد وترميم أوراقها المتلاشية التي كانت على وشك الانهيار. وعدد هذه الحوالات والوثائق يربو على أربعة وستين كناشا بأجزائها وكل جزء منها يبلغ عدد صفحاته ما بين المائة، والمائة وخمسين صفحة، وتمت العملية بمجموعة كتب الأوقاف الموجودة في الوزارة وفروعها بأنحاء المملكة وعددها 1216 مخطوط، وإن المكتبة العامة لتقدر عناية وزارة الأحباس ومجهودها واهتمامها بهذا التراث المجيد الذي هو جزء من أعمالها الكثيرة قد حققته في المرحلة الأولى وهذا ما يدل على أن أعمال الوزارة مدعمة بنشاط مجدي من خلال ما لمسناه من الوثائق المصونة التي يتجلى لنا من خلالها أن ميدان وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية واسع وحافل بالنشاط الحي.

الخزانة الحسنية :

لقد تحدث الأستاذ القدير المرحوم محمد عبد الله عنان عن عناية الدولة المغربية وملوكها بالحركة الفكرية والعلمية، حيث كان الملوك المغاربة، فضلا عن المجالس العلمية التي كانوا ينشؤنها ملحقة بقصورهم كثيرا ما يستكتبون أكابر العلماء والأدباء المعاصرين كتبا برسم خزائنهم، ويجزلون مثوبتهم عنها، وفي الخزائن المغربية كثير من هذه الكتب التي تشهد بهذه الحقيقة التاريخية.

إن الخزانة الحسنية الحالية[31]، خزانة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني تعتبر استمرارا للخزائن الملوكية المغربية، ومن ميراث صاحب الجلالة حفظه الله، أنه فتحها لعموم الباحثين، وطلاب الدراسات العليا، وهذه الخزانة الملكية الحسنية تضم في أبهائها ورحابها ما يربو على ستة عشر ألف كتاب مخطوط، وما يقارب هذا العدد من المطبوعات وفيها نسبة كبيرة من النوادر، فضلا عن عشرات الآلاف من الوثائق التاريخية الأصلية، وعدد من المخطوطات الوحيدة في العالم والنادرة.

ويتحدث عن هذه المكتبة الحسنية العامرة الأستاذ محمد عبد الله عنان أنه توجد من كتب التاريخ بين هذا المجموعة الضخمة نحو ألف كتاب، منها زهاء سبعين في التاريخ العام، وسبعة وخمسين في تاريخ الشرق الأدنى، ومائة وخمسين في تاريخ المغرب العربي، وعشرة في الأنساب والسيرة، ونحو خمسمائة في التراجم والمناقب... وهذا عدا ما يوجد في المجاميع المختلفة من كتب ورسائل تاريخية أخرى...

ومما هو جدير بالذكر أنه يوجد من عدد كبير من هذه الكتب التاريخية نسخ متعددة مختلفة الخطوط والتواريخ، مثال ذلك أنه توجد «من مقدمة» ابن خلدون خمس نسخ، ومن كتاب العبر ستة عشرة وحدة، ومن «الجمان، في أخبار الزمان» إحدى عشرة نسخة، ومن «نزهة الحادي» تسع نسخ، ومن «نفح الطيب» إحدى عشرة وحدة، ومن «أزهار الرياض» تسع، ومن «البيان المغرب» سبعة، ومن «روض القرطاس» إحدى عشرة، ومن «الذخيرة في محاسن الجزيرة» ست مختلفة الأجزاء، ومن «ريحانة الكتاب» إحدى عشر وحدة، ومن «قلائد العقيان» خمس، ومن «نشر المثاني» خمس، ومن «دوحة الناشر» اثنا عشر، ومن «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» خمسة عشر، ومن واسطة السلوك، في سياسة الملوك» عشرة، ومن «التشوف إلى رجال التصوف» خمس.

كما توجد بهذه المكتبة الملوكية الحسنية بعض النسخ الوحيدة مثل «السفر الخامس من المقتبس» لابن حيان، «وروضة الآس» للمقري، وهما نسختان وحيدتان في العالم.

31) انظر بحثا قيما للأستاذ محمد الفاسي بمجلة «البحث العلمي» بعنوان : الخزانة السلطانية، وبعض نفائسها، فقد ذكر قائمة مختصرة من نفائس هذه الخزانة ع 3، س : 1 عام 1964.

وقد تسقط المرحوم الأستاذ محمد عبد الله عنان ذخائر هذه المكتبة الحسنية، وعرف أسرارها الغزار، ووقف على كنوزها، وما تضمه من أعلاق ونفائس، ووجد بين هذه المجموعة التاريخية التي تضمها الخزانة الحسنية عددا كبيرا من الكتب المشرقية الهامة، ومنها عدد كبير متعدد النسخ مثل «مروج الذهب»، وتوجد منه سبع وحدات، و«حسن المحاضرة» للسيوطي وتوجد منه عشر نسخ، و«فتوح الشام» للواقدي، وتوجد منه ست، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان، وتوجد منه أربع عشرة وحدة، و«يتيمة الدهر» للثعالبي، وتوجد منه ست، و«الإصابة» في تمييز الصحابة لابن حجر، وتوجد منه ست، و«لواقح الأنوار» للشعراني، وتوجد منه أربع، كما توجد فيها كتاب «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، و«طبقات القراء» للذهبي، و«الطبقات الكبرى» للسبكي، و«طبقات الشعراني»، و«مرآة الزمان» لابن سبط الجوزي...

☆ ☆ ☆

ومن حسن حظ هذه الخزانة الحسنية أن قيض الله لها علماء أجلاء تعاقبوا على المحافظة على ذخائرها وكنوزها، وفهرست كتبها ومجلداتها فلقد أشرع جلالة الملك الحسن الثاني أبواب المكتبة الحسنية للعلماء والباحثين وطلاب العلم منذ شهر مارس عام 1962، وقد توفر لها منذ أن فتحت أبوابها في وجوه الباحثين لفيف من رجال العلم والتخصص في شؤون المكتبات كالمرحوم محمد العابد الفاسي، والأستاذ محمد المنوني، والمحقق ابراهيم الكتاني، وقد عهد إلى الأستاذ محمد المنوني باختيار هذه المنتخبات على القيام بمراجعة عامة، وتنظيمات أساسية، ثم دخل المسؤولون مرحلة الإحصاء والترقيم، ووضع سجل تقريبي كفهرس عام... فمن المشرفين والمحافظين عليها فضيلة المرحوم الأستاذ محمد داود الذي قام بتنظيم كثير من الوثائق التي لا تجمعها دفاتر، وفق طريقة تسهل الاستفادة منها، وذلك أنها قسمت على محفظات مرقمة، ومرتبة حسب التسلسل التاريخي لكل عهد سلطاني مع مراعاة اتحاد الموضوع أو الشخص المرسل والمرسل إليه...

ثم سعدت المكتبة الحسنية، بعد الأستاذ محمد داود بإشراف الأستاذ البحاثة المؤرخ السيد عبد الرحمن الفاسي الذي بذل من الطاقة والجهد، في تنظيم المكتبة وفهرستها، ما الله به محيط، وقد أصدر كتابا مفهرسا للمكتبة الحسنية، كان النواة الأولى للسلسلة التي تولى الإشراف عليها أساتيذ وخبراء، وقد بذل المحافظ الجاد والعالم القدير الأستاذ السيد محمد العربي الخطابي جهدا مضنيا على جمع هذه الكنوز فقام بوضع فهارس منتظمة لهذه المكتبة العظيمة فأصدرت المكتبة الحسنية لحد الآن ست مجلدات يتعلق الجزء الأول منها بفهرس قسم التاريخ وكتب الرحلات، وهو من عمل الأستاذ المرحوم محمد عبد الله عنان المحامي بالقضاء العالي، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومؤلف موسوعة التاريخ الأندلسي، أما بقية الأجزاء فهي من إعداد واجتهاد وتقديم الأستاذ محمد العربي الخطابي المحافظ لهذه المكتبة اليوم، الوزير السابق، وعضو أكاديمية المملكة المغربية... فالمجلد الثاني من الفهرس خصصه الأستاذ الخطابي للطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات، والمجلد الثالث فهو يشتمل على الفهرس الوصفي لمخطوطات الرياضيات والفلك وأحكام النجوم والجغرافية... أما المجلد الرابع فهو مخصص للفهرس الوصفي لمخطوطات المنطق وآداب البحث، والموسيقى، ونظم الدولة، والفنون الحربية، وجوامع العلوم، مع مستدرك على المجلدين الثاني والثالث، ويضم الفهرس الوصفي للمجلد الخامس دراسة مخطوطات الكيمياء، وتعبير الرؤيا والعلوم الخفية، والمجلد السادس يضم الفهرس الوصفي لعلوم القرآن الكريم.

إن الخزانة الحسنية الملوكية اليوم، عبارة عن قصر ضخم فخم عظيم جمع إلى روعة الفن والإبداع، والأناقة والجمال ما يدهش له الزائر، فقد بذل جلالة الملك في تشيد هذه الخزانة، وأنفق عليها، وأفرغ عليها من الفن المعماري المغربي الأصيل، ومن الوسائل العصرية التي تتطلبها أحدث المكتبات والخزائن.

اهتمام مؤسسة الوقف بنشر الكتب :

لكن الذي يهم هنا، وباختصار شديد، هو اهتمام مؤسسة الوقف، قديما وحديثا، في الشرق والغرب، بنشر الكتب، وفهرست المخطوطات العربية، كما هو واقع في المغرب وتونس ومصر والعراق وسوريا وتركيا وغيرها من الأقطار الإسلامية...

فلقد كانت مكتبة الأوقاف العامة ببغداد في سنة 1928، تضم آلافا من المخطوطات الوقفية في شتى اللغات، العربية، والتركية والفارسية وقليلا من الكردية بلغ عددها نحو : 3614، وجلها تحف رائعة، فيها النفيس، وفيها النادر، وفيها نسخ جمهرة من المؤلفين الأصلية وبخطوطهم... وقد تأسست هذه المكتبة من تسع خزانات، ومن بعض موقوفات أهل الخير، وسراة بغداد، ونفر من ولاة الدولة العثمانية...

وقد بقيت هذه التحف النوادر مخبوءة عن الملأ، مجهولة على الباحثين والعلماء، حتى قيض الله لها عالما جليلا هو الدكتور محمد أسعد طلس (ت 1959 م) الذي لجأ إلى بغداد في شتاء عام 1949، بعد أن أكره على مغادرة الشام إثر انقلاب العقيد الشيسكلي[32] الذي أطاح بحكومة سامي الحناوي (1898 ـ 1950)... ولما استقرت به الحال في حاضرة العراق، حبس نفسه في مكتبة الأوقاف العامة، بدءا من فجر عام 1950، ونهاية بصيف عام 1953، لفهرست مخطوطاتها حيث أثمر عمله هذا بكتابه الجليل : «الكشاف، عن مخطوطات كتب الأوقاف»،[33] وفي عام 1952 دخلت إلى المكتبة الوقفية مخطوطات جديدة، حيث تكفل بوصفها فهرس آخر[34] وإذا تصفحنا كتاب : «مكتبة الأوقاف العامة، تاريخها ونوادر مخطوطاتها» نجد أنه كفل بالتعريف بالمدارس والمساجد والجوامع والخزانات وأصحابها التي جمعت منها مخطوطات المكتبة الوقفية العراقية...[35]

وإننا لا نتحدث، عما تقوم به نظارات الوقف في العالم الإسلامي التي تسهر على طبع الكتب، ونشر التراث، وإحياء معاهد العلم والعرفان، فذلك موضوع يطول البحث فيه... وإنما نشير إلى ما قام به «ناظر الوقف» حديثا في بلادنا كمثال في الموضوع :

نشاط وزارة الأوقاف المغربية في العصر الحاضر :

فلقد أصدرت وزارة الأوقاف المغربية خلال العقود الأخيرة جملة من الكتب الدينية والعلمية، كما أصدرت مجلات ونشرات في مختلف المستويات، وفي مقدمة إنجازاتها طبع : «المصحف الحسني» الذي طبعت منه كمية وافرة، ووزعته على أوسع نطاق... كما اهتمت بإعادة طبع ونشر نظم المربي ابن عاشر في الفقه والعقيدة والأخلاق والتصوف، تلك المنظومة المفضلة في العالم الإسلامي، والتي كتب لها من الحظ والسعد حيث قام بشرحها كثير من العلماء، وأقبل عليها طلاب العلم في بداية دراستهم المعرفية... كما جددت الوزارة الوقفية طبع «رسالة» أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني[36] (ت 386 هـ) تلك الرسالة المبسطة المشهورة في الفقه، والميسرة لتعليم الولدان والأطفال، والتي سأل المؤدب محرز بن خلف الصالح التونسي الجليل[37] من الشيخ الفقيه ابن محمد عبد الله بن زيد القيرواني أن يؤلف له مختصرا، في الفقه، وقد وصف مؤلف الرسالة ذلك بقوله : «فإنك سألتني أن أكتب

---

32) اغتيل في 27 ـ 9 ـ 1964 في إحدى الولايات الأمريكية.

33) طبع بنفقة : «مديرية الأوقاف العامة في عام 1953 في بغداد الذي وصف فيه : 3614 مخطوطا استغرقت (428) صحيفة من القطع الكبير وبعمودين.

34) هو كتاب : «المستدرك على الكشاف، عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف» لعبد الله الجبوري، طبع في بغداد عام 1965 في : 11 صحيفة متوسطة.

35) انظر، فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد مقدمة الجزء الأول... مطبعة الإرشاد ـ بغداد 1973.

36) لقد تفقه عليه جماعة من الافريقيين، ومن أهل الأندلس والمغرب الأقصى (مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص : 106 لحسن حسني عبد الوهاب).

37) وقيل لطلب الشيخ ابن إسحاق السبائي.

لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة وتعمله الجوارح».

فلأبي زيد نظرة صائبة في مراعاة مستوى من يكتب إليهم طلبة علوم الشريعة، ولئن خصص كتابه «الرسالة» للطالبين الذين لا يحتاجون إلى تعمق واستفاضة، فإن آثر ذوي الدراية من أهل الاختصاص في العلوم الشرعية بكتابه : «النوادر والزيادات»[38] الذي قال في مقدمته : «واعلم أن أسعد الناس بهذا الكتاب من تقدمت له عناية بالعلم، واتسعت له دراية، لأنه اشتمل على كثير من اختلاف العلماء المالكيين...»[39].

بيد أن «الرسالة» التي تضمنت زهاء الأربعة آلاف مسألة فقهية بأسلوب مختصر ساعد على اتخاذها كتاب دراسة لطلاب الفقه في أغلب بلاد افريقيا المسلمة، وغيرها، مما مكن لها الذيوع والاشتهار والانتشار منذ عهد بزوغها وبروزها، وقد تلقاها معاصر ابن أبي زيد الفقيه العراقي القاضي عبد الوهاب بأكبار وإعجاب، وتولى شرحها، وقد بعث القيرواني إلى قاضي العراق عبد الوهاب، إذ ذاك، ألف دينار من الذهب العين مكافأة له على شرحه لرسالته...

كما اهتمت وزارة الأوقاف المغربية بطبع ونشر كتب القاضي أبي الفضل عياض، وفي مقدمتها كتابه المبسط الذي يقبل عليه جمهور عريض من المبتدئين : «الإعلام، بحدود قواعد الإسلام»، ولقد أعادت الوزارة المذكورة طبع كتاب : «المعيار» للونشريسي بأجزائه الثلاثة عشر طباعة عصرية راقية، وقد تضمن هو، أيضا، فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب، حيث نجد فيه دراسة عن تعليم الأطفال، ومناهج التربية، وملاحظات في التعليم في تضاعيف الكتاب، كما طبعت الوزارة الوقفية كتاب : «أزهار الرياض» بأجزائه الخمسة، للقاضي عياض الذي عرض للتعليم المغربي ومناهجه، ومقارنته بالتعليم في العالم العربي في عصره.[40]

☆ ☆ ☆

اهتمامات تعليمية في الفكر الإسلامي :

ولم يكن اهتمام علماء المسلمين بقضايا التعليم قاصرا على عصورنا المتأخرة فقط، بل إننا نجد **اهتمامات تعليمية في الفكر الإسلامي** قديما، برزت في وفرة الكتب التي ألفت في الموضوع خلال العصور الزاهرة للعالم الإسلامي... فقد ألف أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الجزار القيرواني الذي عاش أواخر القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري كتابه : «سياسة الصبيان وتدبيرهم»،[41] وخص أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون فصولا كاملة في مقدمته، أبدى فيها ملاحظات ونظريات[42] وألف القاضي أبو بكر بن العربي (ت : 543 هـ عدة كتب تجسدت فيها آراؤه التربوية مبثوثة في كثير من تآليفه «كراج المريدين». و«قانون التأويل» «ومراقي الزلف» «والأحكام» «والعواصم من القواصم»،[43] الذي تعرض فيه لبعض الملاحظات التربوية، فقد وصف مثلا، من صفة التعليم بالأندلس الشيء الكثير، وتكلم في كتاب : «الرحلة» على

---

38) النوادر والزيادات مخطوط بالجامعة التونسية في عدة أجزاء أكثر من مائة جزء، قيل هو أجمع كتاب في المذهب... يوجد جزء منه بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : 1731 د. كما يوجد الجزء الخامس بالخزانة الحسنية تحت رقم 5050، وتوجد قطعة منه بخزانة القرويين بفاس تحت رقم : 793/40.

39) يذكر الشيخ محمد أن كتابه هذا مع مختصر المدونة هما المعول في المذهب المالكي، وذلك يدل على أهميتهما (شجرة النور الزكية ص : 86. ـ «الديباج» ص : 137 وبروكلمان في ملحقة ج : 302/1.

40) «أزهار الرياض» ج : 3. ص : 24، روضة.

41) طبعته الدار التونسية، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة عام 1968.

42) انظر الباب السادس الذي عرض فيه ابن خلدون لارتقاء التفكير الإنساني، ولنشأة العلوم وترتيبها، وللتعليم وطرقه، وللظواهر التربوية، وفي هذا الباب مقدمة ولواحق، ابتداء من ص : 973 ـ 3/1110.

43) كتاب : العواصم من القواصم من خيرة ما كتبه القاضي أبو بكر بن العربي، ألفه عام 536 هـ، وهو في دور النضج الكامل، بعد أن امتلأت الأمصار بمؤلفاته وبتلاميذه الذين صاروا في عصرهم أئمة يهتدى بهم... وهذا الكتاب في جزأين متوسطي الحجم، وقد حقق الأستاذ محب الدين الخطيب : «العواصم من القواصم» في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي، وهو أحد مباحث جزئه الثاني من ص : 98 ـ 193، من طبعة المطبعة الجزائرية في مدينة قسنطينة بالجزائر عام 1347، وكان وقف =

أسلوب التعليم، وانتقد، واستحسن... كما دعا القرافي، من المائة الهجرية السابعة فقهاء عصره لمراجعة مسائل مذاهبهم وتنقيحها،[44] كما نصح الأبلي والمقري (القرن الثامن) العلماء بالعودة إلى مؤلفات الأقدمين. والابتعاد عن المختصرات، وألف أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحاج العبدري الفاسي (ت 773 هـ) كتابه «المدخل» أورد فيه فصولا مهمة في التربية والتعليم، وقد لمع اسم الإمام. ابن حزم (ت 456 هـ)، فألف رسالته في : «مراتب العلوم، وكيفية تطبيقها،[45] وفي كتابه : «الأحكام، في أصول الأحكام» يعرض منهجية الإسلام في التعليم الإلزامي في نفس طويل... ولخليل بن أيبك الصفدي كتاب : «العالم والمتعلم» على المسألة والجواب[46] ولأبي عمرو أحمد بن محمد بن عفيف بن عبد الله بن مريول الأمري القرطبي (تـ : 420 هـ) : «آداب المعلمين،[47] كما أن لأبي حامد الغزالي كتاب : «زاد المتعلمين،[48] ولمولانا العلامة الحسين بن أمير المومنين المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي المولود (999) ت 1050 هـ : «آداب العلماء والمتعلمين».[49]

ومن الذين أسهموا في ميدان التربية والتعليم أبو العباس أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني (ت في حدود 920 هـ 1514 م) فألف كتابه : «جامع جوامع الاختصار والتبيان، فيما يعرض بين المعلمين وآداب الصبيان[50] وهناك توصية في موضوع تحديد المواد الدراسية وترتيبها، وما يستحسن أن يواكبها من سيرة حسنة، وخلق حميد، كتبها أبو حامد محمد العربي الفاسي (ت 1052 هـ) يخاطب بها أبناءه، وقد رحلوا من تطوان إلى فاس ابتغاء طلب العلم، وغاية الدراسة حسبما يحتفظ بهذا النص كناشة محمد المدني بن جلون الفاسي، ثم كناشة الطاهر الافراني السوسي.[51]

وللسلطان سيدي محمد بن عبد الله، «مواهب المنان، مما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان»، فقد جمع فيه «مسائل مهمة من علم أمور الدين قريبة المقاصد، شهيرة الموارد، مقتصرا فيها على الضروري ليسهل حفظه على الصبيان، وهي أيضا نافعة لمن اقتصر عليها في دينه من الشيوخ والكهول والشبان.[52]

ثم جاء قاضي فاس الشيخ الطالب بن حمدون بن الحاج السلمي المرداسي الفاسي (ت : 1274 هـ) فألف كتابه : «الأزهار الطيبة النشر، فيما يتعلق ببعض العلوم من المبادئ العشر» وهو مفيد جدا، وقد طبع بفاس.[53]

وقد عقد الإمام أبو الحسن علي بن مسعود اليوسي (تـ : 1102 هـ) فصلا في «قانونه»،[54] ذكر فيه أصول وطرق نشر العلم، وأحكام العالم والمتعلم، وأصول طرق نشر العلم، فقال : «بأن التعليم بصورة التدريس، فأصله ما كان

على تلك الطبعة شيخ علماء الجزائر الأستاذ عبد الحميد بن باديس رحمه الله (انظر : التعريف بكتاب العواصم مقالا للأستاذ العلامة عبد الحميد بن باديس في كتاب ابن باديس حياته وآثاره للأستاذ عمار الطالبي ص : 4/128) ولست أدري هل نشر ابن باديس كتاب القبس، على موطأ مالك بن أنس الذي توجد منه نسخة خطية بخزانة ابن باديس رحمه الله.

44) كتاب : «الفروق»، ط : دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ص : 2/109.

45) منشورة ضمن ثمان رسائل حزمية بمطبعة دار الهنا بمصر، كما حققها وترجمها إلى الانجليزية البروفيسور أنور شجته، ونشرتها دار قاضي بأمريكا...

46) «نكت الهميان، في نكت العميان» ص : 205، وطريقة السؤال والجواب، مثل طريقة سحنون في تلقيه عن عبد الرحمن بن القاسم أقوال مالك في المدونة، وطريقة سيبويه في تدوين أقوال الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب.

47) الذيل : ص : 3/4.

48) هدية العارفين ص : 6/80.

49) طبع بالدار اليمنية للنشر والتوزيع عام 1985.

50) توجد نسخة منه خطية بالمكتبة العامة بتطوان ضمن مجموع رقم : 595، وتوجد نسخة منه بنفس الخزانة ضمن مجموع رقم : 739، انظر مقالا مفيدا للأستاذ الباحث سعيد أعراب بعنوان : «دور المغاربة في تربية الطفل» «وعدد الحق ع : 5، س : 20، ماي 1979.

51) الكناشات المغربية، ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية «للأستاذ محمد المنوني مجلة» : المناهل، ع : 2، ص : 204 ـ 205.

52) الفتوحات الإلاهية، تقديم سيدي المدني ابن الحسني ص : 19، من الترجمة.

53) انظر سلوة الأنفاس، ص : 151 ـ 158، ط : حجرية عام 1317.

54) طبع على الحجر بفاس عام 1310 ـ و1315، وتوجد منه نسخ

عليه السلام يفعله في مجالسه مع أصحابه في تبيين الأحكام والحكم والحقائق، وتفسير الآيات القرآنية، وذكر فضائلها وخواصها وغير ذلك، وهو كتاب مفيد جدا فيه كثير من الأبحاث والفرائد.[55] يشهد لصاحبه بلطافة المنزع، وعذوبة المشرع.

وهذا أبو عبد الله محمد بن عثمان الطرنباطي أحد علماء القرويين الذين نبغوا في القرن الثاني عشر الهجري له كتاب في فضل العلم فسماه : «بلوغ أقصى المرام، في شرف العلم، وما يتعلق به من الأحكام» حيث أوضح في مقدمته الأسباب التي أدت إلى اختراع المسلمين ما اخترعوا من العلوم، وتبنى ما تبنوه.[56]

كما نظم محمد بن العربي الأدوزي الباعقيلي أرجوزة في الحث على الازدياد من كرع العلوم،[57] وقد ختم محمد بن عمران البصري المكناسي،[58] كتابه : «إتحاف أهل الهداية والتوفيق والسداد، بما يهمهم من فضل العلم وآدابه والتلقين وطرق الإسناد» بأبواب وفصول في فضل العلم، وآداب الطلب، وما يتعلق بذلك من الفوائد، مع ذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم بالقراءة والإجازة[59] وهو ثبت حفيل دال على غزارة علمه، وشدة اعتنائه بالدراية والرواية.[60]

ولعبد العزيز الرسموكي القاضي البرجي : «نظم العلوم الفاخرة،[61] وقد شرح الشيخ الجليل محمد بن أحمد الحضيكي،[62] ومحمد بن ابراهيم الثوري[63] منظوم العلوم الفاخرة...

ولأبي القاسم بن سعيد ابن القاسم العميري[64] التادلي آخر أدباء وقضاة العدل بمكناس :[65] «التنبيه والإعلام، بفضل العلم والإسلام...[66]

وقد نظم أبو حامد العربي بن عبد الله بن أبي يحيى المساري[67] (تـ 1240 هـ) «سراج طلاب العلوم، في آداب طلب العلم والتعلم والتعليم،[68] وهي أرجوزة شبه دليل للطالب مدح فيها العلم وبين الطريقة المثلى التي ينبغي اتباعها والوسائل التي لا غنى عنها للنجاح في هذا الشأن، وقد ساق الأستاذ السيد محمد السائح نماذج منها،[69] وقد شرح هذه الأرجوزة أحمد بن المامون البلغثي (تـ 1348 هـ) في كتابه : «الابتهاج بنور السراج.[70] ولسعيد بن سعيد بن

مخطوطة في المكتبات الآتية : المكتبة الحسنية بالرباط رقم 6643، وخزانة الرباط العامة، أرقام ق : 931، ج : 1304، 2382 د. ـ 2359 د. خزانة تمكروت رقم 1923، ظاهرية دمشق 7934.

55) نشر بالمطبعة الحجرية عام 1310، ولليوسي، أيضا، أرجوزة فقهية على نمط المرشد المعين لابن عاشر مخطوط المكتبة العامة 157 ح، ضمن مجموع، ورقة 124 أ، 131 ب، ورقم 1164، و«وصية الإمام اليوسي لأولاده وإخوانه» مخطوط المكتبة الحسنية بالرباط رقم 1577، وقواعد الإسلام، من مضمون حديث النبي عليه السلام في واجبات المكلف» نفس المجموع السابق ورقة 27 أ ـ 42 ب. وانظر : اليوسي مشاكل الثقافة المغربية في القرن السابع عشر لجاك بيرك. وانظر أيضا : «عبقرية اليوسي»، للدكتور عباس الجراري الذي وضع بيليوغرافية قوائم بإنتاج اليوسي في جميع ألوانه وفنونه.

وانظر «المبحث الثالث : لآثار اليوسي» من كتاب : «الفقيه أبو علي اليوسي، نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية، ص : 231 ـ 335 للدكتور عبد الكبير العلوي المدغري.

56) توجد مبيضته الأصلية بخزانة الأستاذ المرحوم علال الفاسي، انظر تحليلا للكتاب وتوضيحا لمقاصده ومراميه في مقال كتبه الأستاذ علال الفاسي في مجلة «تطوان» ص : 59، ع : 5، س : 1960.

57) سوس العالمة ص : 204.
58) انظر ترجمته في الاتحاف ص : 4/147.
59) الاتحاف لابن زيدان ص : 4/158.
60) مخطوط بالمكتبة الحسنية ضمن المجموعة الزيدانية رقم 1252.
61) سوس العالمة ص : 193.
62) نفس المصدر والصفحة.
63) سوس العالمة ص : 195.
64) نسبة لبني عمير.
65) انظر ترجمته في الاتحاف ص : 5/541.
66) نفس المصدر ص : 5/545.
67) انظر ترجمته في : المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية» للأستاذ محمد السائح ص : 77 ـ 88، الابتهاج : للبلغيثي ص :3، الشيخ مخلوف، شجرة النور ص : 438.
68) هذه الأرجوزة مؤرخة في 27 جمادى 2 عام 1185 ـ 1771/10/5 م.
69) ص : 80 ـ 81، وقد نشرت هذه الأرجوزة على حدة بالمطبعة الحجرية الفاسية في عشر صفحات، كما طبعت بمصر ضمن شرحها...
70) طبع بمطبعة م.أفندي مصطفى ـ القاهرة 1319 ـ 1901 ينتهي ج : 1 في 293 ص والثاني يشتمل على 231 ص.

داود بن سليمان الكراسي : معونة الصبيان على الدرر اللوامع،[71] كما أن لإيبورك بن عبد الله جملة كتب منها نصيحة الطلبة،[72] ولمحمد بن محمد بن عبد الله بن يعقوب : النصيحة التامة للمتعلمين،[73] ولأحمد بن سليمان الرسموكي الفرضي نزيل مراكش : كفاية ذوي الألباب، في فهم معونة الطلاب للدادسين، وشرح آخر عليها صغير وآخر متوسط، وهو موجود الآن.[74]

بل إن كثيرا من العلماء المسلمين والأدباء كانوا يعنون بمادة الدراسة وقواعدها سواء في الكتابة وطريقتها، والرسم وأشكاله، والاعراب وأنواعه، وهذا باب رحب الحدود، بعيد الآفاق ألف فيه غير واحد من علمائنا... ونجد كتابا لابراهيم بن الحسن النظيفي نزيل مراكش : «مدخل الطلاب، إلى قواعد الإعراب،[75] ولعبد الرحمن السوسي نزيل درعة مؤلف في : «إنكار رموز الطلبة في الألواح.[76]

☆ ☆ ☆

تلك هي ملامح الحركة الفكرية والعلمية التي قام بها نظام الوقف وناظره في مساجد ومكاتب الحواضر الإسلامية وبواديها، ولا سيما في بلادنا المغرب عموما، وفي القطر السوسي خصوصا، فلقد تكلف العلماء السوسيون للتعرف ـ مع ما يستنفد ذلك منهم من جهد، وما يقتضيه من وقت لم يقصر عملهم على القراءة والتدريس، ولم يصدهم عن التأليف بالعربية والكتابة فيها، وحوك الشعر والإجادة فيه على أوزانه، فقد صنفوا بالعربية كتبا في القراآت والتفسير والحديث والفقه والسيرة والعربية والأدب، والتوقيت والطب، وكتبوا على الرسالة والتلقين والتنقيح والمدونة، ومختصري ابن الحاجب وخليل، وجامعي خليل وبهرام، والشفاء والأربعين والبردة والهمزية، واللاميات والتسهيل والألفية وغير ذلك مما اشتهر بعضه عند الطلبة والفقهاء والمسندين حتى خارج إقليم سوس، فكان يستعمل في الدراسة والفتوى والمراجعة مثل شرح الرسموكي على جمل المجرادي، ومقنع المرغتي وشرحه، ونوازل السكتاني والعباسي، وصلة بن سليمان الرداني، وفوائد التامانارتي، وقد نقلوا إلى لهجتهم الشلحية بعض الكتب المشهورة في الاعتقاد والفقه والسيرة والقصص، تسهيلا على الذين فاتهم تعلم العربية، وحرصا على إرشادهم لأمور دينهم، فترجموا مختصر خليل، ومرشد ابن عاشر، ومجموع الأمير، ورياض الصالحين للنووي، وأربعينية وبردة البوصيري، وحكم ابن عطاء الله، ونور اليقين والمقنع، والفرائض.

وهكذا كان القطر السوسي، من الناحية العلمية والدينية، دار علم ودين وتصوف، زاخرا بالقراء والفقهاء والأدباء والصلحاء، كثير المساجد والزوايا والمدارس والخزائن، عامر القرى والمداشر بالأئمة والمعلمين، ينصب أهل كل قرية قارئا فقيها يرتبون له ما يكفيه من المؤونة اليومية، ويشترطون له عليهم غيرها من العطاء والحراثة والحصاد كل سنة فيعتكف في مسجدهم على إقامة الصلوات والإمامة بهم، وتسجيل عقودهم، وتعليم أولادهم، الكتابة، وتحفيظهم القرآن.[77]

☆ ☆ ☆

أنواع من الأنشطة الترفيهية في ميدان التعليم :

وإلى جانب هذا، فقد اهتم علماؤنا عموما، ورجال التربية منهم بالخصوص بناحية أخرى في مناهجهم التعليمية والتربوية، وخصصوا لطلابهم أنواعا من الأنشطة تحدث عنها علماء التربية قديما وحديثا، فهذا «مختصر الأفاريد»، عبارة

---

71) «سوس العالمة» ص : 178.

72) نفس المصدر : ص : 183.

73) نفسه المصدر : ص : 190.

74) نفس المصدر : ص : 192.

75) نفس المصدر ص : 199.

76) نفس المصدر ص : 194.

77) سيدي عبد الكريم بن الحسني ابن سيدي المدني في تقريظه «للمعسول» ص : 20/318.

عن كتيب صغير لمؤلف من مدينة تازة مجهول الاسم، وهو كتاب يهتم بحياة الطلاب المجاورين بالمدارس لتلقى العلوم، تناول حسب الأعراف المرعية بين الطلبة آداب سلوكهم في الحياة اليومية فيما بينهم وإزاء الأساتذة، وفي معاملات العموم. كما يعنى بالحياة المرحة للطلاب، ويخصص لهذه الغاية بعض الأبواب والفصول لتناول الموضوعات التالية : 1 ـ ألعاب طلابية 2 ـ أنظمة لعب الكرة 3 ـ نزهة شعبانة، تعريف بأصول الطبوع الموسيقية الأندلسية.... والكتاب يفيض فكاهة ودعابة ونكتة ومرحا...[78]

الرباط : محمد بنعبد الله



78) تكرر نشره بالمطبعة الحجرية الفاسية، وتحمل الطبعة الأولى تاريخ 1300، في 11 ص من الحجم المتوسط الرسالة التربوية ع : 1 ـ عام 1976 يناير ـ انظر الدرر الفاخرة ص : 23.

المغرب يودع أحد أعلامه:

العلامة عبد الله كنون يلتحق بالرفيق الأعلى

جلالة الملك انعم على الفقيد بوسام الاستحقاق الثقافي قبل وفاته

ودع المغرب علما من أعلامه العلامة سيدي عبد الله كنون الأمين العام لرابطة علماء المغرب الذي وافاه أجله المحتوم وبفقده فقدت اللغة العربية أحد أعلامها ورموزها الكبار، والذي أسهم في حياته بنصيب وافر في التعريف بالتراث الأدبي الزاخر، كما خدم اللغة وآدابها خدمة متميزة.

وقد حضر مراسم الجنازة وفد رسمي تألف من مستشار جلالة الملك السيد أحمد بن سودة ووزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد عبد الكبير العلوي المدغري ومؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ورئيس المجلس العلمي بالعدوتين الرباط وسلا الشيخ المكي الناصري والعلماء وذلك بحضور شخصيات أخرى وجمهور غفير من سكان طنجة.

وقبل انطلاق موكب الجنازة تلا السيد بن سودة في بيت الفقيد نص الرسالة الملكية المؤرخة بيوم 3 يوليوز الجاري أعلن فيها قرار جلالة الملك بالإنعام على سيدي عبد الله كنون بوسام الاستحقاق الثقافي الذي كان جلالة الملك قد كلف بشأنه مجموعة من العلماء لتسليمه إلى العلامة الراحل في مقر سكناه بطنجة بمناسبة عيد الشباب.

وبعد تلاوة هذه الرسالة قام مستشار جلالة الملك السيد أحمد بن سودة بوضع الوسام على نعش العلامة سيدي عبد الله كنون تغمده الله برحمته.

وفي ما يلي نص الرسالة الملكية :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

الطابع الشريف وبداخله الحسن بن محمد بن يوسف الله وليه ومولاه محب جنابنا الشريف العلامة الكبير الفقيه الجليل المجتهد والشاعر الأديب المجدد والشيخ الأستاذ عبد الله كنون رئيس رابطة علماء المغرب.

أمنك الله ورعاك وحفظك وبارك خطاك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وبعد. فتقديرا منا لعلمك الغزير وإخلاصك الكبير ووفائك المنقطع النظير ولمواقفك الوطنية الفذة التي تجلت في كثير من المناسبات ولجهادك وكفاحك على عدد من الواجهات ورعيا لعطاءاتك العلمية المتعددة وإسهاماتك الفكرية والأدبية المتجددة الأمل الذي رشحك بحق لحمل

لقب أستاذ الأجيال دون منازع وجعل اسمك وعطاءك العلمي يتجاوز حدود بلدك ويبوؤك العضوية البارزة في عدد من النوادي الفكرية والمجامع العلمية الرفيعة في كثير من البلاد العربية والإسلامية.

وعرفانا منا لم أسهمت به من إسهامات قيمة متميزة في الدروس الحسنية التي ألقيتها بين يدينا في شهور رمضان المبارك والتي كنت تختار لها من المواضيع ما يحض على التدبر والتأمل وما يرتفع بعقل المسلم ووجدانه إلى أعلى المقامات واعتبارا لوفائك لنا ولوالدنا رضوان الله عليه وللعرش العلوي ذلك الوفاء الذي ورثته عن بيتك العلمي العظيم وأسرتك الكريمة التي ارتبط فيها أباؤك وأجدادك ارتباطا وثيقا بأجدادنا حتى بعد هجرتكم إلى طنجة عقب إعلان الحماية واستقراركم بها إذ تابعتم جهادكم بنشركم للعلم والدين والوطنية والموعظة الحسنة إلى أن كلل الله مساعينا بالنجاح وما يزال موقفك ماثلا في ذهننا ونحن في مطلع الشباب يوم خرجت لاستقبال والدنا المنعم جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه أثناء زيارته التاريخية المشهودة بطنجة في أبريل سنة 1947 فواصلتم ماضي الوفاء بحاضره وطريق الولاء بسليله.

وعرفانا منا بكل هذه الفضائل والأعمال الجلائل قررنا الإنعام عليك بوسام الكفاءة الفكرية ونحن على يقين من أنك ستحمله بجدارة واستحقاق فهنيئا لك به وأقر الله عينك بما يحمله إليك من حب ملكك عطفه ورضاه ومن تقدير أبناء وطنك من أقصاه إلى أقصاه.

وكم كان بودنا أن نقلدك إياه بنفسنا لولا ما بلغنا من توعك طارئ على صحتك عجل الله بشفائك وحقق فيه كامل رجائك فأثرنا إرسال وفد من العلماء لينوبوا عنا في هذه الوقفة الجليلة والمهمة النبيلة.

حفظك الله وصانك وبارك فيك وكثر للمغرب من أمثالك وأسبغ بفضله عليك نعمة الصحة والعافية وجزاك خيرا بكل ما أعطيته لدينك وقومك ووطنك وللأمة العربية والأمة الإسلامية جمعاء والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وحرر بالقصر الملكي بالرباط في يوم الإثنين التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة 1409 هـ الموافق لثالث يوليوز سنة 1989م.

☆ ☆ ☆

ويعد السيد عبد الله كنون في عالم الفكر، ودنيا الأدب علما من الأعلام، وقمة من القمم، وموسوعة من الموسوعات العلمية والفكرية، فقد كان رحمه الله ثروة تتمتع بها هذه البلاد، وحصيلة لايمكنها أن تتكرر إلا بعد أعوام وأعوام، فعلومه رحمة الله عليه ومعارفه متعددة الجوانب، متشابهة الأطراف، متوفرة الحصيلة...

لقد كان رضي الله عنه لايضن على سائل، ولا على مستزيد، ولا على متعلم، ولا على مستفيد بما لديه من معلومات اختزنتها ذاكرته، أو وعاها فهمه، أو أدركها في مكتبته، أو كتب عنها أو قرأها، أو سمعها... فقل أن يطرق بابه أحد ليستزيد أو يستفيد إلا ويجد عنده بغيته، ويحظى منه بكل ما أراد...

☆ ☆ ☆

للأستاذ سيدي عبد الله كنون عدد من الأعمال المطبوعة، ولعل أهمها كتابه «النبوغ المغربي» و«التعاشيب» و«أدب الفقهاء» - «واحة الفكر» - «عصف الريحان» - «خل وبقل» - «مفاهيم إسلامية» - «أزهار برية» - «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث» - «على درب الإسلام».

ومن قصصه : قصة تاريخية بعنوان «حارس الكنيسة».

ومن دواوينه الشعرية : «لوحات شعرية» بالإضافة إلى عدة دراسات وبحوث منشورة عن الأدب الأندلسي والدراسات الأندلسية في كثير من المجلات المغربية والعالمية..

فمآثر الفقيد، وجوانب شخصيته المتعددة وعلمه وفكره وأدبه فهي من الكثرة والتنوع ما سنعد القراء بإدراج ما وصلنا عن العلامة سيدي عبد الله كنون في أعدادنا المقبلة.

تغمده الله بواسع رحمه، وأسكنه فسيح جناته.



الفقيه السيد محمد التطواني في ذمة الله :

أمير المومنين صاحب الجلالة الحسن الثاني بعث وفدا هاما لتقديم تعازي جلالته حفظه الله لأسرة فقيد العلم والأدب الفقيه محمد أبي بكر التطواني.

شيعت مدينة سلا يوم الأحد عاشر محرم 1410 هـ العالم الفقيه السلفي محمد بن أبي بكر التطواني أحد وجوه العلم والفضل والأدب في حفل مؤثر شارك فيه كل من أصدقاء الفقيه ومقدري فضله من أهل المعرفة والعلم والوطنية، وسائر وجوه المدينة من مختلف الفئات والطبقات، كما تقاطر على بيت الفقيه بسلا للتعزية العديد من الشخصيات ومن أصدقائه وخلانه الذين ربطته بهم عرى وثيقة، أساسها الصوفية والتقوى.

وعلى اثر انتقال العلامة الفقيه إلى عفو الله بعث صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني وفدا يتكون من السادة أحمد بنسودة مستشار جلالته وابراهيم فرج الحاجب الملكي وعبد الوهاب بنمنصور مؤرخ المملكة ومحافظ ضريح محمد الخامس وأعضاء من ديوان جلالته ليقدم التعازي إلى أسرة فقيد العلم والأدب الفقيه التطواني الذي قضى حياته رحمه الله مناضلا في سبيل خدمة العلم وأهله.

وقد طلب أعضاء أسرة الفقيد من الوفد بأن يرفع للجناب العالي بالله تشكراتهم الحارة الخالصة المقرونة بالوفاء والولاء داعين المولى جل وعلا بأن يطيل عمر جلالته ويبقيه دخرا وملاذا لشعبه الوفي وحصنا حصينا للعلم والعلماء وأن يحفظه في كافة أسرته الشريفة.

رحم الله الفقيه السيد محمد التطواني، وأسكنه فسيح الجنان.

وزير الدولة الحاج امحمد اباحنيني

فـــي ذمـــة اللـــه

توفي يوم الثلاثاء 17 صفر الخير عام 1410 هـ الحاج امحمد باحنيني بمستشفى بيتي سالبيتريير بباريس عن سن يناهز 75 سنة وذلك إثر مرض طويل.

وقد نقل جثمان الفقيد الذي كرس حياته لخدمة المملكة إلى الرباط.

وقد أوفد صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد لحضور مراسم تشييع الجنازة.

وقد دفن الفقيد بالزاوية المكية بالمدينة العتيقة بالرباط حيث أقيمت صلاة الجنازة بعد أداء صلاة العصر.

حضر مراسم تشييع الجنازة الوزير الأول الدكتور عز الدين العراقي ورئيس مجلس النواب السيد أحمد عصمان وأعضاء الحكومة ووزير القصور الملكية والتشريفات والأوسمة الجنرال مولاي عبد الحفيظ العلوي ومستشارو جلالة الملك وعدد من السفراء المعتمدين بالمغرب ووالي صاحب الجلالة على الرباط وسلا والعلماء وعدد من أعضاء أكاديمية المملكة المغربية وعدد كبير من الشخصيات المدنية والعسكرية.

وقد ازداد الحاج امحمد باحنيني بفاس عام 1914 حيث تلقى دراسته الابتدائية في حين تابع دراسته الثانوية بثانوية غورو بالرباط. والحاج امحمد باحنيني حامل لشهادة الدراسات القانونية والإدارية المغربية والإجازة في الحقوق والآداب..

وبعد أن شغل منصب كاتب مخزني عين قاضيا بالمحكمة الشريفة العليا ثم أستاذا بالمدرسة المولوية لتعليم أصحاب السمو الملكي الأمير مولاي الحسن والأمير مولاي عبد الله والأمير للا عائشة والأميرة للا مليكة.

وفي سنة 1950 شغل منصب مدير الديوان الملكي ثم استقال من هذا المنصب أثناء أزمة 1951 وعين بعد ذلك قاضيا منتدبا بمكناس حيث مارس مهامه إلى غاية دجنبر 1952 وهي السنة التي أبعد فيها إلى جنوب البلاد. وبعد عودة جلالة المغفور له محمد الخامس المنفى عين أمينا عاما للحكومة.

وشغل الحاج امحمد باحنيني منصب وزير العدل في حكومة السيد عبد الله إبراهيم. وعين في 20 اكتوبر 1970 وزيرا للدفاع الوطني وأمينا عاما للحكومة وظل يشغل هذا المنصب إلى غاية 6 غشت 1971 حيث عين وزيرا للعدل مع الاحتفاظ بمهام الأمين العام للحكومة. كما عين في 12 أبريل 1972 نائبا للوزير الأول مع ممارسته لمهام وزير العدل والأمين العام للحكومة.

وعين في 20 نونبر من نفس السنة وزيرا للدولة وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى غاية 25 أبريل 1974 حيث أصبح وزيرا للدولة مكلفا بالشؤون الثقافية واحتفظ بهذا المنصب في الحكومتين المشكلتين في 10 اكتوبر 77 و 28 مارس 1979. وعين الحاج امحمد باحنيني في 7 يناير 1980 وزيرا مشرفا على تربية أصحاب السمو الملكي الأمراء والأميرات، وعين يوم 5 نونبر 1981 وزيرا للدولة وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى أن وافته المنية.

وقد عقد مجلس الحكومة يوم الأربعاء 18 صفر الخير 1410 هـ الموافق لـ 20 شتنبر 1989م اجتماعه الأسبوعي برئاسة الوزير الأول الدكتور عز الدين العراقي الذي أبن في بدايته وزير الدولة الفقيد الحاج امحمد أباحنيني في كلمة قال فيها :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أيها السادة.

قبل أن نبدأ أشغال مجلسنا هذا لابد من أن نستحضر روح فقيدنا الحاج امحمد اباحنيني رحمه الله..

لقد اختار الله سبحانه وتعالى إلى جواره يوم أمس أخانا الحاج امحمد اباحنيني ففقدنا بذلك أخا وصديقا ورفيقا. لقد فقدنا فيه الرفيق المرجع الذي كنا نؤول إليه كلما استعصى علينا أمر وفقدنا فيه الأخ الذي يوفق بين الآراء المتضاربة وفقدنا فيه الإنسان البشوش والعنصر المهدئ الداعي إلى السكينة والمهادنة وإلى اعتبار عامل الزمن كمؤشر إيجابي في التخفيف من حدة المواجهات.

ولقد فقدنا فيه كذلك القلم المعبر عن مجلسنا كلما دعا الداعي إلى الإعراب عما يخالجنا من مشاعر أو آراء.

لقد كان الحاج امحمد اباحنيني رحمه الله وزير دولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى إذ كان بحق الوزير المشارك والرأي الصائب في قضايا المال والاقتصاد والثقافة والإدارة على السواء بفضل ما ألهمه الله من اتزان وحصافة رأي. وقبل هذا وذاك كان رحمه الله يمثل الخديم النموذجي والمثالي لملكه ولشعبه. قام بهذا الدور في أيام الكفاح الوطني وتحت نير الحماية إذ كان يجسم وهو يخدم المغفور له جلالة الملك محمد الخامس المساعد للممثل الشرعي للسيادة المغربية أمام إدارة أجنبية مهيمنة. وكان هذا يستدعي منه مواجهة يومية فردية وصريحة للطغيان الأجنبي الدخيل...

واستمر إلى جانب جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله يتحمل المسؤولية تلو الأخرى بنفس الحماس وبنزاهة فكرية عالية وتفاني مخلص في خدمة العرش والجالس عليه.

ومهما عددنا في هذه العجالة من مناقب فقد كان يكفيه شرفا أن يكون الرجل الذي ساهم في تربية صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني وفي تربية أبناء وبنات جلالته.

كما يكفيه فخرا أن يشكل أدبه وإنشاؤه مدرسة منفردة ويكون لها مكان متميز في العصر الحديث سيذكرها التاريخ كما يذكرها منذ اليوم كل من له تفوق سليم لفن الأدب الرفيع.

وأنه لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم باسمي وباسمكم بأحر العزاء إلى صاحب الجلالة نصره الله كما نعزي في وفاته السيدة زوجته الفاضلة وولديه الكريمين داعين الله سبحانه أن يتغمده برحمته الواسعة ويتقبله لديه بالقبول الحسن في جوار النبيئين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وبعد كلمة السيد الوزير الأول قرئت سورة الفاتحة ترحما على روح الفقيد.

رحم الله الفقيد الحاج امحمد اباحنيني، وأجزل له الثواب، وعزاء لأهله وأصدقائه ومحبي فضله وأدبه.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فهرس



